



رواية مقتل فخر الدين

فخر الدين شكوى

www.mlazna.com

^RAYAHEEN^

الدار المصرية اللبنانية

مقتل فخر الدين

عندما خطا فخر الدين خطوته الاولى في شارع العهد الجديد، أدرك ان الجو الغريب قد أحكم سيطرته... لا أحد في الشارع... أغلقت كل البيوت عيونها وقلوبها واستسلمت لنومها الطويل... سمعت بين السرايات لحظة، ثم انهار الصوت دائماً متفجراً من كل نافذة ومدخل وسطح... سقط فخر الدين سقطاً واحدة على رصيف الشارع، في دمه الأحمر القاني... أفسح الهواء صدره لإشارة الصمت، فصمتت الرشاشات الآلية... يطل وجه

أحد الجنود من باب بيت مقابل.. غير

الشارع مسرعاً شاهراً بندقيته

باتجاه الجسد الممدد على

الرصيف... اقترب في حذر

وعال عليه.. دفعه بقدمه،

فقلبه على ظهره... دفعه

بركبتين متلاحقتين حتى يتأكد

من موته.. رفع رأسه إلى من فوق

السطح، وأشار بإبهامه إلى أعلى.



الدار المصرية اللبنانية



مقتل فخر الدين

رواية

عز الدين شكري

الدار المصرية اللبنانية

شكري ، عز الدين ،
مقتل فخر الدين : رواية /عز الدين شكري . - ط3 . -
القاهرة : الدار المصرية اللبنانية ، 2009 .
248 ص 214 سم .
تدملك : 8 - 462 - 427 - 977
1 - القصص العربية
أ - العنوان 813



الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة .
تليفون : 202 23910250 +
فاكس : 202 23909618 + - ص ب 2022
E-mail: info@almasriah.com
www.almasriah.com
رقم الإيداع : 2009 / 2433
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة
الطبعة الثالثة والطبعة الثانية للدار المصرية اللبنانية
جمادى الأولى 1430 هـ - مايو 2009 م

واليوم أكملت الرسالة فانشروني، إن أردتم، في
القبائل توبة، أو ذكريات، أو شراعا
اليوم أكملت الرسالة فيكم
فلتطفنوا لهبي، إذا شئتم، عن الدنيا
وإن شئتم فزيدوه اندلاعا
أنا لي، كما شاءت خطاي
حملت روعي فوق أيديكم فراشات، وجسمي
نرجسا فيكم
وموتاي اندفاعا..

محمود درويش

الوداع

«ضد من؟»..
ومتى القلب - في الخفقان -
اطمان؟»..

أمل دنقل

العجلات الكبيرة الصلبة تهرس الأسفلت النَّدي في سيرها الحثيث. يهتز كوبري قصر النيل من وطأة حملته ، تمر قافلة السيارات أمام الأوبرا وفوق كوبري الجلاء ، لا سيارات أخرى في هذا الصباح . يملأ طابور السيارات شارع التحرير ، ثمة مطب فجائي مغطى بالماء المتبقي من مطر الليل . تهتز العربى بعنف عند المطب فيترنج الجنود أنصاف النائمين ويفيقوا . يُحكم جندي قبضته على السور الحديدي الملفف حول مقاعد العربى . ينظر الضابط الجالس على يمين السائق إليه بعنق وتمعن بسياب خارج . يتحسس نجمته الوحيدة على كتفه ومسدسه الأسود الرابض عند يمين حزامه . يمد ساقه إلى الأمام . هي كابينة القيادة متسع لقدميك . هذأت السيارة البيجو البيضاء التي تقود الطابور من سرعتها ، وتوقفت فتوقفت سيارات نقل الجنود خلفها تباعا . دقائق من الانتظار . تمنم جندي ثوبي بلحن خافت فأخرسه الجندي المجاور بشخير المفاجئ . استأنفت السيارات مسيرتها . عند ميدان الدقي انحرفت السيارة البيجو البيضاء يساراً ومن خلفها سيارتا نقل للجنود . بينما استكمل الطابور سيره في شارع التحرير . في صمت الخامسة صباحا ، كانت قطرات الندى تتحدر رويدا رويدا من أعلى كابينة القيادة على صاج السيارة الزيتي اللون . شغل الضابط مساحات الزجاج ثم أوقفها . شد الجنود قبضاتهم على المعصي المطاطية المعلقة هي أحزماتهم . عند شارع الزيات توقفت العربى الأولى . هبط الجنود متتابعين وساروا أمام الجامعة . توقفوا في صفين .

دخلت السيارة الأخرى إلى شارع الزيات، وقابلت السيارات القادمة من شارع التحرير وتوقفت سيارات نصف نقل زرقاء تحمل فرقاً صغيرة من الجنود تتسلل في الشوارع الجانبية لبيت السرايات وتصل حتى شارع السودان . أجهزة الإرسال لا تكف عن الشوشرة في أيدي الضباط المسرعين عبر الشوارع أمام جنودهم . وفتت البيجو البيضاء أمام قبة الجامعة حيث تولت أعمال القيادة والسيطرة بالتعاون مع السيارة الجيب المجهزة بنظام التحكم الآلي . طارت الإشارات في الأثير الصباحي تحمل أوامر بسيطة وموجزة . السيارات التي أفرغت حمولتها تتسحب إلى الجامعة . تدخل باب الجامعة الأخضر المتيق يثز وهو يفتح لسيارات نقل الجنود . تدخل السيارات تباعاً وتصطف أمام كلية التجارة . في الجامعة متسع للسيارات. الأحذية العسكرية الثقيلة تدب على الأسفلت المبلل ، تتطاير بضع قطرات من الماء والطين على ملابس الجنود الذين يصطفون في طوابيرهم نزولاً من السيارات . الجنود المزودون بالدروع والعصي يقفون صامتين في طابور مربع . تتقدم فرق الكاراتيه من شارع الزيات ونصار لتلتقي حول شارع المعهد الجديد وتحيط به . صفوف الجنود المزودين بالدروع تتقدم لتكمل سد المنافذ الخارجية لبيت السرايات وتنشئ الاستحكامات السريعة من حواجز المرور ودروع الجنود وأجسامهم . تتقدم فرق القناصة القادمة من شارع السودان لتحتل أسطح البيوت العالية في شارع الطوبجي الفاصل بين الدقي وبين السرايات . تتسلل في حرم فصائل منهم في شارع المعهد الجديد ، على سلاسل المنازل القديمة . كل البيوت أغلقت شبابيكها. تتعثر أقدام الجنود في صفائح القمامة في ظلمة السلم. تفر القطط المذعورة في فزع مكتوم الصوت . طفل صغير يعلو صراخه في

الدور الأرضي ثم يسمع صوت كركبة في المنزل ويصمت الطفل فجأة . كموب البنانيق مغروسة في أكتاف الرجال المتمترسة على الأسطح ، يُحدث الدجاجُ خشخشة في عششه تهدأ شيئاً فشيئاً . يكمل الجنود سيطرتهم على الأسطح العالية ، يحكمون نصب مدافعهم الآلية وتصويبها . تُجري قيادة القناصة اختباراً صامتاً للتنسيق وإحكام اصطياذ الهدف من مركزها في أعلى عمارات شارع الطويجي . يستكمل الجنود سد مداخل الشوارع الرئيسية والجانبية . يتجمع الضباط في حلقات على المحاور الرئيسية ، البيجو البيضاء - أسفل قبة الجامعة - تُجري اختباراً لقياس الاستعداد والتنسيق بين الفصائل الأرضية والقناصة . كل شيء جاهز ، وبين السرايات تحت السيطرة تماماً .

- 2 -

أخرج فخر الدين رأسه من تحت البطانية . فتح عينيه ثم أظفقهما ثانية . بقايا الضوء الذي تسلل داخل جفنيه يوخر مقلتيه . فرك جبينه بيده ثم أسند ظهره للسريـر . ما الذي أيقظه مبكراً هذا الصباح 19 لا يدري . شيء غريب في جو الغرفة لا يدري ما هو . نزل مُبطلًا من على السريـر إلى الأرض تتحسس قدماء هردتي الشيشب . خارجا من غرفة النوم إلى الصالة الصغيرة . أدرك فخر الدين أن هناك أمراً غريباً يسبح في هواء الشقة كلها . صمتٌ غريب يطبق على المكان والزمان ويمتد ليشمل الكون كله . صمتٌ جائم بصدره على الهواء وعلى الأشياء . فتح الحنفية فلم تجئ المياه . بحث عن الماء في المطبخ . تقشحت حواسه والماء يجلو بقايا الحلم من ثنـايا النوم في وجهه . الصمت الغريب يُكسب الهواء مرارة . النافذة الوحيدة هي الصالة

مفتوحة على ضوء بلا شمس . «ما الذي أيقظني مبكرا هذا الصباح؟» بقايا
العشاء لا تزال على المائدة الصاج المربعة . هذا الصمت مبالغ فيه .
لا صوت يأتي من الخارج ، حتى نقرات المطر الليلي توقفت ، حتى
بحيرة الماء التي تكونت على السطح الخشبي توقفت عن تسريب قطراتها
في المطبخ . وقف فخرالدين في الصالة يحرق في النافذة المرتفعة ، لا
شيء يبدو منها سوى سماء بيضاء مفعمة بسحاب رمادي داكن وقمة المنزل
المجاور . نظر فخرالدين إلى قمة المنزل المجاور وأمعن النظر . «من الذي
ضنط على نومي حتى خلق لحظته العابرة فأوقظها وأخرجني من الحلم
إلى النوم إلى اليقظة؟» نظر فخرالدين طويلا إلى قمة المنزل المجاور ثم
ارتسم على ملامحه هدوء وسلام . استدار إلى غرفة النوم .

فتح باب الدولاب الخشبي القديم . مد يده إلى جلبابه الأبيض وسرواله
الأبيض . بحث عن جوربه الأبيض والقمطه . أكمل فخرالدين ارتداء ملابسه .
هذاء كاوتشوك أبيض ، أبيض شامق ، عاد فخرالدين إلى الصالة ، وجال
بنظره على الأشياء مودعا : المنضدة ، الكرسيين الخشبيين ، ساعة
الحائط القديمة ، المقعد المريض ذي القاعدة الساقطة قليلا ، طرف
السريр البادي من الباب الموازي ، صورته وهو صبي يرعى الفئم ، النافذة
وقمة المنزل المجاور . فتح الباب ، وخرج .

عندما خطا فخر الدين خطوته الأولى في شارع العهد الجديد أدرك أن الجو الغريب قد أحكم سيطرته تماما . الجو الذي انسل إلى داخل شقته وشفط على نومه فأيقظه . موجود هنا . يكاد يلمس باليد . حجرا ينحت في الهواء . صمّتْ مرعب يشل الشارع . السادسة والنصف صباحا في بين السرايات وعم عبده ليس واقفا . والنسوة المتزاحمات حول قدرة الفول بملاءاتهن السوداء والأطفال الزاعقين مادي الأيدي بالأطباق البلاستيك غير موجودين . إبراهيم الصايغ لا يفرد جرائده على النصبية الخشبية . نافذة عم سليمان في الدور الأرضي مغلقة . بنات مدرسة بين السرايات القديمة لا يحملن الكتب والحقائب القماش ولا خرجن من الأبواب مندفعات ليلتقين في الشارع . النصبية الصفار لا يتقاذفون الطوب . عم سيد الحلاق لا يفتح الراديو . ودعاء الصباح لا يأتي من إذاعة الشرق الأوسط . لا أحد في الشارع . النوافذ مغلقة . أبواب البيوت مغلقة . المحلات الصغيرة والأكشاك مغلقة . الماء راكد في وسط الشارع . لا يتحرك . أغلقت كل البيوت عيونها وقلوبها واستسلمت لنومها الطويل . انصمت يذبح الهواء في هذا الصباح الشتائي الداكن . وجود مرعب غير مرئي ينبه الحواس ويفتح إشارات الحذر . فخر الدين يسير متمهلا في الشارع حتى نهايته . ينحرف يمينا في شارع السكري . الوجود الخفي كثيف ومنظم . عشرات العيون الخبيثة ترقبه وتسلمه بعضها لبعض . مر فخر الدين من جانب مصنع الكوكاكولا متجها إلى شارع السودان . ما زال انصمت شاملا . والوجود الخفي مسيطرا .

وفخر الدين سائرا . خفيف خفيف يأتي من بعيد . تزداد خطوته وعيا .
 يشر بالمسافة بين موضع قدمه وموضع الخطوة القادمة.. يخطوها .
 أسلمت كل البيوت أبوابها وعيونها للصمت المسيطر ونامت ، وفخر الدين
 يسير وحده في الشارع المغفر . لا صوت يأتي سوى خطوته وارتعاشة الجفن
 فوق المقلتين . توقف فخر الدين فجأة . انحبست أنفاسه لحظة وانتظر .
 لم يستدر . أطلق نفسه وخطا . صار فخر الدين خلف مصنع الكوكاكولا
 في تمام الساعة إلا الربع من صباح الأول من شهر أكتوبر . صمتت بين
 السرايات لحظة ثم انهل الصوت داميا متفجرا من كل نافذة ومدخل
 وسطح . متتاليًا سريعًا متدفقا متصلا نافذاً وقاتلاً . سقط فخر الدين
 سقطا واحدة على رصيف الشارع في دمه الأحمر القاني المنساب ساخنا
 على روائه الأبيض . اتصل صوت الطلقات متتاليًا لدقيقتين كاملتين . أفسح
 الهواء صدرا لإشارة الصمت فصمتت الرشاشات الآلية، صمتت شامل .
 أطل وجه أحد الجنود من باب بيت مقابل . عبر الشارع مسرعا شاهرا
 بندقيته باتجاه الجسد الممدد على الرصيف . اقترب في حذر ومال عليه .
 دفعه بقدمه فقلبه على ظهره . بان وجه القتل . دفعه بركلتين متلاحقتين
 حتى تأكد موته . رفع رأسه إلى من فوق الأسطح وأشار بإبهامه إلى أعلى .

مقدمة المحقق

«ليت الفتى حجر..
يا ليتني حجر...»

محمود درويش

لماذا تم تكليفي أنا بالتحقيق ؟ لا أدري . ربما صدفة وربما هي تصارييف
القدر التي لا نعرف حكمتها إلا متأخرين . ربما لاشتهاري بالسرعة والكفاءة
وهما عاملان كانا مطلوبين لهذه القضية . ربما وربما . الاحتمالات كثيرة .
ولكن النتيجة بالنسبة لي واحدة . وهي أن حياتي بعد ذلك لم تعد تلك التي
عشتها قبل أن أشرع في التحقيق في حادث اختفاء فخر الدين . وأن هذا
التحقيق . بما تضمنه من مقابلات قمت بها وأحاديث اشتركت فيها ووقائع
شهدتها ووثائق اطلعت عليها وحقائق تكتشف لي . قد ألقي بنور غير عادي
فيما تبقى من حياتي وغيّر من مجراها وأكسبها شكلا ما كنت أظن أبدا
أنها قد تتخذه في يوم من الأيام . وليس هنا مقام سرد قصة حياتي ولا
كيف تغيرت . ولكني لم أستطع أن أمنع نفسي من الإشارة لذلك (ولا أدري
ما أهمية ذلك الآن) . حادث عادي . شاب في السابعة والعشرين اختفى من
محل إقامته في أول أكتوبر . إبلاغ أقسام الشرطة وعمل نشرة في الصحف .
تحقيق سريع مع أهله ومعارفه ثم إغلاق الملف وحفظ القضية . حادث
عادي يتكرر كل يوم . ولكن شيئا غير عادي بالمرة قد حدث وغيّر من كل
ذلك . ولكن لأحاول أن أكون مرتبًا .

أنا عمر فارس وكيل نيابة بمكتب النائب العام . من مواليد القاهرة .
عزّب ووحيد منذ وفاة والدي . أقطن في شقة متوسطة المساحة في شارع
القصر العيني . ليس لي اهتمامات محددة خارج نطاق عملي سوى ركوب
الخيول في نادي الفروسية من حين لآخر . خبير بتحقيقات من الدرجة الأولى
ومتخصص في القضايا المستحيلة . تم اختياري للعمل في مكتب النائب

العام بعد أن ذاع أمرى عقب سلسلة من التحقيقات كثرت قد قمت بها في قضايا لشركات توظيف الأموال ، ومنذ ذلك الوقت وأنا أعمل بالمكتب . أقصد حتى بدأت التحقيق في حادث اختفاء فخر الدين .

في أول نوفمبر ، منذ خمس سنوات بالضبط ، استدعاني محمود بك مدير المكتب وألقى إليّ بملف أبيض اللون وطلب مني دراسته . وبعد أن أمضيت نهاري في تصفح محتويات الملف عدت إليه أسأله عن المطلوب مني بالضبط . والذي فهمته منه آنذاك أن النائب العام قد تلقى بلاغات متعددة للتحقيق في هذا الحادث وأنه مهتم جدا باستجلاء الحقيقة فيه . والذي فهمته ولم يقله مدير المكتب ، أن الطلب الأساسي هو سرعة الانتهاء من القضية .

- كم من الوقت ؟

- ليس أكثر من أسبوع .

الملف صغير . صورة من البطاقة الشخصية للشخص المختفي فخرالدين عيسى هاشم ، بيانات أساسية عن محل إقامته ، دراسته ، مهنته ، عائلته ، أصدقائه .. إلخ . بالإضافة إلى عدة خطابات غُفل من التوقيع موجهة للنائب العام تطلب منه التحقيق في اختفائه ونزعم أنه قُتل ، وأقوال مائعة لجيرانه . لا شيء غير ذلك .

الحادث : محام موقوف عن ممارسة المهنة بقرار من نقابة المحامين ، يقطن شقة مكونة من غرفة ومسالمة فوق سطح منزل في حي بين السرايات بمحافظة الجيزة ، متغيب عن منزله منذ أول أكتوبر ، ولا أحد يعرف عنه شيئاً . وما أهمية كل ذلك ؟ لم أفهم وقتئذ .

* * *

في اليوم الأول بدأت التحقيق مع الجيران . صاحبة المنزل الذي يسكن فيه فخر الدين أكدت لي أنها لا تعرف شيئاً ولم تر شيئاً ، وأن آخر مرة رأت فيها فخر الدين كانت مساء 30 سبتمبر : حيث عاد للمنزل في حوالي العاشرة وصعد لغرفته (هكذا تسمي شقته) ثم نزل وعاد مرة أخرى .

- وسمعت صوت السلم الخشبي وهو ينز .

- هل كان بمفرده ؟

- لا لا لا . المرحوم لم يكن من هذا النوع أبداً يا أستاذ .

- المرحوم ؟

ارتجت نظرتها وقالت : ألم يقولوا إنه مات ؟

بقية الجيران لم يروا شيئاً ولم يسمعوا شيئاً وكلهم - على غير العادة - يردون في إيجاز واقتضاب . كلهم رأوه عائداً في العاشرة مساء ، ثم لا شيء بعد ذلك . صاحب محل الكفنة آخر من تحدث معه ليلتها :

- أخذ رغياف كفنة ومشى .

- ؟

- لا لم يقل شيئاً .

صاحب المقهى الواقع على ناصية شارع نصار حيث كان فخر الدين يجلس كل ليلة مع أصدقائه في الشهور الأخيرة ، رآه مفادراً في العاشرة إلا الربيع . بائع الفول ، بائع الصحف ، الحلاق صاحب التليفون الوحيد في الشارع ، يقال ، كل الناس في بين السرايات وأنه مساء ولم يره أحد بعد ذلك . بدا لي ذلك أمراً غريباً .

في اليوم التالي ، سافرت إلى قريته بريف الدلتا . عمه (وزوج خالته) لا يعرف عنه شيئاً منذ خمسة عشر عاماً . مقتضب وغير راغب في الحديث

عنه لكن مضطر بحكم سلطتي والعمدة . والده توفي قبل ولادته وأمه توفيت وهو في الرابعة من عمره حيث كفله عمه . بقية أهله الأبعدين غير راغبين في الحديث عنه ولم يروه منذ غادر القرية وهو صغير .

- لم يكن له أصدقاء هنا ؟

- لا ... لا أحد .

ولا أحد يتذكره إلا بعد تفكير طويل وإيمان .

- ألم يظهر هنا خلال الشهر الماضي ؟

- وما الذي يدفعه للمجيء إلى هنا ؟ لا أحد له هنا .

* * *

في مكتب المحاماة الشهير الذي كان يعمل فيه قبل إيقافه ، نفى الجميع أن يكون فخر الدين قد ظهر أو اتصل خلال الشهور الماضية ، وبالتحديد منذ فضيحة إيقافه من النقابة وما أعقبها من فصله من العمل بالمكتب . لم يتصل بعدها بهم أبدا ولم يتصل به أحد .

* * *

شهرين حسن صديقتة المايقة أو حبيبته . غير مقيمة بمصر منذ زواجها ؛ ومن ثم لم أر مبرراً لتفكير صفو حياتها الزوجية بتخصص قديمة ، وخاصة أنه من المستبعد أن يكون فخر الدين قد اتصل بها .

* * *

في اليوم الرابع ، ظلت أراجع البيانات المتوافرة لدي في الملف من أقوال في المحضر الرسمي ، وتلك التي واظنتي بها مباحث أمن الدولة وأمن الموانئ والمطارات . لا يوجد مفتاح لفهم اختفاء هذا الشخص ، ولا يوجد سبب للاعتقاد بوجود شبهة جنائية وراء هذا الاختفاء . ربما سافر إلى أي

مكان داخل مصر . ربما غير محل سكنه لأي سبب كان ، أو ربما أي شيء آخر في الدنيا . وما أهمية هذا الشخص أساساً ؟

لكنني مع ذلك قررت - إخلاصاً مني لشهرتي - أن أتم عملي بالكفاءة اللازمة . وفي ملف مباحث أمن الدولة وجدت إشارة إلى مجموعة أصدقائه ائقدا من بالجامعة وكذلك بالمدرسة الثانوية . وتطلب ذلك مني السفر مرة أخرى إلى الدلتا - إلى المنصورة هذه المرة - لمقابلة شخص يدعى ناصر الخضري ويعمل مهندساً بمشروع كهرباء طاحنا والمفترض أنه كان صديق فخر الدين الحميم . ولكنني لم أعثر لهذا الشخص على أثر فأثرت العودة والتخلي عن طريق قد يعقد الموضوع أكثر .

وهي اليوم السادس (يوم الجمعة ، إجازتي الضائعة) قابلت مجموعة أشخاص ممن كانوا على علاقة بفخر الدين في الجامعة . وكلهم ردوا - باقتضاب - بأنهم لم يروه ولم يسمعوا عنه منذ فترة طويلة .

* * *

وبعد مرور ستة أيام ، بدا لي الأمر مضيقاً للوقت أكثر من اللازم . شاب غير مستقر ، وعلاقته منقطعة تقريباً بكل من حوله ، اختفى من محل إقامته . وما الذي يدعو للظن بوجود شبهة جنائية ؟ عدة خطابات غفل من التوقيع تدعي أنه قُتل في بين السرايات خلف مصنع الكوكاكولا في فجر الأول من أكتوبر . الخطابات مكتوبة بخطوط يد مختلفة ومرسلة من عدة أماكن من بينها مكتب بريد الجامعة في بين السرايات نفسها . مجرد خطابات بلا توقيع يستطيع أي مراقب عايت أن يرسل العشرات منها ، بل يمكن أن يكون فخر الدين نفسه هو مرسلاها ، وهو أمر غير مستبعد بالنظر لشخصيته الغريبة .

بدا لي وقتها أن احتمال القتل هذا مستبعد بالمرّة ، فلو كان قد قتل فعلا
هأين كان أهل الحي ؟ ألم يسمع أحد طلقات الرصاص المزعومة ؟ وأين
مرسلو الخطابات أنفسهم ؟ وما الذي يمنعهم من الظهور ؟ ثم أين ذهبت
الجنة ؟ هل ابتلعها النبل أم طارت ؟ وأين آثار الجريمة ؟ لقد فحصت
بنفسي الشارع الذي تزعم الخطابات وقوع القتل فيه ولم أعر على أي أثر
لدماء أو حتى لثقب في الحوائط . كما أن قتل شخص وحيد وبلا أهمية بدا
لي عملا مفتقرا للدافع . فلم أر له أي أعداء أو أي شخص يمكن أن يستفيد
من موته سواء هو نفسه ، والذي لا بد أن يكون قد ارتاح من حياة مضنية من
الشقاء والفشل مثلما أوجت لي الأقوال التي جمعتها .

ومن ثم قررت أن أغلق الباب أمام احتمال وجود دافع جنائي وراء
اختفاء هذا المواطن ، وقررت كذلك إغلاق الموضوع برمته وحفظ القضية.
ومهرت القرار بإمضائي الموقر . وعندما سلمت الملف - في صباح اليوم
السابع - للسيد مدير المكتب كان سعيدا جدا وابتم لي مؤكدا أنه كان
على ثقة من ذكائي وحسن تقديري . وكانت تلك هي أول مرة أرى فيها
إتسامة السيد مدير المكتب .

- 2 -

ثم ماذا ؟ ما الذي حدث إذن وجمعتني أعيد الخوض في هذا الموضوع
وبهذه الطريقة ؟

الذي حدث ببساطة هو أن فخر الدين قد زارني في الحلم . وأنا أعلم جيدا
أن ذلك يبدو سخيفا ، وأن القارئ لابد أنه قد أعاد رأسه للوراء وتقلصت
عضلات وجهه امتعاضا من هذه السذاجة . ولكن هذه هي الحقيقة !

الذي حدث أن فخرالدين قد زارني في الحلم فعلا. وأنا بالمناسبة لست ممن يؤمنون بالأشباح والأحلام والأعمال السحرية وخلافه من هذه الخرافات ، وأعتقد مخلصا أن الأحلام هي انعكاسات نفسية لإدراك الفرد للعالم من حوله ولرغباته الشخصية ، وأنها رد فعل اللاوعي على المدركات الحسية التي يسجلها الفرد طوال يقظته وأحيانا أثناء نومه. وما زلت أعتقد ذلك . ولكن الذي حدث لي أمر مختلف ، لقد زارني فخرالدين فعلا في الحلم . إن الأمر ليس مجرد حلم وإنما شبه زيارة فعلية . كان واضحا جدا وخالياً من أية مبالغات وناخذ الأثر . حتى إن الانطباع الذي تركه فيّ ظل ملازماً لي فترة طويلة بعدها . وظلت بعض آثار هذه «الزيارة» لدي في درج مكتبي تلهب وجداني بل وجودي كله . ولكن لأحاول مرة أخرى أن أكون مرتباً في الرواية .

* * *

بعد أن حفظت القضية بنحو شهرين ، وبالتحديد في أول يناير ، كنت غارقاً لأذني في قضية مخدرات صعبة ومعقدة كانت تستهلك كل وقتي وطاقتي . كانت قضية مرهقة من ذلك النوع من القضايا الذي نعرف فيه جيداً المتهمين - بل المجرمين - قبل بدء القضية بفترة ، ونظل نجتهد لتدبير أدلة كافية لعمل قضية لهم، وبعد مجهودات طويلة وشاقة وأحيانا خطيرة ، يتم إعداد القضية وإحالة المتهمين إلى المحكمة لنفاجاً بشفرة في الإجراءات لا تخفى على محام «شاطر» يدخل منها لينسف القضية كلها. في هذا اليوم - أول يناير - كنت قد عدت لتوي من محكمة جنائيات الجيزة بعد أن سمعت النطق ببراءة السادة تجار المخدرات الذين كنا نسمى وراءهم منذ أكثر من سنة ، وكانت حائتي النفسية سيئة جدا فعدت

إلى منزلي مباشرة واستغرقت في النوم على الفور ، حتى دون أن أخلع ملايبي .

كنت واقفاً عند شاطئ النيل ، ربما عند إمبابة أو بعدها بقليل ، وكانت الحقول الخضراء تملأ المكان من حولي وتفصلني عن مدينة القاهرة التي كانت تبدو بمبانيها العالية وضجتها المملوطة في سحب الغبار بعيدة وغامضة وغير حقيقية . جلست على الأرض الطينية الملاصقة للنهر وأخذت أرقب الماء في صمت . أرحتُ ظهري على الأرض الرطبة . كانت مريحة وحنونة وقوية . غفلت عيني لحظة أو أكثر ثم استيقظت على خرير الماء . رفعت رأسي ونظرت للماء فلمحت شيئاً يتحرك في منتصف النهر . أخذ يقترب ويتضح . كان هو . هو فخر الدين مرتدياً جلباباً أبيض وطاقية بيضاء ، ويبدو من تحت جلبابه سرواله الأبيض وحذاء الكاوتشوك . تملكني الفزع حين رأيته وجمدت في مكاني . اقترب أكثر فلمحت في صدره ثقباً عميقاً قاني الحمرة ومتجلاً . اقترب أكثر ونظر إلي . كانت عيناه مفروقتين بالدمع ، وب نظرة حزن قاهرة نظر إلي طويلاً ، في عيني ، ثم مديده إلى الثقب في صدره وأخرج رصاصة نحاسية عيار 16 مل ووضعها في يدي . ارتعشت ، وانقبض قلبي بقوة حين لمست الرصاصة راحة يدي . سال الدمع من عين فخر الدين . سال غزيراً حتى بلل صدر جلبابه . لكنه لم يكن يبكي . كانت ملامحه قد تجمدت على تعبير الحزن القاهر البادي في عينيه . كان وجهه كأنما ينفطر ويسيل في دمه الذي لا يتقطع . وددت أن أقول شيئاً لكن الرصاصة كانت تحرق كفي كجمره ونظرة عينيه تملأ المسافة بيني وبينه . مد يديه إلى صدر جلبابه وشقه فبان الهول في جسده ، لحم مهترئ من الثوب كأنما اخترقته عشرات الرصاصات ، وجروح مفتوحة مشخنة بدماء قانية وسائلة .

نظرت إليه في هلع وأنا أترجع للوراء . ستر جسده بجلبابه واستدار عائدا
لنهر تاركا الرصاصة تحرق كفي المتصلبة عليه . اختفى شيئا فشيئا في
الماء ، وعندما استيقظت كانت كفي ما زالت تحرقني من ملمس الرصاصة .

* * *

كان قلبي غائضا ومنقبضا بقوة . هرعنا للحمام وأخذت «دش» باردا
وتناولت قهوة ثم نزلت متوجها للمكتب . وطوال الطريق كان تعبير وجه
فخر الدين لا يفارق ذهني . وعندما وصلت المكتب أخبرني الساعي أن هناك
ظرفا كبيرا وصلني بالبريد . فطلبت منه أولا أن يحضر لي ملف فخر الدين
من الأرشيف ، وعندما جاء الملف فتحت ونظرت لصورة فخر الدين المثبتة
في الأوراق . كان نفس تعبير الحزن الفاهر مرسما على وجهه في الصورة.
كيف لم ألاحظ ذلك التعبير من قبل؟

أجهز الظرف الوارد بالبريد على ما بقي في نفسي من ثبات . مجموعة
من الأوراق الممهورة بتوقيع فخر الدين : مذكرات كتبها في فترات مختلفة
من حياته . خطابات منه إلى أصدقائه ، وخطابات من بعض أصدقائه
إليه ، خطابات عاطفية بينه وبين شيرين ، قصص قصيرة ، أشعار ، صور
فوتوغرافية ، مستندات رسمية تخصه وتخص بعض أفراد عائلته ، وفوق
كل ذلك وقبله علبة صغيرة من الكرتون وجدت بداخلها ظرفا نحاسيا فارغا
لرصاصة عيار 16 مل . عندما لمستها احترقت راحة يدي وغارت نفسي
وكنت أغيب عن الوعي . كان ذلك أكثر مما أحتمل !

علمت أطراف نفسي ، والأوراق ، وهرعت إلى منزلي ، وطلبت إجازة
عارضة لمدة يومين . ظللت طوال اليومين قابعا في منزلي منكبا على
محتويات هذا المظروف . كشفت لي هذه الأوراق عالما غريبا وشخصا

فريدا كنت قد بخسته حقه أثناء التحقيق الذي أجرته ، وأدركت أن هذا التحقيق لم يكن سوى هشوة لمسائل أخرى أعمق وأكثر جلا . وكأنني كنت أسير على حبل يتخاطفتني نازع إلى أن أقفز إلى هذا العالم المفتوحة لي أبوابه كي أراه وأفهمه . ويدفعني ميراث قديم وطاغ أن أمر على الحبل إلى بر الأمان وأنسى الموضوع برمته . ولكن الإحساس الذي كان قد تملكني أثناء الحلم عاد إليّ ويقوّه منذ اطلعت على الأوراق . كانت هذه الأوراق كأنما تشفي بالحياة . حياة أخرى مختلفة عن كل الحياة التي عرفتھا من قبل حتى خيل إليّ أنني كنت ميتاً من قبل . وظل ذلك الإحساس يدفعني للمضي قدما . عبر الحبل . ويلقي بي داخل هذا العالم الذي أخشاه وأرقبه . وظللت ساعات طويلة أنظر إلى المظروف وأفكر ، ماذا يعني هذا المظروف ؟ وماذا يعني هذا الحلم ؟ ولماذا لم يأتني إلا في ذلك اليوم وبعد شهرين كاملين من إغلاق الموضوع ؟ ولماذا لم يأتني هذا المظروف المريب إلا اليوم ؟ وما معنى كل هذه المصادفة الهائلة بين الحلم والواقع . وكيف تأتي ذلك ؟ والرصاصة ؟ كنت جالسا أمام الظرف الفارغ أحرق فيه دون أن أجري على لمسه . من الذي أطلقها ؟ وعلى من ؟ وكيف يأتيني أنا هذا الظرف الذي حرق كفي في الحلم قبل أن ألمسه أو أعرف به ؟ كان الخوف يتسلل إلى نفسي ويملكني حتى شعرت في النهاية أنني أفقد السيطرة على نفسي وأنني .. وأنني لم أعد أنا مثلما كنت قبلها بيوم . وأدركت ، والفجر يعلو . أنني لن أستطيع أن أستكمل حياتي العادية كأن شيئا لم يكن . وأن هناك شيئا غير عادي وراء هذا القتل المخفي ، وأن الخير أن أبدأ هورا في استجلاء حقيقة هذا الموضوع قبل أن أواجه بمواقف أكثر رعبا من هذا الموقف . وفي الصباح ارتديت ملابسني وتوجهت للمكتب .

كان الأمر واضحاً ، لا إعادة فتح للتحقيق في هذه الحادثة . رفض رئيسي المباشر الفكرة تماماً ، وكذلك رفضها رؤسائه . ولم يكن أمامي في حقيقة الأمر اختيار آخر . فلم أكن فعلاً في حالة تسمح لي باستئناف العمل مرة أخرى . فطلبت إجازة طويلة كنت أهدف من ورائها إلى الراحة بعيداً عن القاهرة للتخلص من كافة المتاعب التي تعرضت لها مؤخراً . وبدون الدخول في تفاصيل يكفي أن أؤكد أنني لم أنعم بالراحة يوماً واحداً في أي مكان رحلت إليه . وأن فخر الدين لم ينقطع عن زيارتي في نومي ولم تنقطع الأوراق التي وصلتني عن إلهاب نفسي وشحن همتي ، ووجدت نفسي أرحل - دون قصد مني - إلى الأماكن التي كان فخر الدين قد عاش فيها . شيئاً فشيئاً انخرطت في البحث في حياة هذا الرجل وفي موته . ولم أتوقف عن ذلك طيلة عام كامل . هل كانت حماقة مني ؟ لا أدري . ولكني لم أملك لها دفعا . والآن وبعد هذا العام لا أستطيع إلا أن أنشر خلاصة ما توصلت إليه وما وصل إلي . أنشره على الملأ ، وفاءً مني لقيمة حياة هذا الرجل وقيمة موته الذي تأكد لي . وفاءً مني لضميري ولضمير كل الناس الذين عرفتهم والذين حملوني مسئولية إبلاغ هذه الكلمة . وستجدون في طيات هذا الكتاب ألواناً شتى من الأوراق ، خطابات ومذكرات ومقابلات واعتراضات وغير ذلك ، كتبت أنا بعضها وكتب آخرون بعضها ووصلني بالبريد بعضها .

وغاية ما فعلته أنني غيرت في أسماء الناس والأماكن - بما فيها اسمي ووظيفتي - حفاظاً على ما لا أملك حق التصرف فيه ، ولكن يبقى جوهر الأشياء لم أسسه ، وأضعه اليوم بين أيديكم إحقاقاً وإنصافاً .

« عمر فارح »

ماء القل

«دعني أعانق أبي في
السراب..
فكلُّ سرابٍ أبي..
وكلُّ غيابٍ أبي»

محمود درويش

- 1 -

الوقت فجرًا . آخر ظلام الليل وسكون أول الفجر . ديك يصيح من حقل بعيد . نسيمات آخر الليل تهز الستارة البيضاء الشفافة التي تلف أعمدة الفراش النحاسية . عائشة تنام على جنبها الأيمن . على شفيتها ابتسامة من رضا مطمئن . جفناها منمضان على عينيْن قريرتين . وبطنها عالية مقلقة على الطفل المنتظر . غطاء أزرق في لون السماء القادمة من خلف الشباك المفتوح . القفل الأربع تترع في نغمة الصبح العليل . على فوهاتِها أربع ليمونات طازجات . ديك آخر يصيح وزقزقة بعيدة لعشرات المصافير تنرد أجنتها وتستفتح يومها . تتقلب عائشة على ظهرها لتضع وجهها في سماء الشباك المفتوح .

- هل جاء الفجر ؟

تمتعت عائشة وهي تفتح عينيها لتبصر النور الوضاء ينشأها ، ويتخللها ، ويندس في أناملها ، فيملؤها ، ويبيض جسمها الأسمر ، ينسله ويفمره ، وينساب منه ، وينسحب ، ويخرج من بطنها ، فيملوها ، ويصعد فوقها ، ويلعب في سماء فراشها ، ويرق ، ويطير سخابات من الشباك ، فيجتاز سماء القرية ، ويمبر الأفق ، ويملأ الأرض من تحته أبيض ، فيحيلها نهارا ناصعا ، وحجارة مضبئة ، وحقولاً مشرقة . وترى اعتزال غرفتھا ، وطيرانها فوق سحب من راحة ونعومة ، وابتعاد الأرض في لوحة من الضوء ، وانشقاق البحر الكبير تميره فتستحم في ضوء السماء المنهمر الذي يفرها ويحمل ولدها الذكر عاليا إلى ما لا تترك ، تطير تطير ، في نهر الضوء تسبح مراكبها الفضية في النغم المنساب على الضفتين ، وتشرب ماءً نقيا فيذهب

ظلموها . تملو مقدمات المراكب وتهبط . تشرع رأسها إلى أعلى فتبصر
وليدها بجناحيه الأشهبين يمرق بين السحب . ويأخذ الأرض في عينيه
وفي قلبه . فتسكنه . ويطوف حولها . فيسكنها . ويتمثلها في نفسه فيعيد
تشكيل الطبيعة والبلاد فيه . وينثر من روحه فوقها وداخل جبالها ويعيد
قريته وسماهه إلى أمه إلى منزل أبيه إلى قلل شباكها إلى سنارة فراشها إلى
رقعتها الآمنة ويرقد بجوارها في لفائف من قماش أبيض ناصع بلا نقطة
دم واحدة . ويفتر ثفره عن بسمه في وجه أمه النائمة وعمه المحرق في غير
تصديق وخاله الواقف بالباب وأبنائهما وزوجتيهما القابعتين خلف الباب
وأم إبراهيم المهرولة بأنية الماء الساخن التي لم يستعملها أحد . إلى أهل
القرية الذين تجمعوا أمام البيت ضاربين كفا بكف وهمهمات التعجب التي
انتقلت عبر شوارع القرية المنحدرة نحو الطريق السريع . لسانقي سيارات
النقل الثقيل الملتفحين بعباءاتهم والذين توقفوا أمام هذه القرية الصغيرة
حين رأوا الضوء الفامر يشبث من بيوتها . إلى أهالي القرى المجاورة . إلى
عمه الذي همس : سبحان الله . فتحت عائشة عينيها وقالت :

- أسمىه فخر الدين . هذه وصية المرحوم أبيه .

* * *

الشارع ضيق . وينحدر هابطا من الساحة الصغيرة في التواء حاد نحو
الساحة الكبيرة . هنا تنتشر أشعة الشمس والأتربة . شباب القرية يلعبون
بكرة مصنوعة من الكُتَّة والخيوط . قالبان من الطوب الأحمر المسروقان
من قمينة الطوب في أول الحقول يشكلان حدود المرمى . العرق وتسارع
الأنفاس والحركة المفاجئة تسيطر على هواء الساحة .

كان فخر الدين يأتي هنا كل ثلاثاء مع أمه حيث تمتلئ الساحة بالفلاحين

الأتين من القرى المجاورة حاملين أقماع الخضر والفاكهة والطيور ، والبيض المدفون في الردة . خيط طويل من النسوة المتشحات بالسواد يصعدن من الطريق الأسفلت البعيد إلى قلب الساحة . ينحني الخط ويتكثف عند نقاط للحمل والتجمع ، وتنصب العربات الخشبية المغطاة ببقايا أجولة السماد القديمة والجبن الأصفر دباج المعونة. يشتد الزحام عند الضحى وتتدافع النسوة حول عربات الطماطم والخضار . تشتد قبضة فخر الدين على يد أمه الماضية بين زحام النسوة ، ويتخبط بين أردافهن المكتنزة ، يرتطم بصبي صغير يظهر فجأة وسط الزحام دافعا عجلة خشبية مصنوعة من أغصان زجاجات الكولا . لم تكن أمه لتتوقف أبدا عند بائعات الجبن أو البيض والطيور.

عند الظهيرة عرق لزج يغطي جسمه وقدميه اللتين تسرب إليهما التراب. هنا أكمل العمال المتشحون بالبدل الميري القديمة إقامة الصوان الكبير . قماش أحمر غليظ القلب مملوء بنقوش لا تنتهي . صفوف طويلة من الكراسي الخيزران الصفراء ذات المقاعد الجلدية الخضراء . فراشة الحاج يحيى . ومقعد خشبي ذو مساند على الجانبين، مرتفع ، يتوسط الكراسي كلها ويملو عليها . عاد فخر الدين جريا إلى الساحة الصغيرة، كان دكان خاله الذي يتوسط الساحة مغلقا . قضيب حديدي غليظ يمتد بمرض الباب الخشبي ذي الضلقات الأربعة. الياخطة الخشب القديمة منتصبة عاليا فوق الباب . الشمس تضرب بوجهها في واجهة الدكان تفتت الشقوق التي تنخر في الياخطة منذ زمن . تتقلص عينا فخر الدين من وهج الشمس. يقترب من الباب ويتحسس القضيب الحديدي السامق. سخونته تلسع يديه . هزات جسده النحيل لا تفلح في زحزحة القضيب الرابض

القابض المستميت. يد طرية وطيبة تربت على كتفه المرتجة وتأخذه في جلبابها الأسود . استكانت عينا فخر الدين إلى عيني أم إبراهيم الطيبتين المبلتين. سحبته من يده إلى بيت أمه في آخر الشارع. عندما دلف فخر الدين من الباب لم يجد أحدا .

* * *

يمتد الشارع ضيقاً ثم ينبجس عند ساحة مربعة تصطف على جوانبها محلات البقالة ورائحة الزيت . يضيق الشارع مرة أخرى وينحدر بشدة في التواء نحو التربة . كان عمه وأبوه هما اللذان ربطا جذعي الشجرتين ببعضهما وألقياهما على التربة جسرا للمارين ، وكانا هما اللذان مهدا المعبر وسوياه . عبر فخر الدين الجسر حذرا مثلما أوصته أمه وجرى نحو الشط الآخر قرب نهاية الجسر . كانت أصوات الماكينة تأتي إليه منتظمة عبر الحقول . صفوف من النساء المطونة الملايس رابطات المناديل المزركشة على رموسهن تتراص عند جدران ماكينة الطحين . عمه واقف عند أعلى السير يرقب حركة الماكينة والعمال وهو مشعث الشعر المختلط ببياض الدقيق . يمد يده ليرفع جوال القمع عن ظهر امرأة وينزله بخفة على الميزان ويمضي . كان أبوه يقف دائما عند الميزان ، لكنه ذات يوم مضى داخل الماكينة ليساعد أحد العمال ولم يعد . لم يكن فخر الدين يكره الماكينة رغم ما قاله له عمه من أنها أكلت أباه . كان يشعر بالحنين إليها وإلى أبيه القابع فيها ، في كل مكان فيها . خلف جدار الماكينة يترقرق جدول رفيع من الماء الدافئ الخارج منها ويلتف منحدرًا نحو التربة ، وكان فخر الدين يعجب من هذه التربة الصغيرة الساخنة .

جاء نداء عمه غالبا وقلقا ونظرتة حانية مطمئنة مرحبة بفخر الدين

الجاري نحو ذراعيه اللتين رفعتاه وحملتاه نحو الميزان : « 16 كيلو »
 جلس فخر الدين خلف الميزان يرقب أجولة القمح وهي تأتي وتذهب والنساء
 تلفظ والسباب يتطاير من الأفواه في ضحك هازئ و«ربنا يخليك يا عم
 الحاج» ، وخصم نصف جوال من الأجرة «من أجل عاشوراء ومولد الشيخ
 المجاور والسيدة والحسين» والعم يضحك ويمضي بين السير والميزان :
 - عندما تكبر ، تجلس هنا مكان أبيك عيسى الله يرحمه .

* * *

الصمت قابع ومسيطر على بلاط الفناء ، وعلى الأبواب ، وعلى
 جدران البيت المتساقطة الطلاء . دخل فخر الدين من الباب الكبير ،
 أعمت عينيه ظلمة المكان وهدوء الصالة . خالته متشحة بسواد شامل
 وجالسة وجهاً بين كفتيها . اعتادت عيناها الظلام قليلاً . وسأل نفسه :
 «لماذا لا أبكي مثل الآخرين؟» وقف خلف الباب مخبئاً : «لماذا لا أبكي أنا
 أيضاً؟» انفتح الباب الخارجي فانسكب ضوء حاد في قلب الصالة. دخل
 خاله ومن خلفه بدت امرأتان في سواد أسود . دبت خطواتهن ثقيلة على
 أرض الصالة. انتفضت خالته واقفة لرؤيتهن وانداح الدمع من عينيها ،
 لملمت ثيابها حولها وأسرعت تفتح باب الغرفة الجانبية ، دخلت وخلفها
 المرأتان وفي أقدامهن فخر الدين. اختبأ خلف المعطف المعلق على جانب
 الصوان . هنا كانت أمه تخبئ له الحلوى. هنا كانت أمه تخرج الأطباء
 ذات الحواف الملونة يوم الجمعة حين تجتمع العائلة للفداء بعد الصلاة .
 هنا كانت أمه تخرج له صورة أبيه يوم زواجهما وتمسح دموعين بطرف من
 طرحتها البيضاء . هنا كانت أمه تصلي جالسة على كرسيها وهي ترمقه
 بطرف عينيها. هنا كانت أمه تقبله ، وتضمه ، وتلاعبه وهو يفر منها ضاحكاً

ومناديا خاله ومحميا به. تقدمت المرأة إلى الفراش النحاسي الرابع في قلب الغرفة. تقدمت المرأة إلى الجسد النائم الملفوف في ملاءات بيضاء. كشفت طرف الملاءة فتراجعت خالته وشدت في يدها وهي خارجة يد فخرالدين. أغلقت الباب من خلفها ووقفت إلى جواره. أنية الماء تهتز في الأيدي المهرولة إلى باب الغرفة. يفتح الباب وتدخل الأنية وتخرج أنية أخرى ويبقى الرجال بالخارج. الخال واقف في الفناء يعيث بشاربه وعصاه تدق الأرض في رتابة. النعم واقف بالباب الخارجي يصيح في شجار قصير مع رجل غريب ويناوله أوراقا مالية. هدأت حركة الماء وانسلت المرأتان خارجتين من الغرفة مشمرتين الساعدين اللذين يتساقط منهما الماء فادتهما أم إبراهيم إلى طريق دورة المياه. كان فخرالدين وحيدا في الصالة المهجورة. نظر إلى الغرفة المغلقة. نظر إلى مقبض الباب الذي يحول بينه وبين الغرفة. امتدت يده إلى المقبض. فتحه. ودخل.

* * *

كان خاله يسير مرتديا جلبابه الأبيض ومن فوقه القفطان النبيذي اللون وعلى رأسه طربوش أحمر قان، تاركاً يده اليسرى لتعلق يد فخرالدين الصغيرة في هذه الكف الرائعة الحنو الكبيرة المطمئنة العارفة الواثقة القائدة المحتوية. ورأس فخرالدين في طاقيتها البيضاء تدور لتري أشارع والصبية والبيوت والرجال العائدين من الحقول حاملين الفئوس، والجاموس الرمادي الضخم الذي يمضغ دائما. كان فخرالدين يسير ملتقنا وهو يعلم أن يد خاله تقوده إلى شاطئ الفراش العالي النظيف، وأمه تندق عليه الماء الدافئ وهو يتملص منها قبل أن يكمل ارتداء ملابسه ليجري نحو خاله وهو يخلع قفطانته ويدلي له بالقروش والعملات الفضية

الكثيرة من جيبه ليلعب بها ويبنى بيوتا وشوارع وقرى على ملأء الفراش البيضاء ، ويضع ساعة خاله في سلسلتها وعلبتها والخال يخرج من الغرفة ويمود بأكياس الموز والمعجوة البقية ، ويناول فخر الدين الموز . فخر الدين يأكل وهو ينظر في عيني أمه الحانيتين ، تتناول من يده قشر الموز ، وتعد يدها إلى حافة الشباك ، القلل الأربع تترع في نعنشة المساء المميل . على فوهات الأربع ليمونات طازجات . ترفع الأم إحدى القلل وتناولها لفخر الدين بيديه الصغيرتين . يمسك لأول مرة بالقللة وحده ، ويشرب منها .

* * *

كان صوت المقرئ يأتي من كل أنحاء الساحة . التفت فخر الدين خلفه فسمع صوت القرآن آتيا . عاد برأسه للأمام فرأى المقرئ جالسا القرفصاء على المقعد الخشبي المرتفع وسط صفوف الكراسي . نظر فخر الدين في صفوف الجالسين فلم يعرف منهم أحدا . كان خاله وعمه واقفين عند باب الحصان يسلمان على القادمين .

* * *

فناء البيت متسع . بلاط أبيض وبه خطوط حمراء تتلاقى في مستطيل أحمر كبير يتوسط الفناء . في قلب المستطيل وضع فخر الدين طبقا أحمر به قرش مغمور بالماء . جلس فخر الدين أمامه ينتظر أن يتبخر الماء من الطبق بفعل الشمس مثلما قال له أحمد ابن عمه اليوم . في آخر الفناء على اليمين باب خشبي صغير نصف مفتوح ومن وراءه تبدو الدجاجات التي تربىها زوجة خاله وقد احتست من الشمس . صوت خاله يأتي من الداخل أمرا زوجته بالاطمئنان على وجود ماء للشرب في عشة الدجاج . بقايا حبات الذرة الصفراء متناثرة حول باب العشة . شباك جانبيان بواجهة

حديدية مزخرفة تطل على الفناء . على حافة الشباك صينية بيضاء بها أربع قفل كبار . يمدد خاله جسده الأسمر على حصيرة صفراء تفتش أرض الصالة مستندا إلى وسادة مستعارة من الكنية الإسطنبولي العتيقة . مذيع الأخبار يرفع صوته من إذاعة صوت العرب في الراديو الأزرق الملقى على الحصيرة . خلف الراديو ربط الخال بطاريتين كبيرتين «بدويارة» .

- امخل يا فخر الدين من الحر .

جاء صوت زوجة خاله من المطبخ . في آخر الصالة برميل بني قديم وكبير به صنوبر نحاسي أصفر . تحته طست بني تأكلت حوافه وامتلأ حتى المنتصف بماء وبقايا صابون . يرسل الخال ابنه إلى بيت عم فخر الدين لينادي عليه وعلى زوجته وعلى أبنائهم للفداء . تمر زوجة خاله حاملة أطباق المعلقة المزركشة الألوان وأعواد الجرجير الندية الزرقاء المنضرة للمنضدة . ينسحب فخر الدين إلى هدوء الصالة ويجلس بجوار خاله الممدد على الحصيرة . طبق السمك البوري المشوي يتوسط المنضدة . قام الخال بقامته الطويلة إلى الباب ، أطل برأسه خارجا فانعكست أشعة الشمس على بياض صدره . مر خارجا وعاد من حرقاة الشمس حاملا قلة الماء . مرت الدجاجات مسرعات إلى وسط الفناء . مدت مناقيرها في الطبق الأحمر وأخذت تشرب من الماء .

* * *

ظل فخر الدين طوال الليل جالسا يابسًا في فراش أمه . في عينيه صورة واحدة ، وفي قلبه انغرس ناب ذئب . لماذا لا تأتي أمي إلى فراشها ؟ لماذا لا تأتي وتضممني في حضنها كي أنام ؟ لماذا لم ترد علي حين كلمتها ؟ ولماذا كانت ملامحها حادة هكذا ؟ هل كانت غاضبة مني ؟ ولماذا كانت بيضاء هكذا ؟ ولماذا كانت تلك المرأة الغريبة تحميها ؟ وأين ذهبت ؟ هل كانت غاضبة مني ؟

وضع الراوي ربابته إلى جواره على الأرض الطينية وأسندها إلى ركبته. تطلع بعينه المنعبتين إلى جذع النخلة المنتصب في الهواء أمام التربة وسرح بعيداً . علت همهمة الصبية من حوله فأفاق ونظر إليهم وعاد إلى الحديث.

قال الراوي ،

« مات أبوه قبل أن يولد ، وتوفيت أمه وهو في الرابعة ، فانتقل معه وزوجته التي هي خالة فخرالدين للمعيشة في منزل أبيه الكبير، وانتقل خاله وزوجته للعيش في الدور العلوي من نفس البيت. وهذا البيت من أكبر بيوت البلد وأعرقها ، وكان جده هاشم شيخ البلد وكبيرها هو الذي شيده ووضع حجر أساسه بيده. أما عمه فكان يعمل بالتجارة ، كما كان وصياً على مأكينة الطحين التي ورثها فخرالدين عن أبيه . وكان خاله نجاراً ، واسمه يوسف، وله دكان بالساحة الصغيرة ، وقد تزوج من امرأة شامية كانت تمر بالقرية ذات يوم مع أهلها، ويقال إنها نصرانية إلا أن أحداً لم يرها تدخل يوماً كنيسة أو مسجداً وكانت باشة الوجه تحسن إلى فقراء القرية ويقال إنها مخاوية ، وقد أنجبت له ثلاث بنات وولداً . وكان يوسف محبوباً من أهل القرية ولم يفت في سمعته زواجه من شريفة ، وكان كريماً على فقلة دخله ، معطاء على ضيق ذات يده. وكان زواج أولاد شيخ البلد من أختيه عائشة وسكينة علامة على كرم أصله وحسن خلق بيته. وقد كان زواج عيسى أبي

فخرالدين من عائشة في نفس يوم زواج أخيه سليم من سكينه أختها ، وكان صرعا كبيرا سهرت في أفراحه القرية سبع ليالٍ، ونحرت فيه الذبائح حتى لم يبق في البلدة بيت لم يدخله لحم منها، وأعطيت العطايا وسفح عن الديون ، حتى باتت القرية كلها تدعو للحاج هاشم بالبركة ولأولاده بالخير .

وكان للحاج هاشم تجارة وماكينه الطحين وأرض ، فلما حضرته المنيه أتى بابنيه عيسى وسليم وأعطى الأول الأرض والماكينه والثاني التجارة لما يعرفه فيه من حب لها وولع بشئونها ، وأخرج من المال الكثير لفقراء الناحية . فلما مات عيسى يوم حادثة الماكينه ، عينت زوجته عائشة أخاه سليم وصيا على الماكينه والأرض حتى يبلغ فخرالدين فيسلمه إرث أبيه. وبمواتها لم يعد لفخرالدين من يرعاه سواء فانتقل العم وزوجته وطفلاه أحمد وتبلى تعيش معه في بيت أبيه وشمله برعايته . أما المرأة المسماة أم إبراهيم فهي مرضع كانت عائشة قد أحضرتها من عزبة نائية من الشرقية وذلك قبل ولادة فخرالدين ، وظلت تعيش في كنفها وترعى وليدها حتى توفيت عائشة ، وقيل إنها قد حز في نفسها موت وبيبتها فرحلت عائدة لعزبتها ، وقيل : إن العم سليم هو الذي طردها ، لأن زوجته لم تكن تحبها، وقيل إنها أرادت العودة إلى العزبة لأن لها بها غنما . وعلى أية حال فقد ظلت أم إبراهيم تعيش في عزبتها في الشرقية ولم تعد لهذه القرية قط . ولما بلغ فخرالدين عيسى السادسة من عمره ، ناداه عمه ، وقال له إنه قد سار رجلا ، وعليه أن يعرف كالرجال الخشونة والجلد.

وأن يتذوق طعم الكد واحتمال المشاق كي يصير جديرا بحمل اسم أبيه وجده ، وأن يتعلم حسن التقدير ليعرف كيف يتصرف في أرضه الموروثة عن أسلافه . وأخبره أنه قد أعد العدة له كي يرحل في الصباح إلى نواحي الشرقية لدى أم إبراهيم ليخرج معها في الغنم . ودّع فخرالدين خاله يوسف وزوجته وأبناءهما ، وودع خالته وعمه سليم وابنيهما ، وعند الفجر أركبه صمه في سيارة أحد السائقين من أبناء القرية ليحمله إلى الشرقية .

في آخر الحقول ، عندما تصفر الأرض الطينية شيئا فشيئا ، وتضيق الطرق الأسفلتية وتتعرج ثم تختفي ، وتتناقص الأشجار ويعلو الحر ، وتحضر العيون ويصفر الشعر وتبيض البشرة ، تقع عربة أم إبراهيم . عند هاويس كبير على ترعة هياضة تحمل الماء العذب إلى جبل سيناء . في آخر الشرقية على حافة الوادي الأخضر والصحراء ، خرج فخرالدين يهش بالعصا على الغنم . كان القطيع كبيرا ولكنه استأنس بفخرالدين واستسلم له سريعا . أقسمت أم إبراهيم أنها لم تر القطيع مطيعا هكذا في أي يوم من أيام حياتها ، وكانت أسعد لحظات فخرالدين تلك التي يقضيها في صحبة أم إبراهيم بعد «العصاري» حين تستريح الغنم في فينة هاربة من الشمس ، ويتناولان طعامهما وهي تقص عليه ذكرياتها في بيت أبيه وأمه . حكّت له عن أبيه عيسى ، عن شهامته وفروسيته ، عن سمرته الصعيدية ولاسته البيضاء ، عن عمله في الماكينة وعن حبه للناس والفلاحين في أرضه ، عن حبه لأمه وحنوه عليها ، عن حبه له ومداعبته إياه وهو جنين في

بعثن أمه . كانت أم إبراهيم تقضي «العصاري» كلها في إعادة نفس القصة على فخرالدين دون أن يمل أو تفتقر رغبته في الاستماع . وفي الصباح والظهيرة كانت أم إبراهيم تعلم فخرالدين الرعي وأصوله ، والغنم وأحواله ، وأنواع المراعي ومواقعها ، ومواطن الماء ، والحذر من الذئب والرقق بالكلب ، وحب الأغنام والحزم معها ، ومواعيد التكاثر ورعاية الأمهات ، وقيادة القطيع واحتمال انتظار الشاردين منه حتى يعودوا ، والصبر على المرضى النابت حتى ينمو كلؤه ، والحرص على الماء في وقرته ، ويقتطع العين وإرهاق السمع وأعمال الحرس ، وحلب اللبن وجزء الصوف ، ومعاملة التاجر والفضيلة لحججه ، وهدوء النفس في الحر ، والتأامها في البرد . وفي الليل ، كان فخرالدين يبيت في خيمة في أطراف المراعي قرب الصحراء ، وعرفت عيناه التعلق بالنجم في الليل الصافي وبخط الضوء في الغيم ، واكتشاف الروح وولادة القلب في الهدأة ، وولادة الشمس من بعثن الضجر ، ومواعيد الأهلّة وحركة النجوم ، وجمع الحطب وإشعال النار ، والأطمئنان لنباح الكلب .

خمس سنوات قضاهها فخرالدين في كنف أم إبراهيم مرضعته ومربيته ، وفي صحبة الغنم والصحراء ، تهذبت طباعه ، ونقت نفسه ، وسمت مراميه ، وتبدلت حياته .

وفي ليلة من ليالي الشهر الأخير من إقامته معها ، التقى بالشيخ صمر . ونحن لا نعرف من هو هذا الشيخ ولا من أين أتى أو إلى أين ذهب . لم نره ، ولم يره أحد نعرفه سوى فخرالدين نفسه ، ولا نعرف حتى اسمه الكامل أو من أي القرى قد خرج .

صمت الراوي لحظة ، ومد بصره داخل قرص الشمس فزانت حمرة على وجهه . ورقفت ثعابيره وراق صوته ونعم ، وفاض نور في وجهه ، ونطق بصوت مفاهيم كما لو كانت روح قد تلبسته :

« كانت الليلة باردة ، والرياح هائجة ، والأغنام خائفة مستجيبة ، والكلاب رفعت آذانها وذيلها ، وكانت السماء غائمة والنجوم مخفية ، ويقايا الهلال تظهر وتختفي . احتطيت ، لكن الحطب كان رطباً فلم تشتعل لي نار . أوجست خيفة واستعدت بالله ، وصرت أسري عن نفسي بعد الغنم والاطمئنان عليها ، وقدتها إلى حزن ربوة أعرفها غير بعيدة عن مستقرنا لتحميها وتحميني من ليلة لا أعرف مستقرها . وبينما كنت أؤفل في السير ، أبصرت ناراً قوية على مبعدة ، فاستفربت في هذه البقعة النائية وعلمي ألا بشر بها . فكرت ، واستخرت ، وتوكلت ، وشدت إليها المقصد والطريق . ظال بي وبالغنم المسير دون أن أدركها مع رؤيتي لها واشتامي لدخانها . سرت حتى بلغ بي التعب مبلغاً وظننت بنفسني المرض والتهيه والخيالات ، فتوقفت وجمعت الغنم حولي وارتككت إلى صخرة ونمت عليها . نمت ساعة أو بعض ساعة ، ثم استيقظت على دفء كاسح ، وحر لافح ، فتحت عيني ففشيها ضوء عظيم ، دعكتها بكليتي يدي وأعدت النخل ، وما هي إلا لحظات حتى رأيت في النور وجهاً نقياً كأنه هو النور نفسه ، بلحية بيضاء وعينين طيبتين . وهي يده عصا كأنها عصا . أشار بها لي أن اتبعني فتبعته خائفاً مأخوذاً ، حتى سرنا على حافة النار فاجلسني ، وكنت أرتجف رغم الحر من حولي ، كانت الغنم قد

اختفت هزاد وجلي ولم أنطق من الرهبة . مد يده البيضاء وربت على كتفي وقدم لي شرايا شربته فوجدت به حلاوة ودفئا . هذا من روعي بحديث عذب لم أسمع من قبله بمثله أبدا ، وأخبرني أن اسمه الشيخ عمر وأنه كان يتتبعني منذ جئت لأعيش في كنف أم إبراهيم ، وقال لي إنه سيكون لي شأن عظيم ، فاحمر وجهي من الخجل ، فربت على كتفي ثانية وقال : لا تخجل بل ارتجف من الوجع ومن هول الأمانة ، فوجعت ، فقال لي : إنه كان يرقبني وأنه كان يعلم بمجيئي وينتظرني . قلت له : عليك محطتي ، فقطب جبيله وقال : يا ولدي ، قد قضيت حياتي كلها أتعلم كيلا أخطئ حين يحين الأوان ، قلت : وهل حان؟ فقرأ علي من القرآن سورا ، ثم قرأ علي كلاما آخر أجهله ، وظل يقرأ علي حتى اطمأنت نفسي وأوشك الفجر أن يعلو . قمت مستاذنا فأذن لي ، وأخبرني أنه سيعود للقائي ، ربما هنا وربما عند عودتي لعائلتي حسب مشيئة الله . مشيت وأنا حائر متسائل ، وظللت أسير حتى أدركت مستقري الأول عند الصخرة فوجدت الغنم نائمة مستكينة ، والريح قد هدأت ، والبرد قد ذهب ، والنجوم قد المعت ، فربتُ على ظهر كلبتي ، وظللت أستعيد ما قاله الرجل حتى شقت الشمس بطن السماء ..

* * *

«للأرض عند الغروب رائحة ، وللمأكينة القديمة رائحة القمح المطحون حديثاً ، ولقمائن الطوب في آخر احترقتها رائحة ، ولأقراص الجلة المتركمة على سطح البيت المجاور رائحة ، وللقش على سطح بيتنا رائحة ، للشمس حين تضرب هتاء الدار في القيلولة رائحة ، وللحقول في أول النهار رائحة . يا أحب أرض الله إلى قلبي : ما هجرتك إلا مكرهاً .»

«من أوراق فخر الدين»

قال الراوي مستطرداً ،

«عاد فخر الدين إلى منزل أبيه في أول شوال وقد أتم الحادية عشرة من عمره وصار صبياً يافعاً ، بهي الطلعة . عاد فوجد أن خاله وزوجته قد خَزَما حواشيهما واصطحبا عيالهما وهجرا المنزل والقرية ، ولما سأل لم يأخذ رداً شافياً ولم يعرف لهذا الرحيل سبباً . حزن فخر الدين حزناً شديداً إذ كان شديد التعلق بخاله يوسف وزوجته الشامية . والحق أن خاله كان قد اختلف مع أخته سكينه خلافاً حاداً حول المنزل ، إذ كانت الخالة قد طلبت منه أن يترك الدار ويبحث لأهله عن دار أخرى يسكنونها؛ لأن هذه الدار إرث لفخر الدين وعمه مناصفة ، وكان يوسف قد استقر فيها أصلاً بناء على دعوة عيسى وهو صاحب الدار الأصلي الذي ورثها عن الجد ، لكن سليم لم يعجبه استمرار يوسف وأهله في العيشة في الدار بعد وفاة عيسى وعائشة ، وخاصة أنه هو ، وليس يوسف ، الوصي على إرث فخر الدين ، فطلب من زوجته أن

تكلم أخيها في ذلك. فلما كان ، وقالت سكرينة ذلك لأخيها ، هت
ذلك في عزمه وأقسم ألا يبيتن ولا أي من أهله لا في البيت ولا في
القرية كلها. وقام فلعلهم حاجاته وحاجات أهله وباع دكانه لصبيه
ورحل في نفس الليلة ولم يعد بعد ذلك إلى القرية أبدا .

وقد ظل فخر الدين يجهل هذه القصة حتى أخبره بها خاله
بعد ذلك بعدة أعوام ، وقد حزن ساعتهما فخر الدين حزنا مضاعفا
على رحيل خاله. وبرحيل الخال ، انتقل العم سليم للعيش في الدار
كلها ، فخصص لفخر الدين الغرفة التي كانت لأمه عائشة ، وصار
ينام وزوجته في الغرفة العلوية التي كانت ليوسف ، وخص ابنته
ليلى بالغرفة التي في مواجهتها وابنه بغرفة أخرى في الطابق
العلوي . وقد سعد فخر الدين بانتقاله إلى غرفة أمه القديمة
أيما سعادة ، وكان فراشا ما زال بها لم يمض فأبقى عليه ، ووضع
في النافذة صينية بها أربع قفل ، على فوهاتها أكواز من الألومنيوم
بكل واحدة منها نصف ليمونه خضراء . كانت هذه الغرفة هي
أولى الغرف من ناحية الباب الخلفي وأقربها للشارع ، فسهل ذلك
لفخر الدين الخروج والدخول في هدوء ، وكان يحب ذلك .

عندما عاد فخر الدين للقرية ، أرسله عمه إلى الكتاب ليتعلم
القرآن ، فوجده شيخ الكتاب حافظا لمعظمه فأكبر في السبب ذلك
وأمر به إلى عمه وأوصاه بالفتى خيرا وأشار عليه بأن يدخله
المدرسة . ولما كان قد تجاوز سن الدخول فقد أحقته عمه
بالمدرسة ، من منازلهم ، مثلما يسمونها ، وأحضر له مدرسا يقوم
على تعليمه بالدار . وقد أظهر الفتى نبوغا بهر مدرسه ، فجعل

يأخذ كل سنتين في سنة حتى اجتاز الشهادة الابتدائية وهو في الرابعة عشرة من عمره. ومن العام التالي ، اختلف فخر الدين إلى المدرسة الإعدادية الواقعة عند أطراف القرية خلف الوحدة المجمع، وكان يختلف إليها أبناء القرية كلها.

كانت ليلى في الرابعة عشرة من عمرها حين عاد فخر الدين للقرية، وكان جمالها أخذا في البروز ، وحلاوة روحها تنفوح في الدار كلها حبورا ولطفا. كانت كريمة النفس تعف عن السفائر، تتوق روحها للتخليق مع حمام البرج في سماء الحقول والبيوت الصغيرة في الصباح وعند العصر. كانت تكتب الشعر وتقرأ لفخر الدين ، وترى كتب الأدب والنصوص التي تأخذها في المدرسة ، وتقرأ له فصولا من الروايات التي تشتريها خلسة من بائع الجرائد ، وتسبق - أمام التليفزيون - الحوار بين عبد الحليم حافظ ونادية لطفي في رحلة البحر الأحمر في فيلم الخطايا ، وأغنية ليلى مراد عند الصخرة في مرسى مطروح ، وكانت تقول له أحيانا إنها ستصبح ممثلة، وأحيانا شاعرة ، وأحيانا ستدخل الجامعة وتصبح أستاذة. وكان فخر الدين يحب الاستماع إلى حديثها العذب ، ويقضي العصري جالسا معها في الصالة العلوية المطلية على هناء الدار ، يتبادلان الحكايا ، ويرفغان برؤى ذلك الجار القريب الغريب، وسوان حالته الممتلئ بالأكواب الزجاجية المزركشة بالرسوم والألوان ، والأطباق الخزفية البيضاء الملونة حوافها بماء الذهب. لم تكن ليلى ولا فخر الدين يعرفان هذا الجار ، هو ابن الحاج أحمد البقال، ولم تكن أم ليلى

أو أبوها ليسمحا لهما بالاختلاط بهذا الولد الجريء العيّن
والذي قذفهم مرة بالطوب من فوق سطح دارهم فكسر زجاج نافذة
العم سليم وحضر أبناء واعتذر وأحضر معه رزق ابنه ليعتذر، فلما
رفض الولد أن ينطق بكلمة لم يجد الأب المخرج مخرجاً سوى
أن يصفه أمام العم سليم - وأمام فخر الدين وليلى المختبئين
خلف الباب - ولما انصرف الرجل وولده أجهشت ليلى بالبكاء .
كان فخر الدين يشب على العلم ومكارم الأخلاق ، عرفه مدرسه
وزملاؤه بفطنته ، وذاع أمر نبوغه في الناحية كلها وبين شباب
القرى الأخرى، وعرفه أهل قريته بحسن خلقه ورجاحة عقله .
كان تقياً في إباء ، وطيباً في غير ضعف ، لم يغش أحداً قط ولو في
لعب ، وكان على حداثة سنه مبعجلاً بينهم ، يلجأ إليه شباب القرى
للمشورة والصحية الطيبة ، ويحبّه رجالها لأدبه الجم وعفته ،
ويتوسم فيه شيوخها الخير . وحين أتم السادسة عشرة وصار على
مشارف دخول المدرسة الثانوية ، كانت مكانته تضعه في مصاف
الرجال .

كبرت ليلى وصارت عروسا ، واحتجبت خلف شياكها عن العيون،
وكان أحمد أخوها قد سافر منذ زمن إلى السعودية للعمل في
حقول النفط ، ولم يعد فخر الدين يصعد للطابق العلوي منذ نبهته
خالته أن ابنتها كبرت ولم يعد يصح أن يجلسا معاً بمفردهما . كان
الصمت رائياً على البيت القديم فخر الدين في جلسته المحببة
في غرفته يقرأ بجانب الشباك وسينية القتل وليلى الهادئة في
غرفتها المطلقة دوماً والعم في الخارج يرعى تجارته والأرض

والخالة تنظم شئون بيتها . في البيت المقابل رزق صار رجلا .
يغيب في المدينة طوال الأسبوع ويعود مساء الخميس لبيته .
ويلقى - في الطريق - بنظرتين حادتين على شباك موازب في
الطابق العلوي ..

عزف الراوي على ربابته قليلاً ، حتى ضج الأطفال المحيطون به وعلت
أصواتهم مطالبة ببقية القصة . وضع الراوي الربابة جانباً واستمرّد ،
جلس فخرالدين على الكنبه الاسطنبولي في صالة البيت
العلوية . منذ سنوات لم يجلس هنا . نسمات الهواء لا تأتي من
الشباك مثلما كانت تفعل . سينية القفل الموضوعة على الافريز
جافة لا ماء فيها . جلس عمه قبائله مقطباً ، يعبث في شاربته
ويدق الأرض في قلق . شرب فخرالدين الشاي ونظر إلى عمه
في تساؤل . تئاذب العم ثم شرع في حديث طويل عن هاشم جد
فخرالدين وعن أبيه عيسى وعن الميراث والتجارة والأرض
والماكنة والدار . الأرض جدباء والماكنة متهاكة والبيت عتيق .
عن المصاريف التي تكبدها لتسييرها وتربيته ، عن إصراره
على تنشئته رجلاً صلباً وليس فتى ناعماً مرهقاً ، وأن ذلك هو
النسب الذي جعله يرسله للعيش مع أم إبراهيم برغم ألم الفراق
الذي تحملته خالته لغيبته ، وأن ذلك هو الذي جعل منه اليوم
رجلاً يحترمه الجميع ويحبونه ، وأنه هو أيضاً يحترمه ويحبه .
- عما قريب تبلغ الثامنة عشرة ويصير من الواجب علي أن
أسلمك أرضك وميراثك ، وإذا أريدك أن تبدأ من الآن في أن ترى
بنفسك كيف أدير تجارتنا وأرضنا ، وأريدك أن تعرف أن الأرض

واحدة والماكنة واحدة والتجارة واحدة ، وطول عمرهم
مشاكلهم متداخلة ومصاريضهم واحدة ، وأنا لم أحسب قط ولم
أكتب قرشا واحدا صرفته هنا أو هناك . الفرض: المال مالنا
جميعا ، ولا داعي لأن نخرج ما عندنا لغيرنا . أزوجك ليلي ونحفظ
خيرنا بيننا .

أخذ فخر الدين وتلعثم ، ثم قال لعمه في أدب ، إن ليلي أخته ،
والها أكبر منه ، وهو لا يفكر في الزواج الآن ، أما الميراث فما زال
أمامه سنين ولا داعي للمجلة ، ويلي يرزقها الله بابن الحلال .
تمتم العم في ضجر ،

- يا فخر الدين ، دعك من هذا الكلام ، وفكر فقط فيما قلته لك .

قام العم واقفا فقام فخر الدين مستأذنا ، وحين شادر الصلاة
لمح ليلي عند أول سلم السطح وكانت تبكي بحرقة .

كان فخر الدين دائم السهر إلى طلوع الفجر ، وعندها يغادر
الدار متوجها للمسجد الصغير في آخر الشارع ليؤدي الصلاة ويعود
متعلا للدار وينام . وفي الشهر الأخير ، كان يخيّل إليه سماع
صوت خفيف قرب الباب الخلفي ليلا ، وأصوات أخرى من الغرف
المقابلة ، وعندما كان يخرج من غرفته ليرى ما الأمر لم يكن
يجد شيئا . كانت الغرف المجاورة كلها مغلقة منذ زمن ومفاتيحها
مع خالته ، فأصبح يستودق كل ليلة من إغلاق الأبواب الخارجية
للمنزل ، ولكن الأصوات لم تنقطع . وذات ليلة كان الصوت آتيا
واضحا من إحدى الغرف ولكنه لما حاول أن يفتحها لم تنفتح .

* * *

قال لي السيد المعطوي البقال :

- مليما كنت أعرفهم حق المعرفة ، أبا عن جد ، وهل يوجد بالقرية كلها من يجهل عائلة الحاج هاشم ؟ لقد كان شابا ممتازا رحمه الله ، وعائلته كلها عائلة فاضلة كالثوب الأبيض . الله يرحمه . لم أعلم بوفاته إلا منك .

* * *

قال الراوي :

« حين علم فخر الدين بأن ثيلى قد أخفقت ، لم يصدق أذنيه ، ولما أيقن أنها قد فرطت في عرضها من فرص حبها لرزق كاد يفقد صوابه ، وزين له الشيطان قتلها ، وصور له أن الشرف الرفيع لا يسلم من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم ، لكنه لما استعاض بالله استعاد هدوءه ، وتوضأ وضمس رأسه في الماء البارد طويلا ، وأمن في التفكير ، خلص إلى أن سلامة شرفها في زواجها من جارها ، وعاد باللائمة على خالته التي كانت تعلم ميل ابنتها لجارها ورخصها تزويجها منه . وهذا من روح ثيلى ووعدتها طيبا ، وأرجعها عما كانت قد انتوته من الفرار من الدار والقرية كلها ، وقال لها ، لا نداري الخطأ بخطأ أفدح منه . ولما حدث خالته في ذلك ابتداء بأنه لا يطمع في الزواج من ثيلى وأنه يشعر بميلها لشخص آخر . فلما ارتبكت خالته وقالت له ، إن الله حلیم ستار ، كاد فخر الدين يغشى عليه ، ودارت به الأرض ولم يصدق أذنيه ، ولما مضت ثوان استجمع فيها شتات عقله نظر إليها في هلع وسألها إن كانت تعلم ما حدث ، فردت وهي تنظر إلى الأرض ، أن ما حدث قد حدث وأن العائلات الكبيرة تداوى أخطاءها بنفسها ولا تترك للشامتين

فرصة للانتقام منها ، وأن خطأ ليلى خطأ إن تداركناه وعار إذا
 ذاع أمره ، وشرف العائلة مطلق الآن برقيبتك يا فخرالدين ، أنت
 الذي تستطيع إنقاذ بزواجك من ليلى ، بنت عمك وبنت خالتك
 معا ، لحكم وعرضك ، وأنت الذي تستطيع لتطبخنا كلنا بالعار
 ومرفعة ، شرفنا في العطين .

- ولكن ما تقولينه يا خالتي ليس له من الشرف ولا حتى اسمه ،
 هذا غش وتدليس ، بل وحرام ، ولم كل هذا ؟ والمخطئ موجود
 في أيدينا ومستعد لإصلاح خطئه ، بل يتمنى أن تزوجه من ليلى .
 - يتمنى مثلما يتمنى ، لكنه لن يأخذها إلا على جنتي ، وأنت ؟
 هل تقبل أن نعطي خيرنا هكذا لغيرنا ؟ يأتي هذا الذي لا أصل له
 ويأخذ الأرض والتجارة على الجاهز هكذا ؟

نظروا فخرالدين إليها في ذهول ، وقال : لا حول ولا قوة إلا
 بالله ، ولما سألتها إذا ما كانت تظن أنه سيقبل بهذه اللعبة الوضعية
 ولن يخبر عمه بالحقيقة ، أجابته في دهشة ، ولكن عمك يعلم
 طبعاً بما أقول ، فلن فخرالدين بها الجنون .

قال ريتشارد لصلاح الدين ، «ولكنك لا تعلم يا سلطان
 المسلمين: الفلاحون في الحقول ، الحطابون في أعالي الجبال،
 والعجائز حول نار المدفأة في ليالي الشتاء ، كلهم ينتظرون
 عودة ريتشارد بمقاتيح أورشليم»، فرد عليه سلطان المسلمين ،
 «ريتشارد! إنك تبحث عن مجدك أنت ، لا مجد الصليبية ، عندها
 التفت العم سليم إلى فخرالدين الجالس أمامه . نظروا مرة أخرى
 إلى التليفزيون فاستطرد فخرالدين في الحديث ،

- إنني وأنا أحدثك اليوم يا صبي ، أحدثك وكأنك أنت أبي وأنا

ابنك ، بيتنا واحد ، وجدنا واحد ، وشرفنا واحد .

قاطعة سليم .

- لا داعي لهذه المقدمات يا فخر ، ادخل في الموضوع .

صمت هنيهة ثم أكمل وهو يتحول بوجهه ناحية التليفزيون .

- أنا أعلم كل شيء .

احتقن وجه فخر الدين ونفذ السيف الملوث في الجرح المفتوح ،

الآن أدرك أن خالته ليست مجنونة ، أو أنها ليست الوحيدة المجنونة .

حاول التماسك حول الجرح وتمتم مع ريقه الذي لا ينبع .

- ومع ذلك تريد تزويجها لي ؟

- طبعاً .

- ولكن كيف ؟

- هي بنت عمك .

- ولكنها تحبه هو . أعطت نفسها له هو . سلمت شرفها له هو .

- هو لا يريد سوى الأرض والتجارة .

- ولكن العرض ؟ العرض يا صبي ؟ أنا الذي يقول لك هذا ؟

- الأرض هي العرض يا بني . وثق أن أحداً غيرنا نحن الأربعة

لا يعرف ولن يعرف بالموضوع .

- وربنا ؟

- إن الله حلیم ستار .

- ولكن الستر موجود ، وهو يريد الزواج منها ، فلم لا تزوجها له ؟

صمت العم . سألت هرجينيا في شماعة ، لويزا ، الفارسة

الصليبية وقائدة الهوسباليين ، تُهَرَّب فارساً عربياً ؟ ما الداعي
يا لويزا ؟ ما الداعي ؟

- لا داعي لفتح هذا الموضوع ثانية يا فخر ، فلن أزوج ابنتي لهذا
الولد ، الهلفوت ، ويدي لن أضعها في يد ناس بهذه الوضاعة .
- خذوهم فقراء يفتكم الله ، ثم إننا لسنا في وضع من يختار .
- نحن دائماً في وضع من يختار ، ولا داعي لأن تلقى عليّ دروساً
في الحياة فإذا أعلم بها منك ، هذا الولد لن يتزوج ليلي ما دمت حياً .
- ويلي ؟

- ليلي تسترّها أنت بإذن الله ، باسمك ، بأرضك ومالك وبكرم
أصلك .

- ولماذا تظن أنني سأقبل الاشتراك معكم في هذا ؟

- لاجل آخر أمامك .

سمت الرجالن طويلاً ، وهمس صلاح الدين في وقاره ،
يستطيع الفارس عيسى أن ينصرف .

* * *

« كانت الصدمة أقوى مما يمكنك تصوره . كان ذلك فوق طاقة احتمالي .
هل تتصورين ؟ هي السادسة عشرة من عمري وأجد نفسي فجأة في قلب
مستنقع بهذه العفونة ؟ وكل الذي ظننته صنما تحطم . وكل الذي ارتككت
إليه تهاوى . وحاولت . لم أكن أستطيع لا قبول ذلك ولا منعه . وكأنني أبتلع
فتيلة تنفجر في داخلي . »

« من رسائل فخر الدين ، »

* * *

قال الراوي،

لكن فخرالدين لم يسكت، وقال لعمه إنه لن يسمح لهذه المهزلة أن تتم وهو حي يرزق، ولن يترك الشرف الحقيقي يداس من أجل شرف مزيف العار منه أشرفه. وفي الليلة ذاتها ذهب إلى رزق وحادثه في الأمر طويلا، ووجد فيه شهامة وحباً لئلي أكبرهما فيه، وكان نادما على ما صار منه، فقال له فخرالدين، وقت الندم قد فات والآن حان وقت العمل. واتفق معه أن يلقاه عند أول الطريق السريع عند الغروب ومعه لئلي ويذهب بهما للمركز المجاور ويزوجهما هناك. وعندما عاد للمنزل قال لئلي أن تعد نفسها للأمر بهذا الارتباك عليها جلها مما أدهشه وكان يظن أنها ستفرح، إلا أنه هذا ذلك للخوف فطمأنها ووعدا خيرا. وعند الغروب انتظرا نزول لئلي عند الباب الخلفي مثلما اتفقا فلم تأت. ظل منتظرا قرابة الساعة ثم تسلس ساعدا نحو غرفتها. على رأس السلم وجد عمه بقامته الفارحة يملأ المدخل، وفي يده مطبجته المرخصة مشهورة. وقف فخرالدين أمام عمه. هذا العم المطبجة وقال،

- والله لو عدت لملأها لقتلتك أنا بيدي.

في الليلة التالية رحل فخرالدين إلى حيث قالوا له إن خاله يقيم منذ هجر القرية. وتقيه بين الأحضان والعتاب والشوق. قص عليه فخرالدين ما كان من أمر لئلي ورزق وعمه وخلافه، فتجهم وجه يوسف وأطرق طويلا. فلما سأل فخرالدين ما العمل؟ أسهب يوسف في ذم جشع سليم وسوء أخلاقه، وهو ما بهت

على سكينته وأفسدها ، فلما سأله فخر الدين ما العمل ؟ قص عليه يوسف قصة خروجه وزوجته وأبنائه ليلاً من القرية ، والرحلة المضنية التي تحملوها ، والخسارة التي تكبدها في تركه لدكانه وبيته وكل شيء كان له ، والمشاق التي واجهوها حتى استقر بهم الأمر هنا ، وكل ذلك من أجل الابتعاد عن جشع العم الذي أعماه .
فلما سمعت قال له فخر الدين ،

- ولكن ما العمل يا خال يوسف ؟

فأطرق وقال ،

- ما العمل ؟ العمل عمل ربنا .

ولما كانت الليلة الثالثة ، صلى فخر الدين العشاء ومكث بالمسجد حتى غلقت أبوابه ، فخرج للحقول مهبوما يكاد عقله ينفجر من الحيرة والفيضان والعجز ، ويكاد قلبه يسيل من الهوان والحسرة وصعقة المفاجأة . أو غل فخر الدين في المسير حتى نال منه التعب فاستند إلى جذع نخلة ونام . نام ساعة أو بعض ساعة ، ثم استيقظ على دفء كأسح ، وحر لافح ، فتح عينيه ففشيهما ضوء عظيم ، دعهما بكفتي يديه وأعاد النظر ، وما هي إلا لحظات حتى رأى في النور وجهاً فقيماً كأنه هو النور نفسه ، بلحية بيضاء وعينين طيبتين ، فكبر فخر الدين وهلل ، وسعى للشيخ فأمسك بطرف جلبابه وتعلق به ، وقال له ، أين أنت يا شيخ ومرشدي ؟ خلقت قد نسيتني أو أهملت أمري ، والله لو لم تأت إلي الليلة لأزاع قلبي وضللت وضاع أمري ، فأهدني للطريق وساعدني . فابتسم الشيخ حتى بان أسنانه البيضاء ، وقال ، هدي من روعك

يا عبد الله وأمل فيه خيرا . قال فخرالدين متعجلا ، ما العمل يا شيخى ؟ فقطب الشيخ عمر حاجبيه وقال : العمل عمل رينا يا بني، وما على الرسول إلا البلاغ ، وقد بلغت . قال فخرالدين ، ولكن كيف أترك هذا الإفك يجري تحت سمعي وبصري وبعلمي ؟ فقال الشيخ : يا بني ما على الرسول إلا البلاغ فقل : اللهم اني بلغت اللهم فاشهد . قال فخرالدين متوسلا ، ولكنهم أهلي وهذا عرضي وبيتي الذي انقض فوقني منهارا فجأة . قال الشيخ : اسبر وادع ربك يكشف عنك الغمة . قال فخرالدين ، دعوت ومازلت أدعو ولكن قل لي ماذا أفعل ؟ قال الشيخ ، يا بني لا يأخذتك بنفسك الغرور، إنك لن تهدي من تحب ولكن الله يهدي من يشاء ، وقد فعلت ما كان يوسعك أن تفعل والباقي لا دخل لك فيه . سال الدمع من عين فخرالدين وخنقه وهو يقول للشيخ ، كيف لا دخل لي فيه ؟ ماذا أفعل أنا الليلة وماذا أفعل غدا وهذا أمر منكرو يجري من حولي وبني ؟ قل لي ما العمل ؟ نظر إليه الشيخ وغمقت نظراته ولملم جلبابه الأبيض الناصع حوله وتباعد مسرعا ، وظل فخرالدين جاثيا على ركبته حتى امتلأ جلبابه بالطين والماء ..

* * *

مال السيد العطوي عليّ في خبث وقال :

- طالما سعادتك تعرف القصة كلها فلم تسأل ؟

قلت إني سمعت روايات كثيرة لما حدث ولم أتبين الحق منها من الباطل .

ابتسم وسرح بنظرته بعيدا لحظة ثم قال :

- ملك حق ، فهذه البلدة لا يشغلها سوى الإشاعات والكلام . أقول لك

الحق ؟ لقد كنا ننسى ما حدث فعلا من فرط ما أثير حوله من إشاعات .

حتى أنا الذي شهدت الأحداث كلها عن قرب ، ساعات أسأل نفسي إن لم أكن قد خلطت بعض ما حدث بهذه الأقاويل .

ظل السيد المطوي ساعدا هنيهة ثم اعتدل في وقفته ونظر إليّ وابتمس في خبث من جديد وقال :

- الحقيقة أنه لما أصر الحاج سليم هاشم على تزويج ليلى إلى فخر الدين حصل بينهما مشادة ، وهذا بعضاً ، وانتهى الموضوع بأن أخذ فخر الدين قرشين من عمه ، أعني جزءاً من ميراثه ، وترك له الدار والأرض والمأكنة والقرية والجمل بما حمل وسافر . ومن يومها لم يعد للقرية قط .

* * *

قال الراوي ،

فلما كانت الليلة الرابعة ، قصد فخر الدين إلى غرفة عمه وطرق عليها طرقة شديداً ، فخرج العم منزجاً مدهوشاً ، فقال له فخر الدين والشرريتظاير من عيشه إنه قد انتوى أمراً ولن يرجع عنه ؛ فلما أن يعدل عن رفضه تزويج ليلى ورزق ويعود للحق ، وإما خرج في التو واللحظة من البيت ليطوف شوارع القرية وحواريها حاكياً القصة لكل أهلها ولا يترك صغيراً أو كبيراً إلا ويفضحه عنده ، وأن الفضيحة أهون عليه من أن يغمس وجهه في الرجس الذي ينتويه العم وأهله . فاقسم العم برأس أبيه لن فعل ليخونته بيديه الاثنتين ، فاقسم له فخر الدين أنه فاعلها إن لم يرجع عن فيه ، فحلف العم بالطلاق ثلاثاً أنه لن يزوج ليلى من رزق ، ثم دفع فخر الدين على السلم ودخل غرفته وأطلق عليه الباب ، فلما كان من فخر الدين إلا أن امتطى بقله ومطاف بالقرية كلها وأهلها من

ورائه يقص عليهم قصة العم الفاجر وظل يعيد القصة حتى آخر الليل ، والناس بين مُبكر ومُستنكر، حتى عاد الناس إلى منازلهم ، فقص فخر الدين إلى مكان قصي عند الترمجة ، وظل يبكي حتى قرب طلوع الفجر ، وكانت أشباح مظلمة تتحرك في أفق طلوع خط النور . وعندما كان المؤذن يقيم الصلاة رأى المصلون بقلة آتية من ناحية الفيضان تحمل جسدا ملقى ، يسيل الدم من تحت عينه اليسرى على وجنته ويلطخ جلبابه الأبيض، وفي وجهه ورقبته طعنات شائرة وجروح. نفث المصلون إلى جثة فخر الدين وكادوا ينكرونها من هول التشوه فيها ، وظلوا يتبادلون النظرات فيما بينهم وبين الجسد الملقى حتى طلع النهار .

أمسك الراوي ربابته وشرع في العزف ، وكان الصبية ينفسون من حوله شيئاً هشيئاً . تقدمتُ إليه وعرفته بنفسي وسألته عن فخر الدين وقصته فنظر إليّ طويلاً ولم يجب . فأضفت أنني أحقق في اختفائه من القاهرة فطلب حاجبيه مستغرباً قليلاً ، ثم ابتسم . وحمل ربابته ومضى.

ناصر الخضري

«الأرض أصغر من مرور الرمح
في خصر نحيل
والأرض أكبر من خيام الأنبياء»

محمود درويش

«مال فخر الدين برأسه على كتفي وبكى ، شعرت أن دمعته تشبجس من
عذوبة نفسه النقية وتأتي ساخنة وتصب بين حجرين ناشفين في صدري .
قلت : ما بك يا فخر الدين أتبكي ؟ قال : نعم ، هي رشفة من قلبي طفت ولم
أدر أين أذهب بها . قلت : أنا لها الحافظ والمستقر . بكى فخر الدين . بكى
على كتفي ، وبكى ، كم بكيت بعدها .

كيف خفته ؟ كيف تركته يصارع الجهال وحده ؟ كيف بعث الأمانني
والأغاني وتركت الحلم كله بقلت من بين أصابعي ؟ كيف أقف الآن هنا
وحدي . ولا أدري ماذا فعل ولا أين ذهب ؟ في أي بلاد حطمت رحالك
يا فخر وبأي دار نزلت وبأي باب ربطت ناقتك ؟ هل استكان قلبك ؟ وهل
وجدت أرضك . وهل سامحت غدري وتخلي ؟ خفته . نعم خفته . أنا .. أنا
من خان فخر الدين فتعالوا إليّ وأمسكوني واضلوا بي ما شئتم فقد فعلت
بنفسي ما هو أشق . نعم تركته وحده وبقيت أنا في هذا الرجم أغوص
وأطفئ كل يوم حتى نخر السوس عظم روحي المفككة . نعم أنا سددت أول
ما سددت رمحي في قلبه الأبيض الطري . نعم أنا . أدميت روحه وأنزفت
جرحه وأبكيته عينه ودست صدره .

نعم أنا . بعته وبعث بيئته وعهده .

نعم أنا . أخلفت وعدي . ونقضت عهدي . وحُقت عليّ اللعنة التي نطاردني .
أنا الذي بكى فخر الدين على كتفه ، أراني دمعته وأشعرني وجعه وأشركني همه
وحلمه . أنا من اتخذني صديقاً وتصيرا . كيف خذلته وخفته وبيدي أنزلت

قصاصة ممزقة

من أوراق ناصر الخضري.

- 2 -

ظهر شخص يدعى فخرالدين في عدة مدن من دلتا مصر الشرقية في الفترة اللاحقة على الحادثة التي جرت في قرية فخرالدين عيسى هاشم. وجدت في بنها، وفي ميت غمر، وفي المنصورة أن شبابا يحمل هذا الاسم قد جاء وعاش في تلك الفترة، كما روى لي فلاحون وتجار من كل القرى والبلدان الواقعة في الدلتا الشرقية أن شخصا باسم فخرالدين وصفاته قد مر وقضى بعض الوقت هناك. ولم أستطع أن أقطع في النهاية برأي في المسألة وخاصة أنني لم أكن أعرف ما إذا كان فخرالدين قد قتل فعلا في قريته مثلما روى لي البعض أم أنه قد سافر مثلما روى لي آخرون. وفي النهاية قررت أن أخذ مؤقتا بالرأي القائل بأن فخرالدين الذي أتى للمنصورة وعاش فيها في تلك الفترة هو فخرالدين عيسى الذي أسس خلف قصة اختفائه. وقد شجعني على ذلك الافتراض تواتر القصص والشهادات في المنصورة عن الفترة التي قضاها هناك وأنها أكثر معقولة وقربا للتصديق من القصص الأخرى التي سمعتها في بنها أو ميت غمر والتي تنسب لفخرالدين قصصا وأحداثا أسطورية لم يأت بعثها بشر، كما أن المنصورة هي المدينة التي عاش فيها في نفس الفترة ناسر الخضري والتي تشير ملفات مباحث أمن الدولة إلى أنه أحد أصدقاء فخرالدين القدامى. ومن ثم، فإذا كانت الروايات التي جمعتها هنا تتعارض مع روايات أخرى عن أوقات أخرى قضاها فخرالدين في بقاع أخرى، فذلك هو غاية ما استطعت استخلاصه من الروايات المتناقضة التي سمعتها، والمعلومات التي وصلتني بطرق أخرى، والتي تتناول كلها حياة، أو حيوات، فخرالدين عيسى.

شارع الجمهورية . ويسمونه هنا شارع البحر ، لأنه يطل على النيل ولأنهم يسمون النيل بحرا . شجر قصير منسق بعناية يمتد على طول الطريق . النيل يبدو منخفضا وبعيدا وممتدا بجوار طريق أسفلتي حديث يجري موازيا أسفل الشارع . يفصل بينهما جدار ضخيم كهوائط الأنفاق يبدو غريبا وسط الأشجار والنيل . وفقت على قمة الجدار أقرب النيل والطريق السفلي . على شاطئ النيل توجد بقايا ما كان مطعما ، وهو المطعم الذي كان فخر الدين يعمل فيه عند مجيئه للمنصورة . قالوا لي هذا الصباح في المحافظة إن محافظنا ما طلع في دماغه ذات يوم أن يزيل المطعم والشجر ويقيم جسرا لا يعلم أحد حتى اليوم بين ماذا وإلى أين كان سيمتد ، وإنهم أزالوا المطعم وفقا للتعليمات في عصر ذات اليوم وأزالوا معه صفا طويلا من الأشجار العتيقة التي كانت تعترض مسار الجسر الوهمي . وفي صباح اليوم التالي تبين أنه هناك سوء فهم وأنه لا يوجد في هذه المنطقة جسر ولا يهزنون . وهكذا اختفى محل عمل فخر الدين . وأين ذهب بقية العمال ؟ لا أحد يعلم ، فلم يكونوا مسجلين بالشئون الاجتماعية بوصفهم عمالة مؤقتة . كان فخر الدين قد أوضح في أوراقه أنه كان يعمل في المطبخ منذ الغروب وحتى منتصف الليل تقريبا مقابل جنبيه يوميا ، وأن ذلك العمل هو الذي مكّنه من مواصلة الحياة في المدينة ومواصلة الدراسة دون أهل أو سند . مشيت قليلا في المكان الذي كان ، ثم سرت بجوار النيل حتى لاح لي شارع الثانوية من بعيد . مسجد أبيض صغير على ناصيته اليسرى . على اليمين بيوت صغيرة متراصة ومطوية بدهان أصفر قديم باهت ركبته رطوبة

من الشبويات المتتالية . خلف المسجد تمتد المدارس حتى نهاية الشارع .
مررت ببعض هذه المدارس حتى وصلت إلى مدرسة جمال عبد الناصر
الثانوية العسكرية . عبرت الشارع الضيق ودلفت من الباب مستخدما
بطاقتي الوظيفية . الباب حديدي رمادي أقرب للسود . تأكل صفحته
بالقرب من المقبض ، على حافته أسياخ حديدية مدببة . السور مطلي بلون
أصفر فاتح ومن فوقه أضيفت - حديثا فيما يبدو - شبكة من الأسلاك
الشائكة لتعليق السور . الفناء متسع وتسطع فيه شمس ضخم قوية . أرض
الفناء رملية مختلطة بطين بني رطب متماسك . عارضة خشبية في أقصى
الفناء وعدد من الطلبة يقسمون فريقا للعب الكرة . دفع أحدهم الكرة
فانزلت واقتربت مني . اقتربت وحملتها في يدي وتوجهت نحوهم فأخذوا
جميعا في الجري بعيدا واختفوا داخل الأبنية المترامية في الفناء . وضعت
الكرة بجوار العارضة وقلت لنفسى : هذه البداية لا تبشر بالخير . اتجهت
للمبفى الذي يتوسط الفناء ويملؤه العلم . فاجأتني رطوبة ممزوجة بروائح
مختلطة ، الناظر في ابتسامته قام من خلف مكتبه الفسيح ومد يده مسلما :
- أهلا وسهلا . اعذرني إن لم أكن قد خرجت للقائك فلم أكن أعلم
بموعد وصولك .

ابتسمت له وشرحت باختصار الهدف من زيارتي ، وأوهمته طبعاً أن
هذا الاستقصاء غير الرسمي يتم برعاية المكتب ويتكليف منه . خلق الناظر
نظارته في بطء ومسح رأسه بيده . امتعضت تقاطيع وجهه قليلا :
- طبعاً سيادتكم تعلم أنني جديد هنا في المدرسة ، فلم يمر على تسلمي
للمعمل سوى عامين ، ومن ثم لا أستطيع أن أدلك على أشياء حدثت أمامي
أو أمرتها بنفسى .

عاد الناظر بظهوره للوراء وأخذ يسمح نظارته بمنديل أبيض . على رقبته
الغليظة انداحت حبة عرق .

- على كل حال ، المعلومات التي عندي استقيتها من الناظر الذي كان
هنا قبلي ، وهو بدوره عرفها من الناظر الذي عاش الفترة التي تحدث
عنها سيادتكم ، وهو الأستاذ محمود حفيظ مثلاً تعلم سيادتكم ولا شك ،
والذي عين بعد ذلك مديراً للتربية والتعليم بالمحافظة . والحقيقة أنني قلت
هذه المعلومات من قبل هي التحقيق الرسمي .

صمت الرجل لحظة ، ثم نظر إلي بطرف عينه سائلاً :

- ألم يكن هذا الملف قد أغلق يا فندم ؟

- 4 -

الثامنة صباحاً . شمس مستبدة تسلط بكامل حرارتها على فناء المدرسة .
انطلق الباب الحديدي الضخم ورنّت خشخشة الأقفال الحديدية
في صمت الطابور الصباحي . انتصب الناظر في أرض الطابور ، في
المقتصف . احمرار وجفنيه زادت الشمس لمعانا . أمام كل فصل وقف أحد
المدرسين ليرقب النظام وانضباط الطلبة في الطابور ، لا حركة ، لا همسة ،
لا التثاثة . يفتح الطابور بالتمام على عدد الفصول وحصر الغياب ، تلاوة
آيات قصيرة من القرآن الكريم ثم فقرات من لائحة النظام الداخلي وبيان
العقوبات الصادرة ضد المخالفين خلال اليوم الفائت ، ثم بدء التمارين
اليومية ، وه صفاء وانتباه . الشمس التي تصعد في كبد السماء شيئاً فشيئاً
تُصعد من سطوتها على سماء أرض المدرسة العسكرية . وجه مستطيل
صاف يلوح من بعيد لمعني فخر الدين مطلاً من عنبر الموهقين . تمضي

التمارين قديما . تهتز أبدان الطلبة في إيقاع تتكفل الإعدادات اللانهائية بضبطه . تُصعد الشمس من هجمتها فيزداد احمرار وجنتي الناظر . يسقط أحد الطلبة في الطابور المواجه من الشمس والإعياء . يجره أحد المدرسين إلى غير المعوقين . تهتز صورة الوجه المستطيل في عيني فخرالدين المترنحتين . السلام الجمهوري يبدأ . تتصلب عروق الناظر المنتفخة بدماء حمراء . الشمس والحر والعرق وضباب الرؤية . تخيا جمهورية مصر العربية . يختفي الوجه المستطيل والشمس من عيني فخرالدين . تقيم الدنيا على السلام الجمهوري والهتاف والناظر والطابور ومطبخ المطعم . هوت صفعة على خد فخرالدين دفعت بالشمس إلى عينيه وبملاح جنونية الغضب لوجه أحمر منتفخ العروق وصفعة أخرى أغلقت الشمس والضوء وسقوط جسمه تحت مظلة ركلات متتالية تحدد اتجاه انهياره وركلات تركز جسمه وتجمعه وتكتله في تكوم منلق متكور . تبثد الشمس والموسيقى الرسمية والفناء ويخفت نوالي الركلات وتهدأ ثم تتقطع .

* * *

دخل فخرالدين الفصل حاملا حقيبته الجلدية السوداء التي فاز بها في مسابقة حفظ القرآن الكريم . يد الحقيبة تترك في يده علامة . عندما جلس وأسند ظهره للدكة الخشبية البنية لمح في آخر الفصل وجها كان قد رآه في الطابور . صفحة وجهه صافية كأنها تشرب من وجه من ينظر فيها . أحس فخرالدين باضطراب ولم يجرؤ على النظر مجددا في هذا الوجه العميق . وطوال الدرس كان يشعر بعينين تخترقان ظهره .

- ناصر . ناصر الخضري .

وجه مستطيل وكفان عريضان وعرج خفيف بساقه .

- هذا هو السبب في إعفائي من الطابور .

ابتسم فخر الدين وقال بتلقائية :

- لبتني أنا أيضًا بساقي تعب لأعفى من الطابور .

- 5 -

هز المهندس أمين رأسه مرتين للأمام ونظر في ساعته وقال لي :

- أترى ؟ مواعيدي مضبوطة .

جلس على المقعد الخشبي وطلب لنفسه قهوة مضبوطة . رشفت رشفة من

كوب الشاي الموضوع أمامي . نظر إليّ أمين بعينين حادتين متقدتين وقال :

- تحب نتكلم في الموضوع من أي وجه ؟

قلت : أريد معرفة كل شيء .

ضحك أمين وقال :

- لا ، بهذه الطريقة لن تكفيها الليلة ولا شهر حتى تنتهي .

سكت لحظة وأطرق برأسه إلى الأرض كأنما يفكر ثم وضع ساقه على

الأخرى ولفها من حولها في التواء غريبة وعقد يديه . نظر إليّ وقال :

- للأسف لن أستطيع الجلوس معك أكثر من ساعة فلدي ارتباطات

أخرى . ثم إني معكوم بعدة الإجازة ويجب أن أعود للسعودية خلال أسبوع.

سأدخل في الموضوع مباشرة .

أعتقد أن الذي يهمك هو علاقة فخر الدين بناصر . ناصر كان صديقي

أيام المدرسة الإعدادية وأنا أعرفه جيدا ، ثم تعرفنا على فخر الدين في

الثانوية ، لكن علاقته بناصر تطورت بسرعة وأصبحا صديقين حميمين

للفاية ، ولم يكن ذلك يضايقني . يعني طالما نحن الثلاثة أصدقاء فلا هم

التفاصيل . إلا أن فخر الدين وناصر قد كونا فيما بينهما علاقة وثيقة بسبب

مشاعر مشتركة ، هي الواقع لم أشعر بها أو بالأدق لم أعرها اهتمامًا وإن كنت قد تفهمتها . وظلت علاقتهم وثيقة جدا حتى منتصف العام الذي تلا رسوبهما - أعني في الثانوية العامة - حيث سافر ناصر مع والده في منتصف العام . والسبب من الأسباب فإن فخر الدين قد أصابته أزمة نفسية حادة من جراء ذلك . ويبدو لي أنه كان بينهما اتفاقات مبرنة على المستقبل وأن سفر ناصر قد أفسدها . لا أدري ، هذه مجرد تخمينات . المهم أنهما لم يلتقيا بعد ذلك أبداً على حد علمي ، فناصر عاد بعد حوالي ست سنوات كان فخر الدين خلالها قد ترك المنصورة واستقر نهائيا في القاهرة .

- وأين ذهب ناصر بعد ذلك ؟

ناصر عمل بعد ذلك في مشروع الكهرباء بطلخا ، إنه مهندس متعلما تعلم . ولكنه كان قد تغير لدرجة كبيرة . وكانت تقنايه حالات من الشرود قوية جداً بدرجة أنه كان تقريبا يغيب عن المحيطين به تماما ، واشتكى لي والده مرات عديدة من أنه لا يأكل أحيانا لمدة أيام . يبدو أيضًا أن الحادثة التي حصلت له في المشروع كان سببها هو الشرود وعدم التركيز . لقد نصحته كثيرا بالذهاب لطبيب نفسي لكنه كان عنيدا جدا في هذه المسألة لدرجة أنني شككت في أنه يتلذذ بتعذيب نفسه .

وكان ... أم ، لا أدري إن كان لذلك صلة بالموضوع أم لا . لكنه كان دائم الحديث عن شخصية «بارباس» أحد حواربي المسيح والذي أبلغ عنه ومات وعاش وحيدا بعد ذلك . قصة مؤلمة جدا ، لكنه كان - لدرجة ما - يحب الأشياء المؤلمة والكثيرة خاصة منذ عودته . وهذا هو سبب ابتعادنا عن بعض منذ ذلك الوقت . النقطة الثانية التي أعتقد أنك يجب أن تعرفها تتعلق بسلوكهما في المدرسة . والحقيقة دون فخر أننا نحن الثلاثة وصديقا

رابعاً لنا اسمه إسماعيل كنا متفوقين للغاية في المدرسة ، ولم يكن ذلك راجعاً لأننا نذاكر كثيراً وإنما لدرجة ذكاء عالية مكنتنا من التفوق مع بذل مجهود قليل ، ولكننا عامة - وفخر وناصر خاصة - كان لنا تحفظات عديدة على المدرسة .

رشف المهندس أمين رشفة من قهوته وغامت عيناه قليلاً وهزك جبينه بيده :
- أنت تعلم طبعاً هذه السن لها متطلبات خاصة . سن المراهقة وبداية الشباب والانطلاق . طبعاً المدرسة يمكن الحديث عنها بأي ألفاظ عدا الانطلاق . وهذا ما كان يحز في نفس فخر الدين وناصر بل يشكل لهما مشكلة حقيقية . كانا يرفضان أسلوب المدرسة نفسه ، والمدرسين ، ومواد الدراسة ، أي باختصار كانا يرفضان الموضوع من أساسه . المدرسة كانت غير محتملة في الحقيقة ، وكان فخر الدين وناصر يلجئان إلى الغياب الكثير وإلى التزويغ أيضاً بين الحصص أو قبل نهاية اليوم ، وكان ذلك يؤدي بهما إلى الفصل المؤقت . ولكن والد ناصر - الأستاذ الخضري - كان يحل المشكلة دائماً عن طريق علاقاته في مديرية التربية والتعليم .

المدرسون كان مستواهم .. يعني .. عادي ، وكان فخر الدين وناصر مثقفين جداً خصوصاً في التاريخ والعلوم الاجتماعية والفلسفة ، وكانا غير قادرين على «تغيير دماغهم» مع المدرسين فيظللان يناقشان ويحاوران حتى تنتهي المسألة إما بطردهما من الفصل أو بخروج المدرسين من الفصل .

المشكلة - مثلما كان رأيي وقتها - ليست في صدق أو زيف ما كان يعتقدانه (فأنا أعتقد أنه صادق) ولكن في أنه لا يمكن عمل شيء في الحقيقة . وأن أفضل السبل هو أننا نمشي حالنا حتى ننتهي من هذه

الفترة الكثيفة دون أن نتركها تؤثر على مستقبلنا ، أما هما فقد ظنا أنهما يستطيعان مواجهة النظام التعليمي كله وهو ما أدى مثلما قلت لرسوبهما في العام الثالث . الذي حدث - وهذه كانت الضربة القاضية - أنهما قررا دعوة الطلبة للامتناع عن دخول الامتحان ، وطبعا كان ذلك شيئا جنونيا لم يقبل به أحد . ولما اقتنعا باستحالته دخلا الامتحان ولكنهما أجابا على أسئلة أخرى غير الموجودة بورقة الأسئلة . وضعا هما أسئلة - كل واحد لنفسه - وأجابا عليها وذلك في حدود الموضوعات المقرر دراستها ولكن دون التقيد بكتب المدرسة أو بالأراء الواردة فيها . وربما كان ذلك شيئا لطيفا أن تسمع به ولكنه سيئ جدا أن تفعله ، ففي النهاية رسبا هما الاثنان وأعادا السنة . وطبعا في السنة التالية أعاد فخر الدين عمل أشياء مشابهة لذلك في حين كان الأستاذ الخضري قد أخذ ناصر وسافرا للخارج حيث حصل ناصر على شهادة جي.سي.إيه الإنجليزية وعاد ليدخل كلية الهندسة.

- وفخر الدين ؟

- فخر الدين لم يدخل الامتحان أصلا في السنة التالية . وكانت عنده أزمة نفسية عميقة عجزت عن فهمها . كان هو الآخر قد تغير بشكل ملحوظ . لا أدري كيف أسف ذلك . ولكن كأن شيئا بداخله انكسر . كان دائم الشرود عابسا ، ولم أعد أجد فيه نفس الشخص الذي عرفته قبل ذلك . كان كأنما قد تبدل تماما . كان الذي كنت أعرفه من قبل قد مات وهذا شخص آخر يشبهه في الشكل دون الطباع أو الروح . حاولت أن أتحدث معه أكثر من مرة في ذلك التغير ولكني لم أكن أصل معه إلى نتيجة . لا أدري إن كان ذلك نوعا من اليأس أم الاستسلام أم ماذا ؟ كان فيما يبدو كل ذلك معا . وقد عاد في العام التالي للمدرسة وكان هادئا تماما ومواطبا على الحضور لكن أيضا

كان كالحاضر الغائب . وكان قد توقف عن النقاش وعن إثارة أي مشاكل من أي نوع . ودخل الامتحان ونجح بل وحصل على درجات عالية جدا وطلع الأول على المحافظة كلها ! وبعد يوم واحد من ظهور النتيجة كان قد اختفى من المنصورة . علمت بعد ذلك أنه ذهب للقاهرة والتحق بالجامعة هناك . وقد تسبب هذا النجاح في إحراج الناظر جدا - الأستاذ محمود حفيظ - والذي كان قد كتب توصية للمديرية برفت فخر الدين نهائيا باعتباره طائبا لا يصلح للتعليم . رحمه الله كان يسبح ضد التيار من أجل أشياء لا تستحق . نظر المهندس أمين في ساعته ، وفك ساقيه بسرعة وقام وهو يعد يده : - أنا سمعت جدا بلقائك ، ولكن يجب علي أن أنصرف .

- 6 -

«في عيد ميلادي ، أهداني ناصر كتاب الإمام الغزالي حول المعرفة ، وكتب لي على غلافه الداخلي «إلى أخي فخر الدين ، ليتعلم معنى المعرفة الحقيقية» . كان ذلك في بدء معرفتي به ، وقد جذبتني الكتاب كثيرا ، وسررت به أيما سرور ، وسررت بناصر أكثر ، وصارت لقاءاتنا بعد ذلك أكثر تواترا وأكثر مناقشة للأمور الذهنية التي كان يختمر بها عقلي ، وكان وجود ناصر وأرائه التي اتسمت بالجرأة الشديدة حافزا قويا على الاستمرار في الاتجاه الذي أخذته ، والطريق الذي اعتزمت السير فيه ، وكان هو شق روحي الثاني وجواب أسئلتها ، وأسئلة كان يقينها يحركه ويستفزّه ليصححها وينضجها . كان ناصر أكثر من مجرد ناصر لي . كان مجددا وضامنا لاستقامة سيرتي على دربي . ويوما بعد يوم ، في غرفته الضيقة التي كنا نسميها «الغارة» تتدرا بضيقها ، كانت مناقشاتنا تطول وتطول حتى تطول كل شيء ، وسقطت فيها

أوهام وتجلت حقائق وتعلمت أساليب وتعلمت أكثر ما تعلمت السماح في الرأي والأمل في صواب ولو يسير لمن يخالفني الرأي . ولم تكن مناقشاتنا في الفلسفة وحسب فقد كان ذلك الجزء مستوحى من كتاب الفلسفة المقرر علينا في المدرسة . وهو الذي أيقظ في ذهننا هذه المسائل . وإنما كانت مطالعاتنا في سير الأنبياء وعقائد أهل الشرق وفي الفنون والموسيقى . كانت سير الأنبياء تلهب خيالنا بفد مشرق ، وكنا نحب رؤية الشروق وصعود الشمس في كبد السماء . لكننا كنا نضطر للنوم بعد الفجر مباشرة لكي نتتمكن من الاستيقاظ مبكرا للمدرسة .

«من أوراق هخرا الدين»

* * *

في شارع الجلاء ليلا ، سدت سيارات النقل الثقيل الناحية اليمنى من الطريق . بقايا المحلات تبيع مندوتشات الجبن الرومي وعصير القصب . صبية يلعبون بكرة شراب بين سيارات النقل الرابضة . السيارات الأخرى تجري في الناحية اليسرى من الطريق في الاتجاهين . سار ناصر إلى جانب فخرالدين بين السيارات النقل باتجاه منزل ناصر . اشترت اليوم شريطاً جديداً لـ «باخ».

- ما الذي تحبه في «باخ» هذا ؟

- لأن موسيقاه عظيمة . كأنها عالم متكامل ومنفصل عن هذا العالم . عالم من الدقة والجمال ومن الانسيابية . ثم إنها كأنها أبدية ، لا تعرف متى تنتهي . كل مرة تظن أنها انتهت تكتشف أنها تعود ، تبدأ من جديد . عندما اسمعها كأني هجرت هذا العالم كله .

أنصت فخرالدين قليلا ، وتأمل الشارع المظلم المتعرج والمسجد الأبيض الذي يلوح في نهايته . مشيا قليلا في صمت وعندما أدركا المسجد انفتح أمامهما بقية الشارع معتدا .

- أتعرف يا ناصر ؟ كثيرا ما أفكر في الهجرة .

- الهجرة من مصر ؟

- ليس بالضبط . هناك نوعان من الهجرة . هجرة إلى الداخل تكتشف فيها نفسك من جديد ، تتقياها من الشوائب ومن العقد ، وتطهرها من الأثام ومن الحقد . وتسمو بها إلى أخاق أرحب وأسمى . وهجرة إلى الخارج لا يهتم فيها نفسك وما بها بل تأخذ نفسك وتهاجر إلى شيء آخر ، لامرأة نصيبها ، أو مال تجمعها ، أو نفوذ تبنيه . وشتان بين الاثنين .

- ليس بالضرورة . من الممكن أن نهاجر إلى الداخل دون أن نترك هذه المدينة ، وإن كنت أظن أن تغيير المكان يفيد في تهيئة النفس للمراجعة

وللتبديل . ولكن المهم هو النية والتوجه . فمن كانت هجرته للداخل فهي لنقاء نفسه سواء بقي أم رحل .

ابتسم ناصر وهو يلمس بيده إحدى عربات النقل الرياضية بجوار الرصيف :

- ما رأيك ؟ نأخذ واحدة من هذه العربات ونضع في المقطورة هراشين

ومكتبة وكاسيت وكرسيتين ونمضي ؟

* * *

تدفق الدم في عروق الأستاذ سمير فازداد وجهه احمرارا . كان

فخر الدين واقفا صامتا والأستاذ سمير يذرع الفصل ذهابا وإيابا . وضع

حافة العصا على المنضدة وانكأ عليها ناظرا إلى فخر الدين من عدستي

نظاراته الطبية السميكة وقال له وهو يتمالك نفسه من الانفلات في الغضب :

- ماذا قال سارتر إذن ؟

- قال إن الوجود في جوهره حرية . وإن الحرية تتمثل في الاختيار .

- لا . غلط . قال إن الإنسان يصنع وجوده من خلال الاختيار وهو ما

يرتب المسؤولية .

- فعلا ولكن أساس فلسفته هو أن جوهر وجود الإنسان حريته .

- هذا الكلام غير موجود بالكتاب . حضرتك بتألف ؟

- لا يا أستاذ . أنا لا أؤلف . هذا الكلام موجود في كتاب د . زكي نجيب .

- زكي نجيب هذا في بيتكم يا ابني وليس في المدرسة . مائة مرة أفهمك

أن الموجود في الكتاب فقط هو المطلوب ، بغير زيادة أو نقص .

- ولكن هذا غير صحيح يا أستاذ : لأن كتاب المدرسة له مؤلف ومن ثم

فهو مجرد قراءة جزئية . ألم نقل ذلك في الحصة الماضية ؟

أمسك الأستاذ سمير بعصاه في توتر وهو ينظر إلى فخر الدين . طالت

نظراته قليلا وran صمت كامل على الفصل . تنفس فسمع صوت نفسه .

فرك يديه وهو يواصل النظر لفخر الدين ثم تعتم :

- لا فائدة ، اطلع برء .

عندما وصل فخر الدين إلى باب غرفة الوكيل وجد ناصر واقفا ينتظره.

فهذه ناصر ضاحكا وهتف :

- ما الذي أخرك اليوم ؟

* * *

في منتصف الكوبري بالضبط وفقا . كان ماء النيل يجري من تحتها
أسود في هذا الليل البهيم . أنوار أعمدة الإضاءة المحطمة غائبة عن
المشهد . نظر فخر الدين بطول ممر المشاة في الكوبري . كان خاليا تماما.
عربات النقل الثقيل لا يقطع مرورها من على الكوبري الذي يترنح تحت
عجلاتها . تعتم ناصر :

- تخيل ماذا يحدث لو انهار الكوبري فجأة ؟

- تخيل أنت ماذا يحدث لو انهارت القناطر كلها نفسها فجأة هكذا

والناس نيام وتدفقت المياه ؟

- بل ماذا يحدث لو أننا الآن ونحن واقفان رأينا في بوابات القناطر أسفنا

تشققا . وأدركنا أن الانهيار سيحدث خلال ساعة أو اثنين ؟

- سنذهب فورا لتتصل بالمحافظة والمجلس المحلي والشرطة وخلافه .

ولن يصدقنا أحد . سيقولون عيال صفار إما بتلعب أو يخيل لها أوهام ،

وسنظل نبحث عن بيوت المسؤولين ونصرخ في وجوههم وهم يستيقظون من

نومهم أن القناطر ستهار وأن الماء سيفمر الشوارع والحقول والبيوت . وفي

النهاية سنصرخ في الشارع على الناس أنفسهم لنقول لهم هذا الكلام .

- وهل سيصدقنا الناس ؟

- أغلب الظن أنهم لن يصدقوا . وسنظل نصرخ هكذا حتى يحتاج

الماء القناطر ويغمر شوارع المدينة ويفرقها بمن فيها ، وبنا نحن أيضاً .

صمت الشاiban لحظة ثم استطرد ناصر :

- ألا تظن أن ذلك أفضل ؟

- بل نموت ونحن نحاول سد ثغرات القناطر بأيدينا .

* * *

كان اسم السيد الوزير مرسوما على كل الحواشي في المدرسة . واستعان الناظر بعدد من الخطاطين الذين صنعوا له لافتات من القماش الأبيض عليها عبارات الترحيب بالوزير الآتي في زيارة نادرة للمدرسة . ومنذ حوالي شهر كان مدرسو الألعاب الرياضية قد بدءوا في برامج التدريب للطلبة للقيام باستعراض أمام السيد الوزير ورفقائه . وأعاد وكيل المديرية الاتصال بالناظر ثلاث مرات خلال الأسبوع الماضي للتأكد من أن كل شيء على ما يرام ، ثم زار المدرسة بنفسه ليطمئن قلبه . وأعيد طلاء فصول الدور الأرضي الذي سوف يتفقد الوزير ، وكذلك قاعة الاحتفالات التي سيلقي فيها كلمته والتي جددت ستائرهما الحمراء الكثيفة . وأتى وكيل أول المدرسة بسجادة حمراء كبيرة من الحاج أحمد صاحب محل الفراشة المجاور له . وقبل الزيارة بيوم ظهرت صفوف من الزروع والأشجار الصغيرة في طول الطرقات بالدور الأرضي . وأتى بإطارين من المعدن ثبت فيهما شبك وعلقا في الفناء باعتبارهما ملعباً للسلة . كما تم طلاء عوارض الأهداف في ملعب كرة القدم الذي أعيد رسم خطوطه بالجير ليلة الزيارة نفسها . وتم إصلاح ثلاثة صناعير للمياه في دورة المياه الرئيسية بالدور الأرضي . وطلبت جدرانها المشققة المشبعة بالماء . وتم عمل كافة التجهيزات اللازمة على الطلبة لإنجاح زيارة السيد الوزير .

وهي ذلك الصباح الذي لم تنسه المدرسة أبداً ، تقدم الموكب في طريقة

المدرسة من البابا الرئيسي وحتى الفناء ، والناظر يهرول مع الركب وأمامه
 ليدله على الطريق . ووقف السيد الوزير في أرض الفناء يتأمل الطابور
 المنضبط وعروض الطلبة تتوالى . نظر فخرالدين إلى ناصر المنبطح
 إلى جواره على سطح المدرسة ونظر إلى وجه السيد الوزير وهو يتحدث
 في الميكروفون بصوت وقور وجان ، وكان شاربه الأبيض يتحرك في هدوء
 مع تمنعات شفتيه ونظارته الطيبة تُضفي على كلماته صدقاً مطلقاً . نظر
 فخرالدين إلى وجه هذا الرجل الطيب . هذا هو الوزير الذي بيده حال
 التعليم كله وهو الذي بكلمة منه يقيم مدارس ويفلق مدارس ويغير مفاهيم ،
 وهو الذي بيديه يفتح السجن لنا ويفلقه علينا . نظر فخرالدين إلى ناصر
 المنبطح على السطح وتبادلا إشارة ثم هبا واقفين . من أيديهما تدرجت
 لافتة قماش طويلة إلى أسفل المبني . وقف ناصر وفخرالدين يحملان قمة
 اللافتة المدلاة على واجهة المدرسة أمام السيد الوزير مكتوباً عليها « كل
 ما حولك كذب وبهتان . التعليم منهار . نريد الحديث إليك بحرية . ران
 صمت ذاهل على أرض الطابور في حين كانت بقايا جملة السيد الوزير
 تتمايل ببطء من شفتيه وهو يُصعد نظره في اللافتة بعينيهِ المنطيتين
 بالنظارة الطيبة . لما وصل إلى قمة اللافتة صمت تماماً وترك الميكروفون
 وغادر أرض الطابور إلى سيارته السوداء المنتظرة خارج المدرسة .

* * *

قذف فخرالدين بحجر في الهواء فارتطم بقضيب السكة الحديد
 وانحرف مساره . هز ناصر رأسه وقال : أهاجر معك .

كان فخرالدين يعرف . كان يعرف أن ناصر سيهاجر معه حين يحين
 أوان الهجرة . كان في قرارة نفسه يعرف عندما غرق في صفحة وجهه يوم
 رآه في الفصل أول يوم كان يعرف . عبر خطي حديد ومضيا وسط القطارات

الرابضة والقابعة هنا منذ أسابيع . عبراً من تحت القطار المفتوح للدهان والثرثريم ومضياً فوق الفلنكات الخشبية المريضة في اتجاه الشرق . من هنا يمر القطار . قال ناصر وأشار إلى منزله على مرمى البصر . جاء الأستاذ الخضري بقامته المديدة يحمل صينية الشاي وتناولها لناصر الذي ورث عن أبيه مهابة الصدر العريض . شربا شايًا ونعناعًا وعزفت موسيقى «باخ» مثلما لم تعرف من قبل .

- 7 -

ابتسم إسماعيل ابتسامة واسعة جدا وهز كتفه الأيمن في حركة عصبية ونظر إليّ . قرب وجهه من وجهي وممس وهو يتلفت حوله :

- اسمعني جيدا . اسمعني ولا تستمع إليّ ، فأنا لا أقول ما أعني بالضبط ، وأعني ما أقول بالضبط . فافهمني كي تفهمهم معي . هل أنت معي ؟

برق بعينه ثم ضحك ضحكة عالية بلا سبب ثم صمت وهدأت ملامحه . سكث قليلا وأشاح بوجهه ناحية النافذة الوحيدة الموجودة بالحجرة . وطال صمته حتى خلت نسي وجودي . هممت بالكلام فأسكتني بحركة من يده . استمر الصمت وأنا أتأمل الحجرة المبعثرة والعلايس الممزقة المتناثرة في أرجائها . موقد بعين واحدة في ركن الحجرة وكوب زجاجي مكسور بجوار رجل السرير . قال فجأة :

- هل ذهبت إلى هناك ؟

- إلى أين ؟

أشاح بوجهه وامتنع :

- إلى هناك في المدرسة.

قالها هازناً وهو يهز كتفيه وفي عينيه بدت مرارة.

- نعم ذهبت .

- وماذا قالوا لك ؟ لا لا . لا يهم ماذا قالوا لك .

اقترب من وجهي ثانية :

- ولكن المهم ماذا لم يقولوا لك . هل تعرف الطريق الأسفلتي المار من

خلف المدرسة ؟ على هذا الطريق سار فخر الدين مع ناصر مرتين كل يوم في

طريق الذهاب والإياب . ستة أيام في الأسبوع على مدى أربع سنوات . على

هذا الطريق حكى ناصر حكاياته : ساقه الممققة وروحه المنطلقة وعينه

المتقدتين . حكى ناصر حكايته : إخوته ، أمه ، أبيه ، وزينب ذات العينين

القطبتين الفائرتين بالغموض والسحر . حكى ناصر حكايته : المدرسة

والمدرسين والدراسة وقهر روحه فيه ، والتقت روحه بروح فخر الدين في

موسيقى «باخ» التي تملأ عليهما الفار وتسج خيوطاً للعنكبوت على الباب

وتفصل المدينة وتبعد ضوءها . وتنفو في قلب البيضة حمامة تعلق قلبها

على الباب ويطلع لها جناحان جديدان ومنقارا . على كويري طلخا اتصلت

الحكاية والأحلام وأعادت رسم المدينة على الجدران ، روى الحلم بالنيل

المنتش ليلاً وأضاءت مصابيح الكويري شوارع المدينة الجديدة وخرج

ورد النيل من الماء إلى الشاطئ وزرع ونما شجرا وزحف على المدرسة

المتهدمة ، ونمت طحالب على عتبات الفصول وينفج من أشعار درويش

على السبورات في مدرسة أخرى في مدينة أخرى ، وعلا النيل وروى الشجر

والطحالب والبنفسج والحقول التي جاءت من القرى واحتلت الأسفلت،

وارتدى فخر الدين وناصر أجنتهما وملأ أوراق الامتحانات بأشعار درويش

وأشجاره وموسيقى «باخ» وكلمات الإمام الفزاني وخطب الشيخ محمد عبده وحكايات «هرمن هيس» وتأملات سقراط . نقرت الحمامة بمنقارها وأكلت وظهر ريشها وضاق عليها المش فخنقت بجناحيها في الهواء فأدرك الجهال أنهما بالداخل ، فهاجموهما بالكتب والأحبار وماكينات الاستنسل التي يطبع عليها الامتحان وصفوف من الطوابير والعصي والبوابات والأسوار والدكك الخشب والجدران المتساقطة ، ونشروا حولهما أوراقا كثيرة ودقوا على رأسيهما بكموب الكتب كي يفرغوها ، ولما اشتد حصار الجهال للفار وحمل وطيس القتال واستشعر فخر الدين سوء موقفه ، التفت لأخيه خلفه فلم يجد ناصرا ، وكان يمسك بريشته وحده في مواجهة الجهال والضرب يملو ، فأخذ ينادي ابن الخضري الذي اختفى ، وظل هكذا طيلة الليل يقاتل أعداءه في ظلام دامس دون سند أو معين حتى تكاثروا عليه وأمسكوا به وأعادوه مرة أخرى لأسوارهم ، وقطعوا الأشجار ومسح الفراشون الطحلب والبنفسج وكلمات درويش وعاد للأسفلت سواده القديم وتحجر على الأرض الحجر الناشف . ولما جاء الصباح اجتمعوا وتشاوروا وقرروا فصله من مدارسهم وتشريدته وحرموا عليه دخول دار علم كي لا يفسد حنطة أهلها أو كتابة كلمة أو قراءة كتاب مطبوع ، فظل فخر الدين يرسم أشجارا وأنهارا على الأسفلت ومدنا وألوانا في الهواء ويمزج موسيقى الشعر في جوف الليل وحده وينادي على ناصر الخضري بين دمه .

صمت إسماعيل وكان صدره ينهج بشدة والعرق يتصبب من جبينه ووجهه . كان الحر القاطط يجثم على هواء الغرفة . تكورت حبة عرق خلف أذني وانداحت على جانب رقبتي . بلغت ريتي ونظرت إلى إسماعيل . لم يكن ينظر إلي . بدأت نفسه تهدأ شيئا فشيئا ثم نظر إلي في عيني وكأنه

ينظر إلى بعيد . قلت :

- وأين ذهب فخر الدين بعد ذلك ؟

قال :

- ذهب مطرح ما ذهب . ماذا يهم بعد أن كسروه وخانه ناصره وطردوه
من التعليم . ذهب يرسم شجره ويقول شعره في مدن بلا أسوار .

- تقصد القاهرة ؟

نظر إليّ إسماعيل في تدقيق ، وقال :

- القاهرة ؟ ربما . وربما غيرها ، إنه يطوف مدن مصر وقراها كلها .
ربما مر بالقاهرة . ولكنه دائما يعود .

قلت في دهشة :

- يعود إلى أين ؟

قال في بساطة :

- يعود إلى هنا . يغيب قدر ما يغيب ثم يعود . ويمكنك رؤيته في أي من
تلك الليالي التي يظهر فيها عند كوبري طلخا ، في وسط الكوبري بالضبط
قيل الفجر . ينشد شعرا ويرسم بريشته الهواء ألوانا .

* * *

«أيا ناصر ...

على كوبري القطار . في جوف الليل ومسيرة النيل الطويل . عندك . في
ليل المذاكرة العتيقة . حين صمتنا معا نضحنا ونضح قلبنا . حين تفتحت
أنفسنا للحلم . كيف أنضجتني ونضجت معي ؟ كيف مررنا معًا من هذا
السجن الرهيب ؟ وكيف هربنا روحينا من شبابيك الزنازين العتيقة ليلا

كي تشرب من هواء النيل قبل مرور الحرس . هل كان يلزمك بعض العاطفة
من أجلي ؟ هل كانت العاطفة ضعفاً للرجال ؟ من أجلي أنا يا ناصر من
أجلي . حين عن الرحيل ووجب . أعددت الركب وأنمت ابن خالتي في فراشي
كي أفر أماناً من سطوة الحرس وانتظرتك عند الباب وعند مفترق الطرق ،
ومررت عند بيتك . وعند كوبري القطار ، وعند قضبان السكة الحديد ،
وبطول شارع الجلاء . مكثت أنتظرك بالقاريلتين . لا . لا أحد .
ناصر .. أيا ناصر .. كيف خدلتني واختفيت إلى الأبد ؟

« من أوراق فخر الدين »

الخونة

«سنخلي لك المسرح الدائري
تقدم إلى الصقر وحدك
فلا أرض فيك لكي تتلاشى ،
والصقر أن يتخلص منك ،
والصقر أن يتمص جلدك »

محمود درويش

الاسم : يحيى إبراهيم .

السن : ٢٥ سنة . من مواليد قويسنا .

المهنة : صحفي حر (مدونة هكذا بالبطاقة الشخصية) .

محل الإقامة : القاهرة .

الحالة الاجتماعية : أعزب ، وبلا أولاد .

- عرفت فخرالدين منذ دخولنا الجامعة وحتى وفاته ، فقد مات على يدي هاتين . صادفته وأحييته ورافقته منذ كنا نتمكن من في المدينة الجامعية في أبي قتادة . كان يفصل بيننا خمس غرف فقط . رأيت أول مرة ذات مساء حين كنت ذاهبا لغرفتي في آخر المعمر - كم كنت أكره هذا المعمر - ومررت بجوار باب غرفته وكان مفتوحا ، فرأيت شابا واقفا يصلي وعلى السجادة جلست قطة . وكان فخرالدين يصلي مرتديا فائلة بيضاء بحمالات . وقد أعجبني المنظر فانتظرت ثم دخلت وتعرفت عليه وجلست معه وعمل لي شايًا واستمعت إلى شريط محمد منير الجديد عنده وتحدثنا طويلا في أمور شتى . مازلت أذكر كل ذلك كأنه حدث بالأمس . كان قد رفع الفراش بجوار الحائط وعمل من ألواح مكتبة وضع عليها شرائط تسجيل لمحمد منير وعلي الحجاز وموزار وباخ . (لم أستمع أبدا لباخ ، هذا ولا أعرف كيف كان يستمع إلى هذا الرزع) ، وكذلك كتبًا كثيرة ودوواين شعر لدرويش ودنقل والسياب والبهائي وحجازي وغيرهم ، ووضع المرتبة على الأرض واستلقى فوقها . ومنذ ذلك اليوم وأنا أزوره في غرفته وتوثقت

علاقتهما حتى صرت آتي للمدينة كي أجلس معه ولا أتبعها لو كان غائبا .

- وإلى أين كنت تذهب في الأيام الأخرى ؟

- كنت أعود إلى قويسنا .

- 2 -

عبر فخر الدين شريط المسكة الحديد الفاصل بين بين السرايات وأبى قتادة . قطارات البضائع راكنة في امتداد الخط الحديدي باتجاه الأفق . يائمو الماكهة الليليون وضعوا فوانيس فوق أكوام البرتقال لتضيء في وجه المشتري كيلا يرى . نساء مرتديات ملابس سوداء وباستعجال « المشاوير » الليلية يعبرن في كل الاتجاهات جازات خلفهن أطفالا حفاة الوجه والأقدام . رائحة مألوفة وغامضة تنبعث من مصنع البيرة المجاور . عساكر التوتيجية الليلية يلتفحون ببطاطينهم الميري أمام قسم الشرطة . انحرف فخر الدين بعيدا بعداء الترع الساكنة الآسنة . جامع قائم مظلم بجوار قسم الشرطة ، لم ير فخر الدين صلاة تقام فيه يوما . مضى فخر الدين بجوار الجامع . أبوابه البنية العالية موصدة بقضبان حديدية ، تجاوزه . رائحة اليهود تنبعث من مستشفى بولاق الذكور . جلبة خفيفة تأتي من عناية المستشفى المضيفة . عربة إسعاف مطفأة الأنوار تقطع الطريق على مهل وسط المطبات التي تتوسط الشارع . لاحت في آخر الطريق مباني المدينة الجامعية الصفراء اللون . اقترب فخر الدين من البوابة . عسكري متشح بمعطف أسود ميري الأزرار والبندقية ، قابع في الكشك الخشبي المجاور للبوابة .

- مساء الخير .

قالها فخر الدين وهو يدلف من الباب الحديدي الكبير . أطل الرجل

جلس الدكتور يونس على رأس مائدة الاجتماعات . على يمينه جلست السيدة بشرى مشرفة النشاط الفني برعاية الشباب وقد وضعت أمامها ملفا كبيرا مليئا بالأوراق وبقصاصات صغيرة معلّم عليها بالقلم الأحمر . عدلت بيدها حجاب طرحتها البيضاء ورشفت رشفة من كوب الشاي . وضع الدكتور يونس ذقنه بين يديه وهو ينظر للطلبة الخمسة المتحلقين حول المائدة . نظر إلى أمين الاتحاد وابتسم له :

- بذلك نكون أنهينا موضوع المجلة ؟

- ولكن يا دكتور ، هذه الطريقة تأخذ وقتا طويلا جدا .

- اسمع يا ناجح ، لا تتعني معك . أنا أتصرف وفقا لنظم ولوائح . أي مقال لا بد وأن توقع أنت عليه ثم الأستاذ المشرف على اللجنة المختصة ، ثم أوقع أنا على المجلة ككل وتختمها من الحرس . هذه هي القواعد ولا داعي لأن تعيد وتزيد في هذا الموضوع . ها يا مدام بشرى ما هو الموضوع الآخر ؟ اهتزت مدام بشرى في مقعدها وأخنت رأسها باتجاه الملف فبدت تتيق رقبتهما الفليضة تحت ذقنها :

- عندنا موضوع المسرحية .

كان صوتها حادا ورنانا في الغرفة المغلقة . فطلب الدكتور يونس حاجبيه وخبط بيده على كفه الأخرى وهو ينظر لناجح ثم لفخر الدين والباقيين :

- ما هو موضوع المسرحية هذا ؟

رد ناجح بسرعة :

- الموضوع يا دكتور خاص بالموافقة على النص .

مالّت السيدة بشرى على أذن الدكتور يونس وبدأت تحدّثه في همس وهي تخرج أوراقا من الملف . تناول الدكتور ملفا صغيرا من يدها وأخذ

يتصفحها وهو يواصل الاستماع إليها . ناولته ورقة أخرى بها علامات حمراء . هز الدكتور رأسه مؤمنا وهو يطلع على القصاصات ، اعتدل في جلسته ثم نظر إلى فخر الدين :

- حضرتك كاتب المسرحية ؟

- نعم .

- طيب ، والله مجهود عظيم . إن شاء الله لما تتخرج تبقى تكتب مسلسلات للتلفزيون . المشكلة بسيطة يا سيدي . الواقع أنه لا توجد مشكلة أصلا . هناك فقط بعض العبارات التي ربما تكون قد كتبها دون قصد سيئ منك ولكنها لا تصلح للإلقاء في مكان عام . مثلا الراوي يقول لا أعرف أين بالضبط .. المهم أنه يقول «نحن نعيش في زمن مضطرب» وهذا طبعا كلام غير لائق .

- ولكن يا دكتور المسرحية تدور في القرون الوسطى

- والله تدور في القرون الوسطى أو في أي قرون أخرى هي حرة . لكن لما واحد يقف ويقول إننا نعيش في زمن مضطرب لن يقول ساعتها أنه يتكلم عن القرون الوسطى على العموم هذه ليست العبارة الوحيدة التي يجب حذفها . هناك عبارات أخرى وهي مكتوبة كلها في هذه القصاصات ، خذها وراجعها ثم اعرضها على مدام بشرى لتمررها عليّ . هذا إذا كنتم تريدون الموافقة عليها .

دق الباب مرتين ودلف منه أحد السماعة . توجه إلى الدكتور يوشن وقال بصوت منخفض :

- المقدم ماهر يسأل عنك يا دكتور .

* * *

- سيد أبو الخير . كلية الآداب .

- أهلاً وسهلاً ، فخر ..

- أعلم . فخر الدين عيسى هاشم . كلية الحقوق .

كان التعارف سهلاً وسريماً . سيد أبو الخير من نواحي بحيرة البرلس بشمال الدلتا . وجد فيه فخر الدين البساطة والإخلاص الربييين اللذين افتقدهما طويلاً منذ جاء للقاهرة . لم يصدده فيه تعقيد ولا غموض مثل الآخرين . ولم ينفره منه تدخل أو ادعاء . أحس أن كل شيء فيه واضح وسهل التفسير . كانت غرفته في أول الممر المقابل وهكذا كان اللقاء سهلاً في المساء بعد العودة من الجامعة . سيد أبو الخير أيضاً جاء المدينة مهاجراً . حكى عن الصيادين في البرلس والاستغلال الذي يقومون منحيته . حكى عن أبيه الصياد الذي خرج على مركب الصيد الذي لا يملكه ذات صباح مع الرجال وعاد المركب بدونه . عن أمه التي تركت البيت إلى الحلقة كي تفرز السمك قبل بيعه وتعود بالخيز آخر اليوم . عن أخته الصغيرة ذات السفوات السبع والتي كان يذاكر لها مبادئ القراءة ويلقي عليها قصائده التي لا تنهمها . - ولماذا كلية الآداب إذن ؟

حكى سيد أبو الخير عن أحلامه . عن الصحافة . مواهب الصحفي لا تنقصه . ينقصه فقط امتلاك ناصية اللغة وشهادة جامعية ولهذا اختار قسم اللغة العربية . ثم إنه شاعر ولا يحب أن يكون مع الهواة . بل مع المحترفين « ألعب معهم بسلاحهم وأكسبهم » .

سار سيد أبو الخير مع فخر الدين أياماً كثيرة بعد المحاضرات وقبل الغروب . على شريط القطار الممتد بحذاء ترعة بولاق . القطارات القادمة من الشمال ترحل إلى الصعيد دوماً وهما يسيران من أبي قتادة باتجاه بولاق الدكرور .

- أترى يا فخر الدين ، يمكنك أن تسير عكس الاتجاه ، بشرط ألا تسير في وجه القطار ولكن بجواره . القطار لا يستطيع أن يخرج من على الشريط ومن ثم فقوته محدودة لأنه غير مرن ، أما أنت فتستطيع بحركة واحدة أن تخرج عن شريطه ولا تواجهه ، وبذلك تصبح كل قوته بلا فائدة ولا يستطيع أن يؤذيكَ .
ابتسم فخر الدين :

- موافق ، ولكنك عندما تتفادى القطار لا تحل المشكلة أنت تتفادها . ولكن بعد ساعة يأتي قطار آخر ثم آخر وهكذا . وإذا ظلت تتفادى القطارات كلها فأنت لم تفعل أي شيء .
- بل تفعل . أنت تتقدم . وتصل .
صمت فخر الدين ثم قال :

- نعم ولكنك تخسر كل القطارات التي تمضي بكل ما فيها وكل من فيها !
- وإذا وقفت في وجهها ، تموت وترمي في المعاجم .
صمت فخر الدين وصمت سيد أبو الخير ومضيا عبر شريط السكة الحديد متشابكي الأيدي . أنشد سيد أبو الخير من شعره ، وروى فخر الدين من ينبوع قلبه حكاياته القديمة والجديدة ، ضيق الصدر ، وضيق الجامعة والتضييق فيها حتى على كلمة في مسرحية .
قال سيد أبو الخير :

- هل تعرف يحيى إبراهيم ؟

- نعم .

- سأقابلة غدا للتحدث في هذا الموضوع . لماذا لا تأتي ؟

في مسرح كلية الحقوق جلس فخر الدين على مقعد خشبي مرتفع في يمين الصالة . مراد الدسوقي ، زميلهم من الدراسات العليا يوجه الطلبة

إلى مواقف دخولهم إلى خشبة المسرح . لبنى عبد الغفار تمسك بورقة في يدها وتقرأ منها دورها . فخر الدين يراجع النص الموجود في يده على النسخة التي يستخدمها مراد الدسوقي . وحيد يراجع دوره وهو يخبط بيده على ركبتيه في فرح وتحد . صمت تام . جاء صوت مراد عائيا : حركة .

دخلت لبنى إلى خشبة المسرح وتوجهت إلى اليسار . وقفت في مواجهة فخر الدين وبدأت في إلقاء دورها . شعرها ملموم في ذيل حصان أبي وعيناها واسعتان سوداوان . نظر فخر الدين في صفحة وجهها والتفت عيناه بعينيهما . التصقت عيناه بعينيهما العميقتين اللتين ابتلعتاه فحف الوجود من حوله . طالبت نظرتهما حتى جاء صوت مراد الدسوقي : لبنى! من فضلك ركزي!

* * *

«أبي

أقول يا أبي عذرا

وقعت في هوى بنية هنا

وأنت كم حذرتني من نسوة المدن

لكنني رأيتها كأنها أنا

فقيرة ، حزينة ، مات أبوها يا أبي

وتقرأ الشعر...

قصاصة من قصيدة لأحمد عبد المعطي

حجازي عثر عليها في أوراق فخر الدين ،

* * *

جلسوا على الحشيش الأخضر أسفل نخلتين متجاورتين أمام القبة . ساعة الجامعة تشير إلى الثالثة إلا ربع . دقائق قصيرة ثم صمت . رواح الطلبة وغدوهم أمام قبة الجامعة لا ينقطع . من بعيد بدا رجال الحرس عند السور يفحصون بطاقات الداخلين . كانوا هنا جميعا ، فخر الدين وشوقي وسيد أبو الخير ويحيى إبراهيم ومتيب وفضيلة والشيخ وأحمد وجمال وناجع وغيرهم . من كل الكليات جاءوا وتحدثوا نحو ثلاث ساعات . قال فخر الدين في الختام : - إذن يمكن الاتفاق على الصيغة التالية : إننا ، وبغض النظر عن اختلافنا وعن معتقداتنا أو مذاهبنا أو آرائنا ، كلنا طلبة في هذه الجامعة ، ننتمي إليها ونريد أن نجعل من وجودنا فيها فترة ثرية وغنية لنمونا النفسي والعقلي ، وأن نؤدي واجبنا الذي يفرضه علينا وضعنا كطلبة . سواء إزاء الجامعة أو إزاء أهلنا ككل ، إزاء المجتمع بالأدق ، وإن كل ذلك لا يمكن أن يتم طالما تكبت حريتنا وتقمع آراؤنا ولا تُعطى لنا الفرصة للتعبير عن أنفسنا ، ولا سيما أننا لم نرد يوما أن نتخطف القانون أو نهدمه أو نتعدى على حرية غيرنا أو نقيدها أو نلجأ للعنف أو القهر ، بل إننا ضحية لكل هذا .

ومن ثم فإننا متفقون على ضرورة حصولنا على هذه الحقوق البسيطة ، وعلى أن نتزعجها إذا تعذر الحصول عليها بالإقناع .

تحدث يحيى وسيد عن ضرورة التنسيق بين الجميع حتى ينجح أي تحرك ، واقترحوا احتلال مطبعة الجامعة مثلما حدث عام 1970 م . وأثن شوقي وأحمد وغيرهم على ذلك مقترحين أن يعتصم الطلبة كلهم بالجامعة لحين الاستجابة لمطالبهم وطرد الحرس منها وتعديل لائحة النشاط الطلابي بحيث ينهي سيطرة الشرطة والأساتذة على نشاط الطلبة ، وانفض الاجتماع على أن يلتقوا أسبوعيا للاتفاق على التفاصيل .

* * *

شريط الترمي ميت عند مدخل ميدان عبد المنعم رياض . مجموعة من الشباب تلعب كرة القدم في المساحات الأسفلتية أسفل كوبري أكتوبر . الإعلانات الضوئية أعلى العمارات تسقط أضواؤها المتلاعبة على الميدان . أكوام الحديد والخشب الخاصة بأعمال مترو الأنفاق مكدسة على رصيف الترمي الغائب . لم يستطع فخر الدين رغم ذلك أن يمنع نفسه من النظر خلفه من حين لآخر .

- من يدري ربما يظهر الترمي فجأة !

ابتسم شوقي بنصف شفثيه ورجع برأسه للوراء قليلا وقطب ملامحه . صمت فخر الدين لوفسح له الفرصة للهدوء والدخول في الموضوع . أخيرا همس شوقي :
- أنت تعرف أنني خطبت فطيمة من حوالي ستة أشهر . أنا أعرفها منذ ثلاث عشرة سنة . هل تتخيل ؟ كانت جارتنا في شبرا الخيمة قبل أن ينقلوا ليعيشوا في بنها . منذ حوالي سنة أحسست بشمور غريب جدا . تعرف ؟ أنا لم أعرف الحب قبل ذلك أبدا .

- وكل هذه القصائد التي تكتبها ؟ وكل هذه العيون وهذا الشعر ؟

- يعني .. هذه قصائد يمكن كتابتها في هني فناة في الأتوبيس ، في شمر زميلة في « السكشن » ولكن لا أكثر من ذلك .

- ومها ؟

ابتسم شوقي وهز رأسه جانبا :

- لا ، مها بالكاد ألهمتني ثلاث قصائد . في عينيها نظرة تحد مذهلة وهذا ما لفت نظري إليها . ثم إنني لا بد لي من مهمة .

مثلا هدى ، هذه الفتاة القصيرة التي ترتدي بيريه دائما .. لقد كتبت فيها القصيدة التي فازت بجائزة مهرجان الجامعة في العام الماضي . هذا

كله شيء وفطيمة شيء آخر . فطيمة الحب الحقيقي الأول هي حياتي .

* * *

يا ليلي

لا أدري بأي حق أوجه إليك رسالتي هذه . ولا أدري لماذا أكتبها إليك أنت . ولكنني حين ضاق صدري وانطلق وجدت نفسي أمام الورق أكتب إليك . ربما كصديقين نتفهم بعضنا ونفهم بعضنا . ربما كروحين فلقين تتواصلان كي تستمرا على قيد الحياة . على كل حال ها أنذا أكتب إليك .

لماذا يضيق صدري؟ كنت تسألين هذا النهار . لأقل لك الإجابة الآن . كيف لا يضيق صدري وأنا أرى حوالي كل يوم كل هذا الظلم وكل هذا العبث؟ هل رأيت الرجل الممدد أمام سور كلية الفنون التطبيقية وهو غارق في أسمائه والحشرات من حوله والجرح الذي ينزف بوجهه طوال الوقت؟ هل رأيته؟ ألم تشعري بالمسئولية تجاهه؟ كيف أمر من أمامه دون أن أدوس على قلبه . بالأمس أعطيته نقودا ولكن اليوم وجدته كما هو . ومن أدراك كم مثله في أرجاء القاهرة وحدها وكم مثله وأسوأ منه في هذه الأرض .

ألسنا كلنا بشرًا يا ليلي ، لماذا إذن يموت آلاف منا جوعا ويحبوا آخرون في بذخ؟ ولماذا حين يولد طفل في ريفنا المسكين لا يكون له الفرصة التي ينالها طفل سويسري؟ ما الفرق بين الطفلين عند الولادة؟ ولماذا أتحدث اليوم ، وكل مشغول بهم ، بلقمتهم ورزقه هو ، دون أن يفكر لحظة أن رزقه ورزق غيره مرتبطان .

وهذه المدينة القاهرة . هي القاهرة بحق ، كأنها تدوس بمبانيها ، بزحامها وترابها وضجيجها على عتبات روعي فتخفقني وأحاول أن أفر من وطأة قدمها على قلبي فتتسد أبوابها دوني . وأبش ملقى هكذا في هذه

المدينة الجامعية القاتلة الحقيرة . في هذا المنفى المنعدم الملعن .
محبوسا خلف هذه الأسوار بين هذه الجدران الكالحة .

والرفاق؟ ما من أحد يعرف في هذا المنفى أهداء . مع أنني من أصول
ريفية مثلهم ، إلا أنهم مختلفون فعلا عني . هم لا يأبهون لشيء سوى الوجبة
الفدائية والمحاضرات ولديهم ما يشبه الفريزة الفطرية التي تحول بينهم
وبين الدخول في أي موضوع قد يتسبب في مشاكل لهم . يسبغون في نهر
الحياة الذي يسقون منه حقولهم دون أن يكونوا مستعدين لحظة واحدة
للنظر في توزيع الماء أو الأرض . كأنهم شجر .

وزملاء النادي؟ لا أدري . هل هم يعقدون الأمور أكثر من اللازم؟ هل
يبحثون عن الخلاف وعن العناوين المثيرة؟ ربما . ولكن الأدهى من ذلك
هو عدم الإخلاص . عدم الإخلاص الذي يظهر من كلمة . من تعبير . من
لفتة . وغير ذلك مما لا أحب الخوض فيه الآن .

فأين المفر؟ كيف أجد لروحي منفذا كي تخرج؟ وكيف أجد طريقي كي
نجعل الحياة أجمل وأنقى وأعدل؟..

من أوراق فخر الدين،

* * *

الدخان يملأ المكان . يتشكل في حلقات وأجسام خرافية تحتل الفراغ
بين الزحام على الأرض وبين السقف الخشبي المنخفض . وجوه شاحبة
تبدو من خلف أشكال الدخان منهمكة في أحاديث مطولة وصاخبة .
عامل البوفيه يمر حاملا أكواب حلبة وشاي وماء وقهوة . يجمع الأكواب
الفارغة وهو يحاسب فتاة محجبة مشغولة بحديث ملتهب مع سلامة فتحي ،

الناصرى المعروف . محمد الشيخ بتوسط حلقة النادي في الركن الأقصى
للأثلية . ابتسم شوقي بنصف شفثيه وأوماً لفخر الدين :

- ما رأيك ؟

لم يرد فخرالدين وإنما هز كتفيه . مضى عبر سلمتين خشبيتين
للداخل. انحنيا بجذعيهما ليمرا أسفل السلم الذي يقود لمعرض الفنان
إبراهيم عوض . رجل بدين ذو نظارات دائرية يعبر الطريق إلى السلم.
يثز السلم الخشبي مع خطواته . أحمد مراد المخرج المسرحي يمرق من
الداخل مسرعاً في اتجاه الباب . كوفيته الطويلة تتعلق في مسمار يارز من
مسند كرسي فتسحب الكوفية كلها من على كتفه . يستدير متضجراً ليخلص
كوفيته فيلمح الرجل البدين في أعلى السلم ويشير له برأسه باقتضاب .
يسحب كوفيته ويعدل الحقيبة ، الهاندباغ ، على كتفه ويمرّق للخارج مسرعاً .
تهرول من الغرفة الداخلية فتاة جيئزية البنطلون مطلقة الشعر :

- أحمد .. يا أحمد!

- اثنين شاي .

علا صوت شوقي وهو يميل برأسه ناحية البوذية ويشير لفخرالدين
باتجاه حلقة شباب النادي . يتقدم فخرالدين وسط مقاعد الجالسين
باتجاه الحلقة . يصلان إليها . يسحبان كرسيين ويدخلان إلى الحلقة .

* * *

خطوات مشهولة تقطع الصمت في الممر الخارجي . تقترب من باب
الغرفة . أصاخ فخرالدين السمع . توقفت الخطوات . دقة واحدة على
الباب ثم صمت قصير . دقة ثانية . فتح فخرالدين الباب . دلف ناجح
سريماً وأغلق الباب خلفه . دفع بإصبعه إطار نظارته المعدنية ليثبتته على

عينيه المفتوحتين على آخرهما . ابتمسم لفخر الدين ثم جلس على المرتبة
الأسفنجية الممددة على الأرض وهو يتطلع إلى جسم السرير الخشبي القائم
بحداء الحائط . نظر إلى شرائط الكاسيت الموضوعة على أرففه وهمس :

- عندك مجموعة محمد منير كاملة؟ هايل!

- تحب تسمع؟

- بنتولد .

جلس فخر الدين أمام ناجح وتساءل في قلق :

- ماذا فعلتم؟

- كل الأوراق جاهزة على التصوير . لكن نريد أولاً الموافقة على الصيغة
وعلى الخطوات التي نسير عليها موافقة نهائية .

جاء صوت محمد منير الدافئ من سماعات التسجيل الصغير الراقدة
بجوار المرتبة : يا عروسة النيل ، يا حنة من السما ، ياللي صوتك جوه قلبي
ملحمة .

- وشوقي وبشة الجماعة ، هل عرضتم عليهم الأوراق؟

- عرضت الأوراق على محمد الشيخ وسوف يعرضها هو غدا على بقية
المجموعة أثناء وجودهم في بنها وبعد غد سيكونون في الأتيليه . أما شوقي
فقد كنت سأسألك عنه .

- الحقيقة أنني لم أراه اليوم فقد كنت طوال اليوم مشغولاً في بروقات
المسرحية . سأبحث عنه غدا . المهم ، هات ما عندك .
أخرج ناجح الأوراق وبدأ في القراءة .

* * *

مسرح كلية الحقوق ، صفوف من الكراسي الصفراء تغلق وحدها .

خشبة المسرح عالية ومظلمة . فوقها جدار كرتوني عال كأنه حائط وبه نافذة وحيدة . بجواره كرسيان ومنضدة صغيرة . ستائر المسرح على الجانبين ممزقة وتترك الضوء ليحتل ساحة المسرح رغم إسدالها . مراد الدسوقي يعلن بدء الاستراحة :

- نصف ساعة وستأنف البروفة .

نزل الطلبة سريعا إلى كافيتيريا لآياسه لشراء الشاي والبسكويت والسندوتشات والشيبسي . الجو مفسول بمطر الصباح وبقايا الماء تتجمع في حديقة الجامعة . شجر أخضر زاهي الأوراق يحمل الشتاء بين فروعه . برد خفيف يتسلل من بين الأقمشة الصوفية فينعش القلب .

فخر الدين ولبنى :

- اتين شاي وواحد شيبسي .

عادا إلى سلم الكلية الرخامي القديم . قلب فخر الدين يخفق بشدة ولبنى تصعد السلم بجواره . راثعتها المميزة تملأ الفضاء بينه وبينها . يحافظ على المسافة بينهما بالضبط كي لا يخاطر بلمسها ويخرج من دائرة محيطها . هل أحبها؟ سأل فخر الدين نفسه ولم يرد . دخلا قاعة المسرح واستقرا في الصف الرابع . وضع فخر الدين الشاي على الأرض وفتح لها المقعد المجاور . شاهدها تجلس . هذه الروح الرائقة الرائعة الرخامية تجلس هاهنا بجانبني . بجانب كوب شايي . بجانب ساعدي . ابتسمت لبنى وهي ترشف من كوب شايا . هذا الوجود العنوني المقدس الذي أخشى الاقتراب منه ولا أطلق البعد عنه . غرقا في حديث طويل حول المسرحية والكلية والزملاء . كان أبوها هو الذي يشجعها دائما على النشاط أيام المدرسة ومنذ وفاته لا أحد .

- أنا أشجيك .

احمر وجهها وأطرقت :

- أنت فيك أشياء كثيرة تذكرني بأبي .

احمر قلب فخر الدين وهو يفوس بين ضلوعه إلى قدميه . نظر إليها . لا يعرف كيف يمكن أن يكتف وجود إنسان ما الزمن والحياة لهذه الدرجة . اللحظة التي تمر وهو جالس بجوار هذه المخلوقة الصغيرة البريئة العينين ، تمر مكسدة بالحياة . نظر إلى عينيها فوجدها معلقة بعينيها كأنما تنتظره . بلغ ريقه بصعوبة وأعاد النظر مرة أخرى .

ما زالت عيناها هناك . احمرت وجنتاها مع خفوت الضوء .

- أتعرف؟

- ماذا؟

- أنا أحبك جدا يا فخر الدين .

ارتبك فخر الدين . أعاد ظهره للوراء وأراحه على الكرسي . رشف رشفة من كوب الشاي وأعاد النظر في عينيها السوداوين ، تتسع عيناها وتتسع حتى لا يرى شيئاً سوى سواد عميق حنون .. بحرا . وضعت لهن قطعة شيبسي في فمها وقرقشتها ضاحكة فضافت عيناها قليلا . ضحك فخر الدين :

- تأكلين الشيبسي كأنفشان!

- كان أبي دائما يقول لي ذلك .

- ما هي حكاية أبيك؟ أكلما قلت لك شيئا تقولين أبي!

جاء صوت مراد الدسوقي عاليا:

- بروفة!

تهدت لبنى وهي تنظر إلى عيني فخر الدين نظرة أخيرة وهي تقوم، تأملها فخر الدين وهي تذهب باتجاه خشبة المسرح ومد ساقيه على الكرسي المقابل . تشبه عروس البحر في هذا البلوفر الصوف الأحمر والبنطلون الأسود الضيق . قالت : أنا لا أحب البنطلونات ، لكن الأستاذ مراد صمم على بنطلون أثناء البروفة . ذيل حصان شعرها يتهاوى خلفها وهي تصعد سلالم المسرح ، علا صوت مراد :

- كل شيء جاهز؟ بروفة!

هبطت موسيقى «مون أمور» . فخر الدين يحمل باقة ورود حمراء ويتقدم بجوار الجدار العالي . لبنى تطل من الشباك الوحيد أعلى الجدار وشعرها الأسود المسترسل يتهدل على كتفها . يقذف بالورد للنافذة فتلتقطه لبنى وتقبله . تضع وردة في شعرها . تنهب لحظة ثم تعود وتلقي بسلم من الحبال ، تبدأ في النزول عليه . فخر الدين يقترب من السلم ويمد يديه ليلتقطها . تملأ موسيقى «مون أمور» حين تهبط لبنى وتمسك يديه . فجأة تحل طبول عالية محل الموسيقى . يلتفت الحبيبان في دعر . من كل اتجاه بهجم عليهما رجال ونساء كثيرون ويجذبون كلاً منهما في ناحية .

* * *

الثامن والعشرون من فبراير . البرد قارص بالخارج وبالداخل أيضاً . فخر الدين ينام في غرفته . طرق خفيف على الباب . اندهش فخر الدين لرؤية جمال في هذه الساعة . دخل جمال بظهره المقوس وأكتافه الضيقة. ألقت بحية المساء وهو يهز رأسه المدفونة بين كتفيه يحمل أخبارا مفسدة. محمد الشيخ لا يسلم فطيمة الخطابات التي أرسلها معه شوقي . والخلاف العميق الناشب بين فطيمة وشوقي مصدره وقعة محمد الشيخ. وهي النهاية

محمد الشيخ أخبرني أنه يحب فطيمة منذ سنوات وأنه أولى بها من شوقي ذلك المدعي القادم من القاهرة . انصرف جمال وهو يهز رأسه المدفونة وسط كتفيه الضيقتين . وكان صوت خطواته يرن في ظلام صمت الممر .

* * *

« كانت رحلة مضمية ، عانيت فيها على كل المستويات النفسية والذهنية . واختبرت فيها كرامتي وشرفي ونزاهتي التي وضعت هي مقابل الشفقة واللياقة والعاطفة الإنسانية . ولما اتضح لي أن هذا العن أشد قوة ورسوخاً في الفروع والجذور من أن أحاول ترويضه ناهيك عن تطهيره . أثرت الابتعاد . ولكن الرائحة ما زالت تزكم روحي . »

« قصاصة من أوراق فخر الدين »

عن رحلته التي قام بها إلى بنها ،

* * *

الدخان يملأ قاعة المهرجان . صوت ثعثة المتحدث التالي إلى أحد عمال الصوت يأتي مضجعا وغير مفهوم في السماعات المعلقة في أركان القاعة الفسيحة . الرجل يدق بإصبعه على الميكروفون في محاولة لإعادة الصمت في القاعة الضاجة بالأحاديث الخافتة . أحمد يقف وحده في ركن بجوار الخشبة يعد قصيدته التي سيلقيها بعد قليل . سهير تتراجع بظهرها إلى الوراء وتكشف مساحة جديدة من ساقها السمراء النحيلة . تعيل برأسها ناحية فخر الدين وتواصل معه حديثا متقطعا .

- دعوني أقل شعرا .

منى حمدي برأسها الصغير وشعرها الكاريه وخطوط كحل عينيها
الفرنسية الطابع ، تمسح قاعة المهرجان بعينيها .

دعوني أقل شعرا حقيقيا

كنت واقفا في الأوتوبيس الذي يحملني إلى الموت اليومي
رائحة العرق الناضح من إبط امرأة لاصق في وجهي
يخفقني

ويخفق في الزهر المأسوي اللون

بطن السيدة الحبلى يحثك بظهري إذ تعبر

إذ ترجع

إذ تتراخي

أتراخي

هي قلب الظلمة إذ تحملني غيبوبة ذهني للعقد المدفون ،

المحقون ،

المسجون ،

هي واحة بلدي

منى حمدي تستقر بنظرها على الصف الثالث حيث تجلس ليلي
المرجاني ، ويتبادلان نظرتين وإيماءة . سهير تميل على فخر الدين وهي
تسأله عن رأيه في قصيدة أحمد . فخر الدين شاخص الوجه ممتقع ينظر
إليها ولا يرد . منيب يتبادل حديثا ضاحكا مع شخص مجهول ثم يطلب منه
سيجارة ويمضي ليشتعلها خارج القاعة .

رائحة بقايا طعام الإفطار

تستل من إست الرجل الواقف عند الباب
 العطن . والعفن الزاحف من فمي نحو الأمعاء
 يا كلني .. يشربني
 الرجل الشاذ الملتصق بظهري
 ليلى السرجاني تقوم من مقعدها وتوجه للباب . تلثني بمنى حمدي
 وتخرجان معاً .
 يظلمني
 أنتقت إليه فتبين أسنانه الصفراء
 أراجع . يلحقني
 أنقل إلى الباب فأواجه رائحة البول المنبعث
 من الشحاذ الراقد عند الشباك الخلفي
 أتقيأ
 وما
 إذ لم أتناول إفطاري
 يغطم الدم بخيمت الدم المتسلل من ساق
 المطالبة المزنوفة جنب الباب
 الرجل المصدور عند الشباك يتقيأ بلفمه كالمعتاد
 السائق يتقيأ ركابا
 نتقيأ . نتقيأ . نتقيأ
 والقيء الطافح يملأ أفق الأوتوبيس
 الأوتوبيس الذي يحملني للموت صباحاً ... إلخ إلخ .
 صمت أحمد لحظتين . طوى ورقته وتراجع خطوة خلف الميكروفون .

جاء التصفيق متصاعدا من القاعة . ابتسم أحمد وهز رأسه وانسحب من على خشبة المسرح .

قام فخر الدين من مقعده مسرعا ، شق طريقه وسط الزحام خارجا ، التقى بمنيب العائد من الخارج وابتسم له في وعن . اتجه إلى الباب ، وخرج . كان يشعر بفثيان قوي من الدخان ومن القصائد التي تلى . وكان يتساءل عن العلاقة بين النضال وبين القرف . الهواء البارد في شارع القصر العيني أعاد له بعض القوة .

وقف مستندا إلى العمود الخرساني الضخم . شارع القصر العيني مزدحم كالعادة . السيارات تمر دون رحمة . دون التفاته . توقف أوتوبس فجري خلفه الواقفون عند المحطة . بالداخل كان المهرجان مستمرا . وقف فخر الدين في البرد وحيدا . نظر إلى الشارع وترقرق دمع في عينيه وعاد للقاعة .

كان منيب قد جلس بجوار سهير التي انحسر ثوبها عن ساقيها تماما . شاعر آخر يصعد إلى خشبة المسرح وسط تصفيق حاد . منى حمدي عادت للقاعة وتجلس بجوار ليلي السرجاني في الزاوية الخلفية منعزلتين في الظلام قليلا .

جاء صوت الشاعر رفيعا وعاليا :

عرق العمال الكفرانة على المكنة

طفحانه الكونة

حتى فتأخيت العيش

أخدوها ولاد الغربة بتوع الجيش

منى حمدي ويلي السرجاني تفادران القاعة بعد تبادل سلام سريع مع

بقية أعضاء النادي . لمح فخر الدين « سيد أبو الخير » واقفا بجوار الصف الأول يتحدث مع أحمد مراد المخرج المعروف ، يتشم من حين لآخر ويستطرد في الكلام . أحمد مراد يربت يده على كتف « أبو الخير » ثم يتشم له ابتسامة متمجلة وينظر للسيدة الشقراء الجالسة على يساره . « أبو الخير » يتشم ابتسامات متتالية وينسحب منحنيا وهو يهز رأسه . شوقي ومنيب يتحدثان في نفس الوقت تقريبا لسهير التي لا تكف عن الالتفات بين الاثنين .

كانت قصيدة الشاعر هي الأخيرة . وعند الباب لمح هواء شارع القصر العيني البارد وجوه كل الخارجين . حلقات المتجمعين حول الرصيف تتناقص وتتلاشى . أحمد والشيخ رحلا ، وبقي شوقي ومنيب وسيد وفخر الدين .
سأل فخر الدين :

- من منكم أت معي لبيت السرايات؟

تبادل شوقي ومنيب نظره ، وأسرع شوقي قائلا :

- أعتقد أن هذا طريق منيب .

- لا . في الحقيقة أنا ذاهب الليلة إلى ميدان رمسيس لأقابل ابن عمي .

ابتسم شوقي بنصف شفثيه ، وقال :

- إذن تعال معنا أنا وسهير إلى رمسيس ثم نكمل نحن .

أخذ منيب نفسا عميقا :

- ولم لا نسهر ممّا قليلا؟ هل ترغبين في الذهاب يا سهير؟

هزت سهير كتفيها ولم تجب .

رد شوقي :

- على العموم أنا اتجاهي شبرا الخيمة سأوصل سهير لشبرا ثم أكمل أنا .

قال منيب ، ميتسما :

- إذا كنت مستعجل روح أنت وأنا ممكن أوصل سهير ثم أعود لابن عمي
هي ومسيس .

تعلمت سهير :

- أف . أي واحد منكم يوصلني ويخلص .

- 3 -

- كان فخر الدين خلال هذه الفترة يشعر بالتمزق . وكان شديد الوعي
بنقائص زملائه . ولكنه لم يكن يجد بديلا سوى السكون والاستسلام .
فكان عليه أن يحارب ، مع جند فاسدين ، عدوا فائق القوة ؛ لأن البديل كان
موتاً . كان يقول لي دائما - واعني بدائما المرات التي كنا نلتقي فيها - إنه
يتذكر جيدا قصة سيدنا موسى ورفض اليهود أن يقاتلوا معه ، ثم عبادتهم
للعجل حين ذهب للجبل .

سمعت يحيى إبراهيم والتفت إلي . سأنته :

- وأين كنت يا يحيى خلال هذه الفترة ؟

ثبت نظارته السميقة واختلج شاربه الأسود ونظر إلى بعيد :

- كنت هي قويسنا .

* * *

- كانت جلسة النادي عاصفة . إذ كنا جميعا ندرك أنها أهم جلسات
النادي على الإطلاق ، ولذا كان كل طرف يحاول التثبيت بما يستطيع من
مواقفه . كما كانت هناك خلافات شخصية ، بين عدد من أعضاء النادي ،
حالت التوصل لاتفاق .

- خلاقات بين من؟

- بين شوقي ومنيب اللذين كانا دائما على خلاف ودون أن يكون لأيهما اتجاه محدد سوى مخالفة رأي الآخر ، وشوقي والشيخ ، اللذين كانا لا يتبادلان حتى التحية منذ موضوع قطيعة ، ثم حدثت خلاقات أخرى بين منى حمدي وشوقي ؛ حيث أصرت منى على ضرورة تضمين حقوق المرأة في مطالب اللجنة وأن يشمل ذلك حقها في التعبير الجسدي عن نفسها ، فاتهمها شوقي بالشذوذ مما أثار مشكلة حقيقية وصلت للعراك بالأيدي . ولما كان شوقي طرفاً في كل هذه المشاكل فقد توحد الجميع ضده وطلبوا بإخراجه من اللجنة .

- ثم ماذا ؟

- ثم تدخل فخر الدين ، والواقع أنه بذل مجهوداً ملموساً في إعادة الهدوء وهي التوصل إلى صيغة موحدة ترضي الجميع ، فالتقى بمجموعة بنها ...

- من هم ؟

- الشيخ وأحمد وعبيد وجمال .

- من هو عبيد ؟

- مدرس لغة إنجليزية بمدرسة بنها الإعدادية . ودائماً يسير معه «ووكمان» يضع سماعاته على أذنيه .

- أكمل .

- التقى بمجموعة بنها على حدة ، ثم بشوقي بمفرده ثم بمجموعة كلية الحقوق ، ثم بيحيى إبراهيم وبني ومعنا مجموعة كلية الآداب ، ثم أخبرنا بناجح وبقية أمانة الاتحاد ، واستطاع خلال هذه اللقاءات أن يصل إلى الصيغة التي اتفقنا عليها جميعاً .

- هل يمكنك القول إن فخر الدين كان قائد الحركة؟
- ليس بالضبط . الحقيقة أن كل واحد كان يحاول إقناع نفسه والآخرين أنه قائد الحركة ، لكن الحركة لم يكن لها قائد ، كان كل واحد مسئول عن مجموعة أو عضو في مجموعة ، وكان أي اتفاق لابد أن يحظى باتفاق المجموعات كلها . فخر الدين لم يكن له مجموعة محددة ، ولكنه كان دائما يساعد في التوصل إلى اتفاق بين المجموعات .
- هل هو إذن صاحب الاتفاق الخاص بتنظيم المظاهرات؟
- نعم . هو الذي وضع الصيغة التي اتفقنا عليها مثلما ذكرت .
- ما هي هذه الصيغة بالضبط؟
- أولا المظاهرة وتنظيمها : من أين ستخرج؟ وما هو مسارها؟ وما هي شعاراتها بالضبط؟ وكان الشيء الذي أصر عليه فخر الدين وساندته فيه مجموعة يحيى إبراهيم هو تجنب حشد عدد كبير من الطلبة ممن لا يؤمنون فعليا بمطالب اللجنة : لأن ذلك سيضعف الحركة ككل وسيضع قبولها على حرية حركتنا نحن كلجنة منظمة .
- ماذا تقصد بالطلبة غير المؤمنين بمطالب اللجنة؟
- أعني أنه عادة في هذه الأحوال يلجأ المنظمون إلى حشد أكبر عدد ممكن لإظهار قوة حركتهم ، ومن ثم يخترعون قصصا وحججا وهمية ويعدلون وعودا متعارضة لجلب أكبر عدد ممكن . فخر الدين ومجموعة يحيى كان رأيهم أن تكون مطالب الحركة محددة فقط بقضية حق الطلبة في التعبير الحر عن آرائهم دون تدخل من قبل الأساتذة أو الحرس ، وأنه حتى لو كان التأييد صغيرا في البداية فإنه سيكون قويا وسيجلب المزيد من المؤيدين بدلا من خلق حركة واسعة مهلهلة وفائضة على الأكاديم .

- وخطة التحرك؟

- خطة التحرك تتكون من نقطتين ، الأولى هي الاستيلاء على مطبعة الجامعة بمعنى دخول الطلبة إلى موقع المطبعة والاعتصام فيها بما يمنع تشغيلها ، والثانية هي احتلال برج الساعة وتعليق ميكروفون أعلاها لبث مطالب الحركة ، ولمراقبة حركة قوات الشرطة حول الحرم الجامعي .

ومن أقوال سيد أبو الخير في محضر الشرطة:

- 4 -

بدا تمثال طلعت حرب قريباً من شرفة حزب التجمع . كانت منى حمدي بالداخل مع ليلى السرجاني في اجتماع لجنة الحركة النسائية بصفتيهما المنسقتين بين اللجنة وبين طالبات الجامعة . ابتسم شوقي بنصف شفته وهو واقف بالشرفة :

- عندما تسمع منى وهي تتحدث بخيل إليك أنك تقرأ في كتاب من كتب نوال السعداوي ، ومهما تناقشها لا فائدة . هو نفس الكلام . كأنها لا تسمعك . الثقافة الفرنسية مع الأصول الأرستقراطية قضيا على دماغها تماماً .

كان الليل يتقدم وبدأ عمال النظافة في رش الماء في العيدان عند قدمي التمثال . تساءل أحمد في ضجر :

- أين ينتهوا الليلة؟ لقد تأخر الوقت وسيفوتني آخر قطارات بنها .
ضحك شوقي ونظر إلى منيب الذي كان يدخل في صمت . ثم أردف :
- أنا ليس لدي مكان أستطيع أن أبيتك فيه . ومنيب عنده ابن معه .

العل الوحيد أن ثبت عند سهير .

دفع منيب الكرسي بقدمه وهب واقفا في مواجهة شوقي :

- بلعن أبو أمك .

* * *

ركن طارق سياوته اللادا البيضاء بجوار الرصيف . أشار بيده إلى

فخر الدين . أطلق زجاج السيارة وفتح الباب ونزل :

- أهلا يا فخر الدين كيف الأحوال؟

تبادلا السلام ووقفا أمام مدخل الكلية . طارق بقميصه الأبيض مفتوح

الصدر قليلا . بنطلون رمادي غامق وحذاء لامع السواد . وضع مفاتيح

السيارة في جيبه ، ووضع يده على كتف فخر الدين :

- أمازلت رافضا أن تقتنع يا سيدي؟ يا بني دعك من مجموعة العيال

الملمومة حولك هذه . هؤلاء تلفيقيون وأفاقون . لماذا لا تأتي معنا الليلة؟

خائف؟ الليلة اجتماع عادي ، مفتوح وعائلي ، في مقهى ، أظن أنه لا توجد

علنية أكثر من ذلك! اسمع ! سأنتظرك في حدود السابعة مساء . أنت

عارف مقهى الستان في وسط البلد؟ لابد أن أذهب الآن لأن عندي ميعاد

في شيراتون الجزيرة . اتفقت؟ في السابعة بالضبط .

* * *

عبر فخر الدين ومنيب شريط الترماي وعرجا من شارع شعرا في إحدى

الحواري الضيقة المنشعبة على يمينه . أشعل منيب السيارة الأخيرة من

علبته الكيلوباترة ثم كور العلبة في توتر وألقى بها على الرصيف . توقف

هجأة والتفت إلى فخر الدين :

- معك جنيتها سلف؟

مفتل فخر الدين
أخرج فخر الدين النقود من جيبه وعدها ، جنبهان ونصف ، جذب منيب
الجنبيين واتجه مسرعاً إلى كشك السجائر المواجه وعاد ومعه علبة سجائر .
- البيت من هنا ،

شد فخر الدين يده على الحقيبة التي تحمل صور البيانات التي سيتم
توزيعها في المظاهرة ، كانت سهير هي التي ستدخل البيانات إلى الجامعة
في حقيبتها ؛ إذ كان الحرس عادة لا يفتش البنات ، لم يكن فخر الدين
يريد الذهاب إلى بيت سهير إلا أن شوقي أصر إصراراً غريباً على ذهابه
مع منيب في هذه المهمة ، فظن فخر الدين أن ذلك بدافع الفورة الممتدة
بين الاثنين وقرر الذهاب حقناً للمشاكل ، الشارع يضح بالحركة وبالأطفال
الذين يلعبون حول سيارة واقفة لصق الجدار الخلفي لأحد منازل الحارة ،
صبي صغير يطل برأسه من مكان النافذة الخلفية للسيارة في حين يتسلق
اثنان أخران سطح السيارة المحطمة ، قطرة تجري من تحت السيارة
وترتطم بقدم منيب الذي ينفضها وهو يمشيها بسيل من السباب .
- وصلنا .

قالها منيب وهو ينظر لفخر الدين ، قال فخر الدين :

- الساعة تقارب الحادية عشرة ، اطلع أنت بالحقيبة وسأنتظر هنا ،
شد منيب الحقيبة وانطلق في أحد المداخل الصغيرة ، عاد فخر الدين إلى
أول الحارة ووقف يرقب الأطفال المتعلقين حول السيارة المنهكة ، خمس
دقائق وعاد منيب مكفها .

- أعطيتها الأوراق ؟

لم يرد منيب بل نظر بعيداً ثم قال بلا اهتمام :

- أعطيتها الحقيبة ولكنها لم تفتحها .

نظر إليه فخرالدين غير فاهم . بلع منيب ريقه بصوت مسموع ونظر لفخرالدين ثم مر بنظrote إلى بحر الشارع .
- أحمد كان عندهما . لمحته ناظما على فراشها من فتحة الباب .

* * *

- ألم تعرف الأخبار؟

تسائل جمال وهو يهز رأسه الصغيرة بانفعال بين كفتيه الضيقتين
ويضحني أكثر بظهوره المقوس على فخرالدين :
- خيرا؟

- منيب ضرب شوقي كامل بالأمس أثناء الاجتماع التحضيري
للمظاهرة، وأقسم إما أن ينسحب شوقي من النادي وإما أن ينضج فطيمة
في بنها كلها ويحكي لكل كبير وصغير ما كان يحدث بينهما قبل أن يتركها
بعضهما . وأصل الموضوع أن شوقي كان قد عرف أن أحمد مع سهير في
بيتها فتعمد أن يرسل منيب بالبيانات لها في نفس الوقت - يوم أن ذهبتما
معاً - محمد الشيخ لما سمع التهديد طبعاً ارتعب لأنه عارف أن منيب
مجنون ويعملها . حاول تهدئته فلما فشل طلب هو الآخر من شوقي أن يخرج
من النادي وانضم إليهم أحمد . أما سهير وفطيمة فكانتا في حالة بكاء من
الأمس . بالمناسبة لماذا لم تحضر الاجتماع؟

أطرق فخرالدين . نظر لساعة الجامعة ، لم تكن تدق . لماذا كنت
تريدني أن أحضر؟ نظر إلى جمال ، كانت رأسه ما زالت تهتز بين كفتيه
الضيقتين . أطرق ولم يجب .

- بالمناسبة . الخميس القادم كتب كتاب الشيخ على فطيمة ، أئن تحضر؟

* * *

للمعلم الطلبة أوراقهم من على البعثات استعدادا للخروج من قاعة المحاضرات. نزل الدكتور سعيد أستاذ القانون الدستوري من على المنصة وأشار لفخرالدين أن يقترب . عبر فخرالدين صفوف المدرج إلى حيث يقف أستاذه .

- تعال إلى المكتب يا فخرالدين . أريدك في كلمتين .

في مكتب الدكتور سعيد كانت صورة رئيس الجمهورية تتوسط الجدار . على المكتب لافتة نحاسية صغيرة تحمل اسم الأستاذ وصفته . مقعدان جلديان فسيحان يجوار الجدار المقابل للمكتب . أشار الأستاذ لفخرالدين وهو يكمل محادثته التليفونية . من النافذة تبدو قبة الجامعة ومن حولها العوارض الخشبية والحبال التي يستخدمها عمال الترميم . على المكتب كوب ماء .

- اسمعني جيدا يا فخر . أنت طالب ممتاز وأنا أقدر مجهودك العلمي، بل وأقدر أيضًا مجهودك في النشاط الفني والمسرح وخلافه . ولعلك تذكر أنني أنا الذي توسطت لدى الدكتور يونس رائد الاتحاد عندما كانت هناك مشاكل حول النص . وتمكننا من خلال التعاون بيننا أن نحل هذه المشكلة . ولكنني في نفس الوقت ، وكأب ، أريد أن أنصحك . أنتم جميعا هنا كأولادي نتحن لسنا مجرد أساتذة بل أباء في المقام الأول ، ومهمتي كوكيل للكلية لشئون الطلبة أن أعني بكم جميعا . نحن هنا إذن كأ أسرة واحدة ، كالجسد الواحد إذا تدامس منه عضو تداعى له بقية الجسد بالسهر والحمى. أليس كذلك؟ حافظ الحديث أم أقوله لك؟

دق جرس التليفون فتوقف الدكتور سعيد وابتسم . رفع سماعة التليفون:

- آلو ، نعم يا فهدم .

عاد فخر الدين بنظرة إلى قبة الجامعة وأخذ يعد العوارض الخشبية المحيطة بها. واحد ، اثنين ، خمسة ، عشرة ، ...

- نعم يا بني ، ماذا كنت أقول؟ أه . كنت أقول إنه يجب عليك أن تفهم أمرين غاية في الأهمية ، الأول أن دراستك هي أهم شيء بالنسبة إليك وبالنسبة لنا ، وهي السبب الوحيد لوجودك هنا في الجامعة ، وبدونها لا يصبح لوجودك هنا مبرر . أما النشاط فمسألة تكميلية الهدف منها تهيئة جو لطيف ، لكن يجب ألا تطفئ أبداً على الدراسة .
- لو سمحت يا دكتور .

جاء صوت فخر الدين مبحوحاً من طول الصمت . قاطعه الدكتور :
- اسمع يا بني . أنا أعلم تماماً كل ما ستقوله . أعلمه كلمة كلمة . أنا أريدك أنت أن تسمع . الأمر الثاني المهم الذي كنت أحدثك عنه هو أنه شيء لطيف جداً أن يكون عندك أفكار . أفكار من أي نوع ، فهذه علامة على النضج الفكري للطالب . لكن حذار ، حذار من الخلط بين الواقع وبين الأفكار . الأفكار مكانها الكتب ، الذهن ، أما الواقع فمكانه من حولك وهو الذي تعيش فيه . هذا الواقع ليس صدفة وليس لعبة . أنت تستطيع أن تعجب بأي أفكار تخطر لك على بال ، وأن تغير هذه الأفكار ثاني يوم ، أما الواقع فهو موضوع لا يخضع لهذه المسائل .

باختصار المجموعة التي التأمّت معها هذه مجموعة ضارة ومفسدة ويمكن تضرر مستقبلك . أنا أعلم جيداً أنك بريء وأنهم ضحكوا على عقلك بالكلمتين الفارغتين إياهم عن الحرية والتقدم ... إلخ . طبعاً نحن جميعاً نؤيد الحرية والتقدم ، ونحن جميعاً نعبد ربنا ونعرف ديننا ، ونحن جميعاً ضد الاستغلال . ولكن المهم ألا نقع ضحية للإغراءات والأفكار المستوردة

التي لا تتفق مع الواقع مثلما قلت لك . أنت طبعا فاهم ما أعني . أنا أعلم إنك ذكي ، وأنهم إذا كانوا قد نجحوا في التأثير عليك فإنك شجاع وقادر على أن تقف مع نفسك وقفة صدق وتعرف أن مستقبلك في كفة وهذا الكلام الفارغ في كفة ، وأن ساعة الجدل تجد واحدا من هؤلاء العيال بجانبك . سمعت الدكتور سعيد لحظة . تناول رشفة من كوب الماء الموضوع أمامه ونظر إلى فخر الدين متجهما :

- لقد وصلني عنك كلام سيئ . وكان هناك اتجاه لإيذاك . لكني قلت لا . أنا أعرف فخر الدين جيدا . دعوه لي وسوف أفهمه . أنت تفهم قصدي طبعا . أنا أعلم أن نيتك حسنة ، لكن تصرفاتك هي التي وضعتك في هذا الموقف . اسمع يا فخر الدين . لا بد أن تعلم أننا هنا جميعا نعمل من أجل مصلحة البلد . نعمل بنضج وبإدراك للمسئوليات المطلقة على عاتقنا وللواقع المحيط بنا . الواقع ليس سهلا يا بني . الواقع معقد جدا ومرير ، فلا تستسلم للتهور الذي ينساق إليه عيال النادي وغيرهم سواء أكانوا من الشيوعيين أم من الإسلامية أم غيره ، كلهم واحد ، وكلهم مريض فلا تضيع نفسك معهم . أنت شاب ممتاز . هذا تحذير أبوي يا فخر الدين ، والجامعة قادرة - وبالقانون - على اتخاذ إجراءات قاسية جدا ممكن تقضي على مستقبلك تماما . ها؟ فاهم ماذا أقصد؟

ران سمعت قصير قطعه دق على الباب . انفتح الباب فتحة صغيرة وأطلت رأس المقدم ماهر :

- لا مؤاخذه يا دكتور ، لم أكن أعلم أن لديك ضيقا .
- لا لا يا سيادة المقدم . تفضل . لقد انتهينا من موضوعنا .

«حبيبتي لبنى»

يا من كأنها أنا . يا من أمد شق نفسي فتلمسها فتلتثم وتصير روحا واحدة تخفق بحب وحنو وعطف وشوق وارتواء لانهاشي وامتلاك وانفصال عن هذا العالم وطيران وسحب وأنهار وأشجار وفضة وبنابيع من ماء رائق يخرج من يدك وشمس تسدل من عينيك أشعتها فتغسل روحي وتطهرها وتفتح قلبي وتدهته وتطرد البرد عنه .

يا من كأنها أنا . هل أقول أحبك؟ هل تكفي الكلمة؟ هل تكفي هذه الحروف لتحمل إليك ما بقلبي؟ أنت التي هدأت عندها روحي بعد نيه . واستقرت ببابها سفني بعد طول إبحار . أقول لك أنا أحبك . اغمسي بدمي زهورك وانثريها . وأنا أحبك . كم أحبك .

اليوم يوم رائق وجميل . تسلمت بعصورتك وخرجت في الصباح . قابلت شوقي والزملاء ورأيت الصدع بينهم . وتقترب الآن مما كنا نود أن نفعل . من أجلي . من أجلك أنت . ومن أجلنا معا . اليوم وغدا .

«من أوراق فخر الدين»

* * *

النيل يتدفق في جلال يسيطر على ليل بنها . الظلام لا يفلح في إخفاء هذا القوي الذي يملأ المكان بوجوده وبأواجه المدببة القصيرة الانكسارات . يرسم الكورنيش هامشاً كأنه ينتظر السماح من النيل للمرور على جنبه . أضواء الصفراء المتباعدة تفضح مقاطع من جمال النهر البري . محمد الشيخ يسير متمهلاً بجوار فخر الدين . كان فخر الدين يشعر بشيء يشده إليه . لا يعرف ماذا بالضبط . هل هي وسامته وابتسامته وظرفته؟ هل هي بساطته المتناهية وقربه؟ هل هي مهنته كمحام والتي جعلت فخر الدين

يتطلع إليه كمستقبله؟ لا يعرف ، لكنه كان سعيدا عندما تلقى دعوة محمد للمجيء إلى بنها وقضاء ليلة فيها . كانت هذه فرصة أيضًا للتعرف أكثر على عبيد ، ذلك المتمرّد العايب الساخر الذي لم يفهمه فخرالدين أبدًا . وكانت فرصة لإعادة بناء الجسور بين أعضاء النادي واللجنة وإنهاء الخلافات بينهم . أفاق فخرالدين من أفكاره على صوت محمد الشيخ وهو يعلو بالضحكات . نظر إليه محمد ثم شبك ذراعه في ذراع فخرالدين واستمرسل في الحديث عن النيل وجماليته وبريقه في بنها .

- الأمر الذي يختلف كثيرا عن النيل القاهري المحاط بالكباري والنوادي وشرطة الآداب . كان أبي يحب النيل كثيرا وهو الذي علمني حبه وغرسه في نفسي . لم يكن عامدا بالطبع ، لكنني كبرت على تمشيات أبي على النيل وأعجابه به . كانت هذه أجمل الأيام . ومن ثم ورثت هذا الحب كشيء مسلم به .

صمت محمد وقطب حاجبيه :

- والكره أيضًا .

تساءل فخرالدين في دهشة :

- كيف يمكن أن يكون الكره مسلمًا به ؟

تقلصت عروق في رغبة محمد الشيخ وهو يستطرد :

- عندما يدق باب بيتكم الخشبي في فجر يوم عادي ككل الأيام . ويهرول أبوك بلمبة الجاز في يده ناحية الباب وتتوارى أمك خلف الباب . وتمسك أنت الكبير الصغير بتلابيب إخوتك الصغار المفزوعين . وينفتح الباب ليدخل منه أفواج من العساكر بملابسهم السوداء والمخبرين بشواربهم وجلابيبهم المزيفة ، هؤلاء الذين عشت حياتك تبتمد عنهم إذا ما لقيتهم

في الطريق من فرط شرمهم ، يدخلون جميعاً إلى قلب بيتك ويدوسون كل شبر فيه ، كل شبر تنتهكه أذيتهم الثقيلة المحملة بالعطين وبالسلطة التي لا قاهر لها ، ويخرجون بعد أن يعضوا ببيتك الذي كان قنعة أمنك ومستورك ويأخذون معهم أباك رب البيت ومعنى الأسرة والطمانينة ومصدر قوتك واحتمالك من الدنيا ، أباك حامي الحمى والظهر الذي كنت تختبئ فيه وتلجأ إليه من انتقام أطفال الحارة ، أباك اليد الكبيرة الخشنة التي كنت تتعلق فيها فتسلم لها نفسك في سكبنة وامبئنان لا حد لهما ، يسحبونه أمامك على الأرض ويأخذونه في ظلمة ليهمم القابع خلف الباب الذي لم يعد يفلق عليك أبداً ولا تراه مرة ثانية .

- ألم تعرف أبداً أين ذهب؟

- قالوا لنا فيما بعد إنه رُحِّل لسجن القلعة ثم لا أدري أين . ولكن اسمه مسجل دخول في سجلات سجن القلعة الحربي مع بقية أعضاء الإخوان المسلمين الذين تم اعتقالهم أيامها ، وغير مسجل في كشوف الترحيل أو الخروج ، ولا توجد معلومات أكثر من ذلك . مسح محمد الشيخ وجهه بكف يده واجتهد في الابتسام قليلاً . ثم استطرد حاكها لفخر الدين عن الإخوان المسلمين وعن حياة أبيه المعطرة بالإيمان والصلاح والسيرة الطيبة ، وكيف كان يقول دائماً ، إن الإسلام دين المستضعفين في الأرض وثورة المستقيل وأمل الفقراء . حكى محمد كثيراً عن أبيه وعنه هو أيام كان في الجامعة أثناء مظاهرات 1971م وكيف احتلوا الجامعة والمطبعة وأجبروا السلطة على التراجع . وأنه بنفس المنطق يجد من الضروري الآن تجميع كل القوى بغض النظر عن اختلافاتها من خلال اللجنة للعمل على إخراج الحرم من الجامعة وعودة حرية التعبير للطلبة.

* * *

حجرة صغيرة بيضاء الجدران . شباك خشبي واسع وأخضر اللون . على حافة الشباك باب وعلبة كهربيت . على المكتب الإيديال الرمادي القابع أمام النافذة جهاز تسجيل وشرائط عديدة ملقاة على سطح المكتب . من خلفه مكتبة خشبية تكدست فوقها أكوام من شرائط التسجيل وعدد من الكتب . سرير معدني معد بعناية أم ومفروش عليه ملءة بيضاء ذات خطوط خضراء عريضة . من النافذة يمتد شارع ضيق مؤد إلى النيل .

- ما هذه الرفاهية يا عبید؟ ساكن على النيل؟

ابسم عبید ومد يده ليمس صوت البيلتز الآتي من التسجيل .

- هل جريت البايبي؟

- جريته ولم يعجبني .

ضحك عبید وهز كتفيه :

- أنعرف ما هو أحسن شيء في الدنيا؟ ال «بيلتز» ، يلي ذلك ال «سوبر

ترامب» . اسمع هذه الأغنية مثلا ، كلماتها تقول : «عندما كنت صغيرا لم

أكن أحتاج إلى أحد ، ولكن هذه الأيام ولت» .

توقف عبید فجأة ونظر إلى فخر الدين متساثلا :

- هل قابلت محمد الشيخ؟

- نعم ، بالأمس .

عاد عبید برأسه إلى جهاز التسجيل وأخذ يعبت ببعض الشرائط . ثم

قال بهدوء :

- إذن احترم منه . محمد مباحث .

قال لي يحيى إبراهيم :

- وعبد الصمد هذا كلب من كلاب إمبابة . وهو أحد القاذورات التي جرها علينا شوقي كامل إذ عرفنا عليه باعتباره صديقه . وهذا الشخص خريج تجارة ورث عن أبيه ورشة تصنع التواييت وخشب نقل الموتى وخلافه . ويبدو أن مهنته طبعت روحه بكآبتها . وهو له من الثقافة حظ لا أدري من أي صوب أتاه . وكنت أعتقد أنه شيوعي وإن كنت أشك في أن يكون له أية معتقدات بالمرّة . وقد بدلت المشاكل سريعا بعد ظهوره ، فبدأ بالذم لفخر الدين في شوقي ، إلا أن فخر الدين غضب وقال له إنه لا يحب ذلك أبداً وواجهه بشوقي مباشرة . إلا أنه استمر بعد ذلك في الذم في شوقي لآخرين في الوقت الذي كان مستمرا في ادعاء صداقته . بعد ذلك بدأ في ملاحقة لبنى مستغلا براءتها في الواقعة بينها وبين شوقي أولاً ثم في الواقعة بينها وبين فخر الدين . وكان له ما أراد في النهاية . لعنة الله عليه ، كان من بين الطعنات التي فضت على فخر الدين .

- ألم تنقبه لبنى لما كان يحدث؟

- لا أعلم إن كانت قد أدركت أم لا . في الحقيقة أنا لم أفهم أبداً كيف تخلت لبنى عنه بهذا الشكل .

- وأنت؟ ألم تلاحظ شيئاً من البداية؟

- الحقيقة أنني كنت متفبها هذه الفترة عن الجامعة . كانت إجازة نصف العام قد بدأت وكنت قد عدت لقضاءها في قويسنا .

- ماذا كنت تفعل في قويسنا؟

أطرق يحيى إبراهيم لحظات يفكر ثم نظر إلي من خلف نظارته
السميكة وقال :
- لا أذكر .

- 6 -

- البروفة في قاعة 2 يا لبنى .
التفت لبنى إلى فخر الدين :
- حاضر سأتي حالا .
وأكملت حديثها مع عبد الصمد .
بدأ فخر الدين المشهد . أوقفه مراد الدسوقي :
- واحدة بواحدة ، نحن ما زلنا في البداية ولا داعي للعجلة . أنت يا
وحيد ، ما هو مشأحك؟
- القمر يا مريم .
- إذن لما فخر الدين يقول كلمة مريم تدخل أنت من العمق . بالضبط من
عندك هنا ، تبدأ جملة مع أول خطوة وليس عندما تصل لهدى . أوكيه؟
أعاد فخر الدين المشهد . قال :
- ولكن أين ذهب القمر يا مريم ؟
انفتح باب القاعة ودخلت لبنى وعبد الصمد . التفت الجميع إليهما .
خبط مراد الدسوقي على البنش الخشبي وقال :
- ما الحكاية يا لبنى؟ بطلت التمثيل وسكتنا . ممكن تسمح لي لنا نعمل؟
- أسفة ، اتفضلوا كلوا . لم أكن أعرف أنكم بدأتم بالفعل في البروفة .
عاد فخر الدين للخلف . ماتت لبنى على أذن عبد الصمد وهمست فيها

ونبادلا ضحكة . توتر فخر الدين قليلا وعلا صوته :

- الصوت في القاعة من فضلكم .

كحت لبنى :

- أسفين ، ممكن نمشي إذا حببتم .

لم يرد أحد . تقدم فخر الدين :

- ولكن أين ذهب القمر يا مريم ؟

دخل وحيد زاعقا في نفس اللحظة التي انفتح فيها الباب محدثا أزيزا حادا وأطلت من فتحته رأس شوقي . نظر الجميع إليه ، وخبط مراد على البنش في استسلام :

- أوكيه يا جماعة ، استراحة .

نزل فخر الدين من على المنصة واتجه إلى حيث تجلس لبنى وانضم لهم شوقي الذي جلس بجوار لبنى من الناحية الأخرى . وقف فخر الدين أمامهم في المنتصف أمام لبنى . ابتسم شوقي ومد يده إلى كشكول لبنى وسحب من أمامها . تصفحه بسرعة وهو يسألها :

- ما هي أخبارك ؟

- ماشي الحال .

نظر عبد الصمد إلى فخر الدين وقال :

- هناك مسرحية ممتازة الليلة في المسرح الحديث ، تحب تشوفها ؟

نظر فخر الدين إلى لبنى التي تفادت نظره . تمتع في ضيق :

- لا ، لا أعتقد .

نظر عبد الصمد إلى شوقي متسائلا . أجاب شوقي على الفور :

- طبعا أحب .

انتقل بنظرته إلى لبنى :

- ها يا لبنى ، المسرحية الساعة 8 ما رأيك ؟

ردت لبنى :

- موافقة ، سأكون موجودة أمام المسرح .

* * *

مسح فخر الدين جيبه بيده محارلاً فك التوترا الذي يعتريه منذ الصباح .
الساعة الآن الخامسة ، والعرض المسرحي يبدأ في الثامنة ، وفي قلبه وجع حقيقي .

- فخر الدين ، من فضلك ادخل غرفة الملابس واستعد للماكياج .

- هل وصل صلاح ؟

- لا ، لم يصل بعد ، ادخل غرفة الملابس وانتظره بالداخل حتى يصل
ويعمل الماكياج .

دخل فخر الدين إلى غرفة الملابس . على الجدران بقايا أسماء مطلية
سابقين قدموا عروضاً في مهرجانات سابقة ونقشوا أسماءهم على
الحائط . جلس فخر الدين على الدكة الخشبية وأراح رأسه فوق ساعده ،
انفتح الباب ودخلت هدى .

- مساء الخير يا فخر الدين ، مستعد ؟

أوما فخر الدين برأسه وسأل :

- ألم ترى لبنى ؟

- لا ، ممكن تراجع النص بسرعة ؟

بدأت هدى المراجعة من الفصل الأول . توقفت .

- لا ، أرجوك . الدور محتاج انفعال أكثر من ذلك ، أنت غائب تماماً ،
مشاعر يا أستاذ ، مشاعر لو سمحتا
- آسف ، نبدأ من جديد .

* * *

- مد صلاح يده أسفل عيني فخر الدين :
- لا ترمش .
رقته مراد بنظرة نظام . ابتسم فخر الدين في وهن . استكمل صلاح
لمساته في جفن فخر الدين . أعادت هدى تأمل وجهها في المرأة المثبتة
بالحائط . انفتح الباب ودخل محمد :
- يا جماعة ، بسرعة أكثر من ذلك ، لجنة التحكيم على وشك الوصول .
- آه ، يا محمد ، انتهى وصلت ؟
تبادل محمد ومراد نظرة . رد محمد :
- لا ، لم تصل بعد .
بلع فخر الدين ريقه بصموية . تقلصت عضلات وجهه في يد صلاح .
- لا أرجوك ثبت عضلات وجهك .
تهدد فخر الدين وهو يكتم شفا يبدأ في قلبه :
- حاضر ، حاضر .
فتح مراد الباب والتفت لصلاح :
- باق كثير ؟
- أمامي خمس دقائق بالضبط .
همس فخر الدين وهو يحاول أن يكون صوته طبيعياً قدر الإمكان :
- من فضلك يا مراد تحجز كرسي في أول صف على اليمين .

ضفط على لسانه واستطرد :

- باسم ابني .

- حاضرا

قالها مقتضبا وصفق الباب وراءه . أكمل صلاح عمله ، أنهى تصفيف الشعر وتثبيتته ، ابتعد قليلا لينظر لوجه فخر الدين :

يا نهار اسود! شكلك قبيح! يا بني المفروض شكلك يكون شكل شاب سعيد مقبل على لقاء حبيبته ، أنت شكلك ميت! أعطيني بودة حمراء يا هدى من فضلك . ابتسم ، ابتسم يا حبيبي من فضلك!

الثامنة إلا خمس دقائق . هرولة مراد ومحمد وبقية طاقم الإدارة المسرحية لا تقطع . فخر الدين يتبادل مع هدى مراجعة النص والحركة في غرفة الملابس . صوت مراد يصل إليهما وهو يجري اختبارات الإضاءة النهائية . الموسيقى التمهيدية بدأت تملأ في الصالة . أغلق محمد باب الغرفة المؤدي للصالة . ووقف مراد عند أول الكواليس :

- كل شيء جاهز ، سنبدأ .

وقف فخر الدين حاملا وزود الحمراء عند مدخل خشبة المسرح . موسيقى «مون أمور» تملأ رويدا رويدا مع انفتاح الستار . رموس المتفرجين تبدو شاحبة وصغيرة وكثيفة . أضواء «البروجكتور» تملأ عيني فخر الدين . في الصف الأول في الصالة ، على أقصى اليمين ، لمح فخر الدين مقعدا خاويا ، على ظهره نُثبت ورقة بيضاء .

ابتسم شوقي كامل في وجهي بنصف شفته ، وأردف :
- ياه ، لقد ذكرتني بأجمل الأيام ، رحمه الله . كان قلبي ضعيفا ونفسي
حساسة أكثر من اللازم . لم يحتمل الصدمة وراح فيها . لو كان تحمل
قليلا وبلغ الموضوع كان هضمه مع الوقت . كان تمود وعاش وأصبح مثلنا .
كلنا قابلنا مشاكل وصدمات لكن استطعنا أن نتكيف معها . خسارة ، راحت
حياته بلا جدوى .

...

- طبعا كنا أصدقاء مقربين جدا ، وأنا أذكر جيدا ليلة وفاته .
بعد المسرحية مباشرة كان في حالة غير طبيعية لكنني ظننت أنه
الإرهاق من العمل والتوتر في الأيام الثلاثة الأخيرة . كان يشعر بدوخة وبأن
ظهره يخبط في صدره من حين لآخر ويضايق نفسه ، وكان يترنح قليلا
فشدته حتى وصلنا غرفته بالمدينة الجامعية . تركني في الغرفة وراح دورة
المياه . لما تأخر خرجت لأرى أين هو فوجدته ملقى على الأرض في الصالة
الرئيسية أمام الباب . جريت ناديت المشرف الذي استدعى الإسعاف
بسرعة ونقلوه إلى مستشفى الطلبة . لكن الهبوط الذي أصابه كان حادا
جدا لدرجة توقف معها وصول الدم للمخ وهو في سيارة الإسعاف . وعندما
وصل للمستشفى كان الموضوع انتهى . رحمه الله ، كان ممدا بجوارتي وكنت
أرى وجهه . ويومها بكيت ، وظللت أقول له : لماذا يا فخر الدين ، لماذا يا
بني ، هل يموت أحد من أجل فتاة تركته؟ يا بني اعقل ، يا بني ارجع . لكن
طبعا كان كلامي هو الجنون بعينه : لأن الموضوع كان انتهى . الله يرحمه .

مقتل فخر الدين -
كان صديقًا وشابًا معتازًا ، لكنه كان هشًا زيادة عن اللزوم وكان مثالًا
أيضًا زيادة عن الممكن. تصور أنه أحب البنت لدرجة أنه وضع عليها كل
أحلامه وحياته؟ وضعها عليها فعلا وليس بالكلام ، وكم حذرته من ذلك .
ولذا لم يحتمل الصدمة عندما تركته ، الله يرحمه ، لم تكن له هذه الدنيا .
* * *

- كان اليوم عاصفا ، بدأت المظاهرة عند سلم كلية الحقوق أمام مكتب
حرس الجامعة ، وكان غضب الله ياديا على وجه المقدم ماهر قائد الحرس .
وانتفت المظاهرة عند تحريكها بمظاهرة أخرى قادمة من عند كلية الآداب
وسارت باتجاه كلية السياسة والاقتصاد والإعلام حيث انضمت أعداد جديدة
لها ، وتجمعت أمام كلية التجارة حيث وقعت أولى المصادمات بين الطلبة
 وإدارة الجامعة ؛ إذ صفع عميد الكلية قائد المظاهرة على وجهه وشتم بقية
الطلبة المشتركين في المظاهرة ناعًا إياهم بأنفاظ يحول قانون الآداب
العامة دون ذكرها ، فهجم عليه الطلبة وضربوه بالجزم ولم ينقذه سوى
عساكر الأمن الذين أخذوه في سيارة الشرطة ، النصف نقله إلى خارج
الجامعة . وعند الظهيرة كان فخر الدين قد تولى قيادة المظاهرة ومر بها
إلى كليات العلوم والآثار ودار العلوم ثم عاد بها وتجمع كافة الطلبة أمام
القية . كانت الساعة تقترب من الواحدة ظهرا والتهافتات ما زالت مستمرة.
وكان فخر الدين قد ترك قيادة المظاهرة بعد أن شكل الطلاب لجنة لمقابلة
رئيس الجامعة فأثر ألا يكون من ضمنها ، وتوجه للامتحان على سير

الأحوال . وكانت الأمور حتى ذلك الوقت تسير على ما يرام ، فبحلول الثانية ظهرا كان علم اتحاد الطلبة يرتفع فوق برج الساعة التي أخذت تدق دقات متواصلة إيدانا باستيلاء الطلبة عليها ، ووقعت المطبعة أيضًا تحت سيطرة الطلبة وغادرها العمال في هدوء ، ولما رأى رجال الحرس أن الوضع قد تأزم تحصنوا بمكائهم ولم يغادروها وظلوا طوال الوقت يتبادلون المكالمات التليفونية مع وزارة الداخلية . وعند الثالثة ظهرا كانت تعزيزات من قوات الأمن قد وصلت وانتشرت بطول شارعي الجامعة وثروت . وكان الطلبة قد ثبتوا بالفعل ميكروفونا أعلى البرج وبدءوا يذيعون منه الأغاني والبيانات .

- وأين كان فخر الدين؟

- كان ينتقل بين الكليات ، وحوالي الساعة الرابعة قابل أول مرة مجموعة الفتيات الآتيات من كلية دار العلوم واللواتي أخبرنه أنهن قد خرجن في المظاهرة ، لأنهن قد سمعن أن ضابطا بالحرس قد اعتدى على إحدى الطالبات ، وقد فزع فخر الدين لما سمع بهذا ، ولما استقصى الأمر تأكد من أن هذه القصة الوهمية منتشرة بين كل طلبة وطالبات دار العلوم وبدأ يحس رائحة خيانة مجموعة دار العلوم للاتفاق الذي توصلوا إليه في اللجنة . وعندما قابل كوادز الجماعات الإسلامية وأخبروه أن الشيخ قد اتفق معهم على تضمين مطالب الحركة فرض الزبي الإسلامي بالجامعة تأكد لديه إحساسه ، وقد أصابه ذلك بغضب شديد فمطلق يبحث عن أعضاء اللجنة ، ووجد الشيخ ومنيب هي المطبعة يتشاجران حول البيانات التي سيطلبونها ؛ إذ كان الشيخ مضطرا على حد قوله لتمرير بعض البيانات التي أعدها

مقتل فخر الدين -
شباب الجماعات الإسلامية ، وتطور الأمر إلى الصدام بين أعضاء اللجنة
وكوادر الجماعات الذين استخدموا الجنازير في إنهاء الخنافة وانتهى
الأمر باستيلائهم على المطبعة كاملة وطرد الباقين منها.
في نفس الوقت كان شباب النادي قد أحكموا قبضتهم على برج الساعة
وبدءوا يذيعون أغاني الشيخ إمام .

وبحلول الخامسة كان طلبة دار علوم قد أدركوا أنه لا يوجد ضابط ولا
طالبة ولا اعتداء فبدءوا في الخروج من الجامعة .

- وهل ظل فخر الدين في المظاهرة أم خرج ؟

- عندما التقيت بفخر الدين كان حزينا للغاية ويكاد الدمع يفر من
عينيه وقال لي :

ما العمل مع هؤلاء الهمج ؟ كل ما اتفقنا عليه غيروه وبدلوه وفعلوا مثل
من كنا نعارضهم .

وكان يريد الخروج من الجامعة وترك المظاهرة ولا يقدر ، ويريد البقاء
فيها ولا يقوى ، وظل في هذه الحالة حتى اقتحمت قوات الأمن الحرم
الجامعي عند منتصف الليل واعتقلته فيمن اعتقلت .

من أقوال سيد أبو الخير ،

في محضر الشرطة

الساعة تشير إلى الواحدة صباحاً . لم يبق سوى ساعتين على صلاة
الفجر . لعلم فخرالدين نفسه في نفسه وهو يلتصق بجدار جامع صلاح
الدين . الأرض العشبية في حديقة الجامع مبللة ولكنها أكثر دفئاً من
سلم الجامع الرخامي . موضع الإصابة في كتفه ينز ألماً . وضع ساعده
تحت رأسه وغاب شيئاً فشيئاً في بحر البرد اللاسع ووجع الإصابة ونخر
العظام من الانثناء في البرد . مدد جسده كله على الفراش الأبيض الوثير
وسحب العلاء البيضاء على جسده . التدفئة في الغرفة تداعب النوم
وتغايه . مرت الممرضة أمامه وانحنى على وجهه بابتسامتها الحنونة
والكأب الأبيض على رأسها . سحبت الغطاء على فخرالدين وربت على
رأسه وأغلقت الضوء الخافت والباب خلفها . دوى صوت المؤذن فجأة فشق
الصمت وفضاء الغرفة والعلاء والحلم وجسد فخرالدين المتيبس من
البرد . قام للمسجد فغمره دفء الجامع حين دخل وأغراء بالتمدد فوراً على
هذا السجاد الأخضر الكثيف . اتجه للمراحيض وشعر ساعديه لهتواضاً .

- تقبل الله .

- تقبل الله منا ومنك .

انسحب فخرالدين للوراء وانكمش بجوار أحد الأعمدة . الإصابة في
كتفه خفيفة . طلقة رش ليس أكثر . لكنها مؤلمة . خرج المصلون تواتراً ولم
يبق سواه وسقف الجامع العظيم الزخارف والقباب والاحتواء .

- هيا يا بني .

زعم الرجل الواقف قرب الباب .

- سأجلس قليلا هنا يا عم .

- الجامع سيفلق يا بني . هيا .

اقترب فخرالدين من الرجل . ضئيل الجسم ، في الخمسينيات من عمره ، يرتدي بدلة زرقاء كعمال السكك الحديدية ، وجهه نحيل يبين فيه الصدقان .

- سأظل هنا للصباح يا حاج فليس لي مكان آخر أبيت فيه .

- ممنوع يا بني . الجامع سيفلق .

* * *

شارع القصر اعينني خاو على عروشه . ذهبت السيارات والأوتوبيسات والدخان ومطاعم الفول . مر فخرالدين أمام دار الحكمة . جلس على سلالمة قليلا . يخشى العودة للمدينة الجامعية الآن . لا بد أن رجال الأمن ينتظرونه هناك . مر أمام مبنى الحزب الوطني ودار الشعب وروز اليوسف ومحطة بنزين التعاون . مر أمام المسرح الحديث والبنوك الأجنبية . كل الأبواب والنوافذ مغلقة والأنوار مطفأة . خرج على ميدان سيمون بوليفار وشق الطريق عائدا من جاردن سيتي . المنازل العتيقة مَلَأَى بالأبناء والأمهات وغرف النوم الدافئة . أضواء خافتة ومتناثرة هي أدوار متباعدة تؤكد حقيقة وجود هذه المنازل واحتوائها على حيوات محتواة ومدفنة . بدايات ضوء النهار توجع العين وتزيد الصداع تمكنا من الرأس والألم نغرا في الكتف . لحم الجسم يتفتت إلى قطع صغيرة لا نهائية تشتاق إلى الضم والاستراحة . لا ، لا أحد .

* * *

دفع فخرالدين الباب الحديدي الأخضر ودخل . سيارات الإسعاف القديمة تقف مطفاة الأنوار في قناء مستشفى الطلبة . تقدم إلى شباك الاستقبال . لم يكن أحد هناك . انتظر قليلا ثم بدأ ينادي . ظهر من خلف الحاجز وجه مستيقظ من النوم لثوه . نظر فخرالدين إليه : كان وجهه نحيفا بيبين فيه الصدغان ، ضئيل الجسم ، في الخمسينات من عمره ، يرتدي بدلة زرقاء كعمال السكك الحديدية . نظر إلى كتفه ثم إليه وقال بارتباب :

- أي خدمة؟

تقدمت سيارة الشرطة والتصف نقله في شارع الزيات حتى نهايته ثم استدارت يمينا في شارع التحرير ومضت في هدأة الصبح في اتجاه ميدان الدقي . قبل الميدان انحرفت السيارة يمينا ومركت من شارع السبكي للشارع المجاور . اجتازت حاجزا وتوقفت . نزل منها فخرالدين يصعبه رجلان . صعدا السلم الرخامي لمبنى مباحث أمن الدولة ودخلوا من الباب . أعشى عينيه الضوء الأبيض الباهر الذي يملأ الصالة . توقف الرجلان وقال أحدهما :

- لحظة من فضلك .

غاب الرجل وتركه واقفا بالصالة وحده . عاد بعد دقائق :

- تفضل استرح .

جلس فخرالدين على أحد المقاعد الجلدية السوداء . المقعد شديد البرودة . غاص به محدثا صوتا من خروج الهواء منه . الصالة بيضاء الجدران . لا صوت . مرت ربع ساعة ثم عاد الرجل وقاده إلى ممر هادئ الإضاءة قليلا . سجادة حمراء رسمية تمتد على الممر وتمتص أصوات

الخطوات . فتح الرجل بابا في نهاية الممر وضغط على زر النور وأشار لفخرالدين بالدخول . دخل . جذب الرجل الباب فأغلقه وتلك المفاتيح تكتين في القفل .

الغرفة خالية . كرسي خشب في أحد الأركان . نافذة مغلقة . لوحة زيتية وساعة معلقان على الحائط . الحوائط بيضاء . الأرض مغطاة بموكيت أخضر . مصباح نيون أبيض قوي في السقف بزّن طوال الوقت . مقعدان جلديان متباعدان بجوار أحد الجدران . لا أحد في الغرفة . جلس فخرالدين على أحد المقاعد .

نظر فخرالدين في الساعة : الثامنة . الساعة تحدث تكات مسموعة . عقرب الثواني يمر ثانية بثانية . تربص فخرالدين بعقرب الدقائق حتى رأي يتحرك . دقيقة . دقيقتين . ثلاث دقائق . كتفه يؤلمه .

نظر فخرالدين في الساعة : العاشرة . كتفه يؤلمه .

انفتح الباب في الثانية عشرة . أطل رجل بدين مربع الوجه ذو نظارة . قال :

- فخرالدين عيسى هاشم ؟

- نعم .

- استرح قليلا .

وأغلق الباب قبل أن يسمع ردا .

في الواحدة ظهرا . كان الألم في كتفه عميقا ويمتعه من التركيز .

جذب المقعد الجلدي الآخر بجوار مقعده وتمدد فوقهما . الجو بارد . انفتح الباب ودخل محمد الشيخ وشوقي وسهير ومنيب وأحمد ومنى حمدي ويلي السرجاني وعبيد وجمال وخطيمة والمخرج المشهور أحمد مراد والفنان إبراهيم عوض وطارق بسيارته البيضاء وأستاذ القانون الدستوري ممسكا

ببيانات النادي ، ومراد يفتش الصالة بحثا عن لبنى ، ويحيى إبراهيم
 يمسح نظارته ، والسيد أبو الخير يتسعم وعبد الصمد يمسك بتابوت مبتلى
 بزجاجات بيرة وبدءوا جميعا في الشرب . خلعت مهير ملابسها ووقفت
 ترقص بساقها السمر النحيلتين بينما أخذت منى وإيلي تتبادلان قبلات
 محمومة بجوار المقعد الجلدي . محمد الشيخ قفز إلى العائط والتصق
 باللوحة الزيتية وأخذ يخطب على منبر جامع السلطان حسن . شوقي
 يجذب فطيمة من ذراعها وهي تمد يدها لتلمح على صدر فخرالدين .
 صوت صلاح الدين يردد في التلفزيون : أن للفارس عيسى أن ينصرف
 أن للفارس عيسى أن ينصرف ولويزا تنادي : عيسى . يحيى يحمل حقيبته
 الجلدية ويخرج مودعا إلى قوسنا ، السيد أبو الخير يتسعم للمخرج أحمد
 مراد وهو ينسحب منحنيا ، الجو يختنق بأنفاس فطيمة الراضة على صدر
 فخرالدين وشوقي يجذبها بلا فائدة . طارق يتودع سيارته البيضاء في أرض
 طابور المدرسة ويكسر الإشارات ، صوت محمد الشيخ يعلو من فوق المنبر
 مناديا فخرالدين والسيد أبو الخير ينحني مبتهما ، رأس جمال الصغيرة
 تهتز بانفعال بين كتفيه الضيقين وهو يرقب سهير وهي ترقص بين أحمد
 ومنيب وشوقي . تصاعدت حركات عبيد المجذوبة وهو يرقص على أنغام لا
 يسمعا سواه . ناصر يحمل حقيبته الجلدية ويخرج مودعا إلى أرض المطار
 الجديد ، يتسعم للصورة الفوتوغرافية في شهادة الجي سي إيه ، ابتسامة
 فطيمة تتسع وهي تقرب وجهها من وجه فخرالدين وأنفاسها تخنقه ، صوت
 الشيخ يعلو وهو ينادي : فخرالدين ، يا فخرالدين ، ابتسامة فطيمة تتسع
 وتتسع ، ابتسامة رسمية ومهذبة . هز العقيد سمير كتف فخرالدين بقوة
 ففتح عينيه ، وجه العقيد يتسعم ابتسامته الرسمية المهذبة :

- صبح النوم ، يبدو أنك مرهق .

اعتدل فخر الدين في جلسته ونظر حوله . اعتدل العقيد سمير في وقفته وواصل الابتسام . نظر فخر الدين إلى الساعة المعلقة في أعلى الغرفة وإلى الفراش الأبيض من تحته . كانت رأسه ما زالت تدور ورائحة الفينيك والبنج تملأ أنفه . نظر إلى الساعة ثانية : الساعة . آلام في ظهره ، وفي كتفه شاش أبيض .

* * *

أعاد العقيد سمير ظهره للوراء . استند لكرسيه الجلدي الضخم . على مكتبه القسيح كوب من الشاي يتصاعد منه البخار . صورة رئيس الجمهورية تتوسط الجدار خلفه ولوحة زيتية على اليمين . فرك العقيد سمير عينيه مرة أخرى وثبت نظارته وتوقف عن الابتسام . أخرج من الدرج ملفاً وضعه أمامه على المكتب الخالي . فتح الملف ونظر فيه . رشف رشفة من كوب شايه وأعاد الكوب إلى المكتب . نظر إلى فخر الدين من أعلى النظارة .

- فخر الدين عيسى هاشم . من مواليد 1967م . طالب بكلية الحقوق جامعة القاهرة . السنة الثانية . تقدير عام جيد بالسنة الأولى . تقطن بالمدينة الجامعية .

نظر إليه ثانية من فوق النظارة .

- مضبوط ؟

- مضبوط .

- متى انضمت للنادي ؟

...

- انضم لنادي الحركة الطلابية في يناير الماضي وهو طالب بالسنة الأولى . ويمارس نشاطه بشكل منتظم في النادي منذ ذلك التاريخ . وابتداء من أكتوبر الماضي أصبح من قيادات اللجنة الوطنية للدفاع عن حقوق الطلبة والمسئولة عن التنسيق بين التيارات والجماعات المختلفة داخل الجامعة كلها . من مدبري المظاهرات هذا العام (مرفق الصور) وكاتب عدد من منشورات اللجنة وبياناتها . مشترك بفريق المسرح منذ السنة الأولى . من الذي أدخلك النادي ؟

... -

غمغم العقيد ثم استطرد :

- تم تجنبه عن طريق كل من شوقي كامل الطالب بالسنة الثانية بكلية الحقوق والذي كان يتردد عليه بشكل مستمر في غرفته بالمدينة الجامعية خلال العام الماضي ويحيى إبراهيم الطالب بكلية الآداب والذي يشاركه غرفته هذا العام .

صمت العقيد لحظة ثم نظر إلى فخر الدين :

- اسمع يا فخر . في الحقيقة أنا ليس لدي وقت لأضعيه معك في استجواب لا قيمة له ، فلدي كل المعلومات التي أحتاجها هنا .

- إذن لماذا قبضتم عليّ ؟

زعم العقيد بفتة :

- أنت لا تسأل . أنت هنا لتجيب فقط . فاهم ؟

تناول كوب الشاي ورشف منه رشفة . استطرد بهدوء :

- قل لي إذن ، ما الذي دفعك للانضمام للنادي وتدبير هذه المظاهرة ؟

★ ★ ★

كان سيد أبو الخير تقيماً وشبه منهار . ربت فخر الدين على كتفه وهما يتجهان ناحية الفيضان خلف أبي قتادة . الشمس تنهياً للغروب خلف مساكن مدرسي الجامعة العائدين من الخارج وتصيب السماء بحمرة قانية . سارا قليلا حتى بلغا الحقول وجلسا على جذع شجرة ميتة . بكى سيد كثيرا وفخر الدين صامت يرقب الأفق . عندما تمالك سيد نفسه قليلا بدأ يحكي عما حدث له في مباحث أمن الدولة منذ ذهب هناك بناء على تعليمات المقدم ماهر . وكيف ظلوا يضطرون عليه نفسيا وجسديا .

- لا لم يعذبوني مثلما نرى في الأفلام . ولكن لهم طرق أخرى . مزيج من التخويف والتشكيك والتحقير . مع إنهاك جسدي ومعنوي يجعلك غير قادر على المقاومة . شيء فظيع .

انهار سيد أبو الخير مرة أخرى في البكاء . وطوال المساء لم يستطع فخر الدين أن يتحدث معه . كان غائبا تماما . فجأة يعود للحديث ويقص مقاطع مما حدث له ثم يجهد بالبكاء لمدة طويلة ويفيق عنه كأنه لا يشعر بوجوده . وفي الصباح لم يجده فخر الدين في غرفته ولا في الكلية ولم يره بعدها لمدة أسبوع علم فيها أنه قد سافر للبرلس .

* * *

- اسمع يا بني ، الساعة الآن الثانية عشرة ، وأنا بصراحة تعبت منك .

- وماذا بيدي يا سيادة العقيد؟

- ماذا بيدك؟ يا بني صار لي خمس ساعات أتكلم معك وأسألك وأنت

تتقي عليّ خُمُلاً . حضرتك فاكِر نفسك واقف في المظاهرة؟ المظاهرة

انتهت يا حبيبي وأنت الآن مقبوض عليك وأنا أحقق معك . جاوبني إجابات

عاقلة . أنا لا أريد سماع خطاب عن الحرية والدستور والتعبير عن الرأي . يا بني هناك أساليب أخرى بإشارة واحدة من يدي أستعملها معك ولن يكلفني الموضوع شيئاً .

- أنا أجيب على أسئلتك بصراحة .

- بصراحة؟ حضرتك فإكر نفسك سعد زغلول؟ يا بني أفق وكلمني بلغة أفهمها .

مسح فخر الدين وجهه بيده وأطرق قليلاً . ثم نظر للعقيد سمير وقال :
- اسمعني يا سيادة العقيد . أنت تتحدث باسم السلطة وبقوتها . ولذا أنت تعتقد أنك تحتكر الصواب لأنك أقوى ، وهذه هي المشكلة الرئيسية التي تحول دون حدوث تفاهم بيننا . أنا أعلم جيداً أنك أنت الأقوى الآن لأنك تسيطر على وسائل القوة التي تضعها السلطة تحت تصرفك . وأنتك تستطيع فعلاً بإشارة منك أن تعرضني لأساليب أبسط ما توصف بها أنها غير إنسانية . أنا أعلم كل ذلك . ولكن ذلك كله لا يجعلك على صواب . وأنا أعلم جيداً أنك مخطئ لأنني أرفض عن حقوقي البسيطة جداً والتي لا يستطيع أحد أن ينكرها . أنا لا أفعل شيئاً يهدد أمن الدولة . أنا معترف أنني عضو بالنادي الذي ذكرته ، وبأني عضو باللجنة المسؤولة عن تنظيم المظاهرة . ولكني أقول في نفس الوقت إن ذلك ليس فيه ما يخل بالقانون بل هو من ضمن حقوقي الأصلية التي يكفلها الدستور لي ولكل مواطن ، ومستعد لأن أقول ذلك في أي محكمة .

هزك العقيد سمير ذقته بيده وهو ينظر نحو الباب ، خرجت الكلمات ببطله من بين شفتيه :

- هل تعرف ما هي المشكلة؟ المشكلة أنك لا تعيش في الدنيا أساماً . أنت شخص وهمي . لقد قابلت في مهنتي هذه أصنافاً شتى من البشر ،

مففل فخر الدين
منهم المففلون المضحك عليهم بكلمتين ، ومنهم الأذكىاء الذين ضحكوا
على المففلين ، وأنواع كثيرة من هذا على ذاك . أنت شيء مختلف تماما .
أنت وهمي . مائة في المائة .

ضفط على جرس بجوار الكرسي فظهر رجل على الباب يرتدي بدلة
زرقاء كعمال السكك الحديدية . قال له العقيد سمير دون أن ينظر إليه .
- خذ من هنا . ضعه في الحجر .

* * *

تغير سيد أبو الخير ، تغير كثيرا . لم يرد فخر الدين أن يرجع ذلك
إلى رحلته إياها إلى مباحث أمن الدولة وإنما قال ، ربما هو الوقت ، ربما
النضج ، ربما أدرك عمق الأزمة وتعقيدها ومن ثم استحالة تغيير العالم
كله في يومين . ولكن سيد أبو الخير كان قد تغير بأعمق من ذلك . تغير
من داخله . أصبح دائم الغياب وبعيدا ودائم التحجج بمواعيد لديه أو
بأناس سيقابلهم أو سيتصل بهم أو يسفر للبرلس أو بأي شيء في الدنيا
ليبرر اختفائه . لم يتوقف عن حضور اجتماعات النادي أو اللجنة ولكنه
كان شاردا طوال الوقت . كأن شيئا ما في روحه انطفأ . صارت عيناه أقل
شباها . وصار يحدق في الأرض وهو يكلم الناس ولا ينظر أبدا في عيونهم .
قل كلامه وصارت قصائده أكثر إلغازا وضاعته منها رائحة البحر وخشونة
الرمال والصدف . تحسنت أحواله المالية وإن كان قد أصبح يعتمد بالحدوث
عن سيرة أهله أو أحوالهم . نعم ، تغير فعلا سيد أبو الخير .

* * *

في الحجز ، وجد فخر الدين يحيى جالسا على الدكة الخشب مادًا ساقيه أمامه وعاقدا يديه على حجره . نظارته السمكة ملقاة بجواره على الأرض . مهشمة ، وشاربه طال وتدلّت شعيراته على شفته . كان ينظر للسقف أو للجدار . وعندما وضع فخر الدين يده على كتفه انتفض ونظر إليه . دقق النظر فيه فلما تعرف عليه التصق به وركن رأسه إلى صدره في صمت .

- تغلّ! لم أعرفك إلا من صوتك .

- هل كسروا لك النظارة؟

تنهد يحيى :

- النظارة؟ وهل لم يكسروا سوى نظاراتنا يا عزيزي؟

صمت فخر الدين . كانت يده ما زالت على كتف يحيى وشعر بالدفء لأول مرة منذ أيام طويلة يتسلل إليه .

- كيف حالك يا حسام؟ وكيف حال العرب؟

- العرب في أسوأ حال يا مولاي ، لا أمل لهم غيرك . العرب يشتظرون أن تُكبي أخيرًا نداءهم .

- ماذا كان هذا؟

سأل فخر الدين وهو يمعن في التذكر .

- معقول نسيت؟ هذا صلاح الدين .

- نعم إنه هو هو ، اسمعوا ، هذه طبوله ، انظروا هذه بشائره .

ابتسم يحيى إبراهيم لأول مرة منذ عدة ليالي . رفع رأسه ونظر إلى فخر الدين وابتسم ثم ألقى بها ثانية في استسلام :

- أنت أروع شيء في الدنيا يا فخر الدين .

ضحك فخر الدين ونظر إلى يحيى . كان تائها بدون نظارته ولم يكن

يرى تقريبا .

* * *

استقبله العقيد سمير بابتسامة واسعة . كان فخر الدين خائر القوى تماما .
- تفضل . استرح . أنا آسف جدا . أتعيناك معنا . تفضل .
جلس فخر الدين على المقعد .

- اسمعني جيدا يا فخر . لقد فحطنا ملفك جيدا . وفحصنا أقوالك ،
وتناقشنا فيها ، وخلصنا إلى شيء واحد ، إنك عنصر ممتاز . طالب مجد
وممتاز . محب لبلدك وتخاف عليها . وأنا شخصا سعيد جدا بهذه النتيجة .
تشرب شاي ؟
- شكرا .

ضفطل العقيد على الجرس دون انتظار الرد . ظهر الرجل على الباب :
- واحد شاي بسرعة . اسمعني يا فخر وفتح أذائك جيدا سأدعك الآن
تخرج وتعود للمدينة . بعد ما تشرب الشاي طبعاً . لكن أريدك أن تتأكد من
شيء واحد : نحن هنا لسنا أعداءك أبداً ، لسنا أعداء للطلبة ولا لأي أحد
آخر . نحن كلنا شركاء وهذه بلدنا كلها ، كلنا نتعاون معا ونعمل من أجل
مصلحة بلدنا لكن بطرق مختلفة ، كل في موقعه .

انفتح الباب ودخل الرجل حاملا كوب الشاي . وضعه أمام فخر الدين .
البخار يتصاعد منه دافئاً . نظر فخر الدين للكوب . لم يكن قد وضع شيئاً
في معدته منذ يومين . تقلصت معدته أمام الشاي الساخن . أكمل العقيد :
- نحن مثلاً ، عملنا هو الحفاظ على الأمن . على النظام العام . من
أجل أن يتاح للجميع فرصة التعبير عن رأيه في نظام ودون تهديد لسلامة
الدولة . أرايت الجماعات الإسلامية وما فعلوا يوم المظاهرة؟ بالجنازير
ضربوكم بالجنازير ليستولوا على المطبعة . هل يرضيك هذا ؟
- لا . ولكن ...

- وأصدقائك الآخرين الشيوعيين والناصرين وخلافه ، أيضًا استخدموا العنف لمنع الآخرين من الدخول لبرج الساعة . كل هذا خطأ وغلط . نحن لسنا ضد مصلحة البلد طبعاً لا ، لكن المشكلة بالنسبة لنا ، والتي عادة ما توقعنا في أخطاء مثل خطأ القبض عليك ، والتي تسبب في تشويه صورة الجهاز لدى الناس ، المشكلة أننا ليست لدينا المعلومات الدقيقة التي تمكننا من التمييز بين الوطنيين وبين المفرضين 100% ، ومن ثم نضطر أحياناً إلى أخذ الطبيب مع الرديء للاحتياط . اشرب الشاي اشرب .

...

- من ثم ضمن مصلحة الجميع ، مصلحة البلد ، ومصلحة الطلبة ، والجامعة ، ومصلحتنا ، أن تكون معلوماتنا دقيقة . نحن طبعاً لنا عيون وأذان في كل مكان ، بما في ذلك الجامعة والمدينة ، لكن مستوى دقتهم يحتاج دائماً إلى تصحيح ، وهذه مهمة تحتاج إلى شباب وطني واع لحقيقة مصلحة بلده وبعيد عن الشعارات الطنانة والغوغائية التي عانيت أنت منها ، شباب متحمس ولكنه بعيد النظر وعاقل ، يقوم بتدقيق معلوماتنا بإخلاص وبفهم ليساعدنا على معرفة الطبيب من الرديء . ولئن أطلب منك شيئاً محدداً : مجرد اتصال تليفوني مرة كل فترة . رقم تليفوني في هذا الكارت ، خذ .

مد العقيد يده ووضع الكارت بجوار كوب الشاي :

- اشرب شايبك .

* * *

الجو بارد بالخارج . فخرالدين مهندس تحت البطانية على مرتبته

الصفيرة الممدة على الأرض . صوت محمد منير يأتي دافعا من التسجيل الصغير . يحاول أن ينام ساعات فلائيل قبل الغد . دق قلبه بعنف عندما فكر في الغد . هل سننجح؟ دق الباب بخفة فدق قلب فخر الدين أكثر . فتح فخر الدين الباب . جمال . يا ساترا دلف جمال بسرعة وأخلق الباب وراءه :
 - اسمع يا فخر الدين ، لا بد من أن أراجع حالا . عبيد وأحمد قبض عليهما أمس في بنها . كما ذهب عساكر اللقبض على الشيخ وعليّ واكتننا لم تكن في بنها . يبدو أن البوليس عرف بموضوع مظاهرة باكر .

وجم فخر الدين . تعتم :

- وكيف سيرف البوليس؟ هذا الموضوع لا يعرفه سوانا نحن العشرة؟

* * *

خلع العقيد نظارته وفرك عينيه . هز رأسه ياسا وهو ينظر للساعة .
 - اسمع يا بني . أنت طلعت ديني . وبصراحة ليس لدي وقت أكثر من ذلك لأضيعه معك . أنت فاكرك نفسك بطل ونبي . لكن الحقيقة أنك لا شيء إطلاقا . أنت وهمي وغير موجود . ولا قيمة لك . وإن كنت تريد الخروج الآن والذهاب لعبدان الدقي لتصرخ بأعلى صوتك وتشتتم رئيس الجمهورية فلا مانع لدي . تفضل وأنا أعدك أنه لن يتعرض لك أحد من الشرطة . هل رأيت الرجل المجنون الذي يسير في شارع القصر العيني وهو يربط أعلام أمريكا في قدميه وماشي يدوس عليهم ويسب في أمريكا وفي الحكومة؟ هل تعتقد أنني أهتم به؟ أنت مثله بالضبط بل أسوأ . على الأقل هو يقول رأيه بقوة . أما أنت فتحاول النسخ في ميوتين . تفضل . انفخ مثلما تريد . لكن بعيد عن دماغي . أنت لا تصلح لأي شيء في الدنيا . ولا حتى مخير . لكن أحب

أن أقول لك شيئاً واحداً قبل ما تخرج . المعلومات تصل إلي . ولو حبيت
أجيب لك صورتك وأنت في حمام المدينة الجامعية ممكن أجيبها . أنا لا
شيء يقف أمامي . أنت الخامس . وأنت الجاني على نفسك . لو كنت بتهم
كنت تعاونت معي . ولعلمك نصف الجامعة تتعاون معنا . لكن أنت حمار .
وأنا لا أحب الحمير .

...

- لكن قبل ما تمشي أحب أخرجك على شيء واحد . تعال . قرب . هذه
صورك يا بطل الأبطال في المظاهرة . مضبوطة وهذه البلاغات أترافها؟
بلاغات من شهر . من ستة شهور . بلاغات من السنة الفائتة .
بخط من هذه؟ عرفت؟ هذا خط حبيبك . شاعر الوطن الممزق . سيد
بك أبو الخير .

- 9 -

- كلام خير صحيح طبعاً .
ابتسم سيد أبو الخير وهو يهز كتفه هازئاً . دفع نظارته بين عينيه
وعاد بظهره إلى الوراء في كرسيه الفسيح . خلف المكتب . صورة رئيس
الجمهورية تتوسط الجدار وعلى الجانب لوحة زيتية .
- من الذي قال لك هذا الكلام الفارغ؟ فخر الدين مات؟ طبعاً كلام
فارغ . فخر الدين زميلي وصديقي وأعرفه جيداً . لقد تخرج في الكلية وعمل
قليلاً بالمحاماة ثم سافر للخارج . هاجر أعتقد . لست متأكداً في الواقع إن
كان قد عاد فقد انقطعت صلاتي به منذ سافر .
- ولكن لدي شهادات تشير لموته في السجن أو بتعبير أدق في مستشفى

الشرطة أثناء اعتقاله بعد مظاهرات الجامعة .

- غير صحيح . الواقع أن فخرالدين تعب صحيا ونفسيا أيضًا بعد مظاهرات الجامعة هذه . وظل بعدها فترة في حالة اكتئاب ولا يكاد يخرج من غرفته ولا يكلم أحدًا ولا يرد على أحد . حتى عليّ أنا . وكان مجلس الكلية قد اجتمع وقرر فصله . ولكن بعد وساطات من جانب زملاء استطاعوا إقناعه . وكان البطل الثريسي في هذه الوساطات هو ناجح رئيس اتحاد الطلبة والذي أقتنع فخرالدين بأن «يلم الدورة» . وفعلًا ذهب فخرالدين وقابل الدكتور سعيد والدكتور يونس واتفق معهما بمبنى أو بأخر . وعاد للدراسة . لكنه كان قد تغير كثيرًا . صار حاد الطباع ، قاسيًا . ولم يكن يطبق أحدًا أو يكلم أحدًا . وكان لا يذهب للكلية إلا نادرًا ، لبعض المحاضرات أو للامتحانات . ثم أنهى الدراسة وعمل بالمحاماة قليلًا وبعدها سافر . من الذي قال إنه مات ؟

* * *

- كنت جالسًا في غرفة الحجز واضعًا رأسي بين كفي . وكان الدمع يسيل من عيني مدرارًا لا أستطيع إيقافه . وكانت الدنيا ظلامًا أو شبه ظلام لا أدري . فلم أكن أرى جيدًا منذ كسرت نظارتي . كانت أطباف أبي وخالي وأمي وأخي الصغير تدخل عليّ الغرفة وتجالسني . كان أبي يقرعني لأنني لم أسمع كلامه ولم أصدق أن هذه الرفقة ستمود علي بالضر . وكانت أمي تحضر لي طعامًا . وأخي كان يسألني متى أخذه للقاهرة . كنت أنظر إليهم من حولي ولا أراهم ولا أرى غيرهم . فُتح الباب فانبج ضوء لا أدري كنهه ولا مصدره . ودخل على شبح شخص مترنح ثم انهارت بجواري كتلة بشرية

ومستني فانتفضت . سمعت تنفسا ثقيلا كأنه يخرج من بين رحي وجاء صوت أعرفه يناديني . كان هو . فخرالدين عيسى . التصقت به . كان مريضا . كان به حمى أو شيئا كهذا . وينتفض جسمه كله . وكان غزير الفرق مبللا بكامله . حدثته فلم يرد عليّ . وكانت حشيرة أنفاسه تصك أذني . ناديت الحرس فلم أسمع ردا . سألت فخرالدين فلم يرد عليّ . فمعت إلى ما كان مصدر الضوء وتحسسته . هو الباب . خبطت عليه بيدي وقدمي ورأسي وصرخت . لا أحد يرد عليّ . عدت إلى فخرالدين . وطفقت هكذا أتردد بين الباب وبين فخرالدين حتى الصباح . كان فخرالدين قد بردت حرارته . وسكنت حركته . وذهبت الحمى عنه . وذهب عني . راح . راح الاستثنائي . راح أزوع من في حياتي وأهم ما فيها . راح ورحل عني . وتركني أواجه هذا الحزن البفيض وحدي .

«من أقوال يحيى إبراهيم»

حفر الباطن

«لا تذكر الموتى فقد ماتوا فرادى
أو ... عواصم

سأراك في قلبي غدا

سأراك في قلبي

وأجهش يا بن أمي باللغة

لغة تفتش عن بنيتها ،

عن أراضيتها وراويها

تموت ، ككل من فيها ،

وترمى في المعاجم،

محمود درويش

للمم فخر الدين نفسه داخل الزنط العبري الأخضر ، وانكمش في برد الليل على محطة الأوتوبيس واقفاً وحده . تلمع فوانيس السيارات القادمة في عينيه وتمرق مخلقة رذاذ ماء على ملايسه العسكرية . الأضواء الخلفية للسيارات الذاهبة تصبغ ظلمة الطريق بألوان صفراء وحمراء . تحسست نظرات فخر الدين الأوتوبيس القادم . هو . هو 777 العظيم قادم . مد قدمه المحاطة بأربطة البياض الثقيلة تحت الكرسي . أخرج محفظته البنية وشد الكارنيه والتصريح وأملها . العودة سعت 2200 . باق خمس دقائق . كان 777 يمرق في الظلام مسرعاً . مقابر الإمام الشافعي ، مقابر الدراسة ، كل شيء يمر في الظلام السريع للأوتوبيس . دقات حذائه العسكري ترن وسط صمت القبور في مدافن الأباجية . يلتوي الطريق الأسفلتي الضيق أسفل كويري الأباجية ويصعد وفخر الدين ناحية البوابة الحصينة . باقى السلام واضحا على جندي الشرطة العسكرية المتألف من البرد ويمضي داخلًا . يستوقفه النداء المتأخر للجندي :

- الكرنيه والتصريح .

- تقضل .

جندي الشرطة ينظر في الأوراق بلا اهتمام ثم يمد يده ويخلع طاقيه

فخر الدين الخضراء . يجذب شعره بيده :

- شعرك طويل .

...

يتأمله الجندي لحظات ثم يعطيه الكارنيه والتصريح ، ويلقي بالطاقيّة إلى الأرض . يتحنى فخر الدين ويلتقطها . يضعها على رأسه ويمضي صاعدا المنحدر الأسفلتي القوي . ماء المطر المتجمع يسقط في خطوط متعرجة على الأسفلت المبلل مُشكِّلا أنهارا وترعا وبحيرات صغيرة وباردة . يمر الماء أسفل حذاء فخر الدين دون توقف . يواصل فخر الدين الصعود ، قلبه يدق بسرعة مع ازدياد حدة انحدار الطريق . تلوح له قبنا الشيخ المدفون بالوحدة . يصعد السلالم الحجرية العتيقة . إلى مكتب الرسم .

* * *

ابتسم جاد ابتسامة صفراء فزاد وجهه الكالح بياضاً . وضع يديه في بنطاله الأخضر ودفع قدميه في الشيشب البلاستيك الأصفر الميري . في يده اليسرى علبه سمن قديمة ملأى بالماء وعلى كتفه قومة صفراء ملتفة حول رقبته .

- أهلا وسهلا ، بدري يا أستاذ فخر

- الساعة لا تزال العاشرة .

- العاشرة ؟ بأي توقيت يا عسكري ؟ توقيت فخر الدين ؟

التفت إلى يونس وسأله بحدة :

- كم الساعة الآن يا عسكري ؟

غمغم يونس :

- ليس معي ساعة .

دلف فخر الدين إلى الغرفة الداخلية للمكتب .

جلس على حافة الفراش الحديدي . قوائمه تستند إلى حوائب من الطوب الأحمر لتحفظ توازنه . دولا ب من الصاج مائل قليلا للأمام . انفتحت إحدى ضلعتيه فأحدثت أزيزاً قطع الصمت بالمكتب . قطرات

الماء تتساقط من السقف المعدني على الحائط الذي يكسوه الصدا .
سخان الشاي يثير فقاعات الماء في الكوب الزجاجي السميك الموضوع
على سطح دولاب خشبي صغير . مفتاح النور مثبت بشريط لاصق أزرق .
طقين المصباح النيون يرد على صغير صراصير الليل الآتي من الجبل .
النافذة الزجاجية المكسورة يغطي كسورها لوح كرتون عليه بقايا تجارب
خط وللكري الخالدة عبد السميع بدر . كتابات الخطاطين تغطي الجدار
الفاصل بين غرفتي المكتب . «أين أنت يا علي، مد فخر الدين يده إلى جالون
الماء وأماله . لا ماء بالجالون . جاء صوت جاد من الغرفة الخارجية :
- الجالونات فارغة . شيء طبيعي طالما سيادتلك قضيت السهرة بالخارج .
عاد فخر الدين لحافة السرير ، ويدأ في خلع حذائه .
- خذ الجالونات وأمالها ، الماء موجود في حنفية البوابة .
أكمل فخر الدين خلع حذائه وأسلم جسمه إلى الفراش . لأول مرة يتعد
على فراش منذ أربعين يوما . أرخى عضلات جسمه المشدودة وفرد كتفيه
أسفل الوسادة . أربعون يوما من النوم على الأرض الحجرية ويومين بلا نوم
إطلاقا . مدد جسمه وأغمض عينيه . أطل جاد بوجهه الكريه :
- ألا تسمعتي يا عسكري ؟ قف انتباه

* * *

جلس جاد على حافة السلم الحجرية . على بعد أربعة أمتار وقف فخرالدين . يدها مفروزان بجوار ساقيه ورأسه إلى الأمام ، مرتديا كافة ملابس العسكرية . نفخ جاد دخان سيجارته بينما تجمع الجنود في حلقات صغيرة في أرض الطابور . خلف فخرالدين بدت أضواء قلعة صلاح الدين .

- يا عسكري اسمع الكلام! قلت لك ارفع المخلة على ظهرك واحذف .

- آسف .

- أقدم! آسف؟ ما معنى آسف هذه ؟ أنت فاكرك نفسك في شركة ؟ أنت في الجيش يا عسكري .

- إذن دورني مكتب المضابط النوبتجي .

- المضابط النوبتجي مرة واحدة ؟ تريد إزعاج المضابط النوبتجي في منتصف الليل ؟ احذف يا عسكري .

وضع فخرالدين يديه في جيبه وبدأ يتحرك في اتجاه المكتب .

- قف يا عسكري . قف انتباه محلك .

واصل فخرالدين السير في اتجاه المكتب . دخل من الباب الصاج . قفز جاد وراءه . دلف فخرالدين للغرفة الداخلية وتعمد على حافة السرير . سمع صوت جاد يدخل للمكتب وهو يسب بصوت عال . مدد جسده على الفراش الوحيد . أربعين يوما لم أنم على فراش . فتح عينيه فوجد وجه جاد الكالح محمرا من الغضب . جذب فخرالدين من سترته فأوقعه على الأرض . ركله بقدمه ورفعه بيده ورفع يده الأخرى وهوى بها على خد فخرالدين فأنثق الدم من فمه .

لا أحد يعرف ما الذي حدث بعد ذلك بالضبط . قال لي عبد الحميد إن فخرالدين بصق الدم في وجه العريف جاد ثم ضربه ضربا مبرحا ولم

ينقذه من يده سوى تدخل يونس وحامد اللذين أمسكا بفخر الدين وجذباه بعيدا عن المكتب . وقال لي يونس إن جاء وفخر الدين كأننا يتبادلان الضربات بقسوة وهو ما جرى على التدخل . أما تقرير الشرطة العسكرية فيذكر أن فخر الدين اعتدى على العريف جاد بالضرب وأحدث بوجهه جرحا قسطميا كما حطم أثاث مكتب الرسم برمته .

* * *

ابتلع الملازم أول شرف حسن الفريايوي بذرة بنية اللون مع الشاي :
- هذا قرص . والبيت الذي يدخله القرص لا يدخله المرض .
ضحك ضحكة زاعقة فظهرت التجاعيد في بشرته السمراء .
- هذا القرص أحضره خصيصا من بلدنا . بلد صغيرة بعد كوم امبو . وهو بذر يطرحه شجر معين عندنا ، إذا استخدمه الإنسان لا يصاب بأي مرض . المهم . نعود إلى موضوعنا ، فخر الدين هذا كان «عسكري» غير منضبط . لم أر في حياتي مثله . كان «عسكري موهوب» لكنه يرضن بموهبته على المكتب ، لا يضع رأسه في الشغل . وسيادتك تعلم أن شغلنا حساس جدا . لكن ، ماذا أقول لك؟ لا يوجد انثناء . كل واحد لا يرى سوى مصلحة نفسه . وليحدث ما يحدث طالما كان بعيدا عن قفاه .
رشف الضابط حسن رشفة من كوب الشاي الموضوع أمامه . ومن خلفه بدت صورة رئيس الجمهورية .

- لقد حازبت في اليمن . كنت أدخل - بلا مؤاخذه - في ماسورة المجاري لأمر من ناحية لأخرى . وكان الرصاص لا ينقطع من فوقنا ، لو رفعت رأسك يا حلو لا تجد نفسك . أهذه عسكرية هذه؟ هؤلاء المساكين في نعمة لا يشعرون بها . أجازة كل 45 يوم ولا عاجبهم . يا فتدم الإنسان لا

مفتل ذكر الدين .
يعلأ عينه سوى التراب . مثلاً فخرالدين هذا كان يأتي إلى ويقول يا هندم
لدي امتحان ، يا هندم لدي مصلحة ، أنا عارف كل هذه الأساليب ، لكن
كنت أتركه ينزل البلد ، ومع ذلك حدث ما حدث ؛ لأنه عسكري ليس لديه
انتماء ، ماذا أفعل ؟

مثلاً جاد هذا الذي حدثت المشكلة معه ، جاد هذا يمثلني أنا شخصياً
في المكتب ، يعني في غيابي جاد هذا كأنه أنا . ثم ما المشكلة في أن
يضر به على وجهه ؟ أنا في الخدمة منذ ثلاثين سنة ولو عدت العرات التي
ضربت فيها على وجهي ما استطعت حصرها . يعتبره مثل أخوه . الجيش
يعلمك الذي لم يعلمه لك أبوك وأمك . الجيش مدرسة يا هندم ولا بد كل
عسكري يتعلم .

* * *

مد فخرالدين سافيه منهكاً . الليل يطبق على الجبل الشاهق في
مواجهته . المغارة تبدو شديدة الظلمة . ينحدر الطريق حاداً من تحت
قدميه في منحني نحو باب خشبي صغير في آخر السور الشائك .
من خلفه تبدو خزانات الماء التي تؤدي إلى استراحة الضباط . خرب
الماء المتساقط من الخزانات غير المحكمة الإغلاق ، يتواصل خلف أذنيه .
تتساقط قطرات الماء في جداول رقيقة تجري بسرعة على المنحدر الرملي .
صخور الجبل التي سقطت يوماً ما هنا تملأ المشهد أمام عينيه المتمهتين .
مسح فخرالدين جبينه المتفضن بالألم وبالخزن المفروس . كيف يمسح
القلب ؟ قام وسار قليلاً باتجاه الباب الخشبي . هاجمته ظلمة الجبل وروائح
الكريهة . سار باتجاه الخزانات صاعداً . بدت له في الأفق القلعة منسولة
بالماء وبالضوء المنهمر . استند لصخرة مربعة وجلس على حافتها .

- أين أنت يا علي؟ أين اختفيت كل هذه المدة؟

مد يده إلى حيث يتسرب الماء وملأ كفيه منه ، رفع يديه إلى وجهه
وغسل الدم المتساقط من فمه .

* * *

- كان عسكري غير منضبط .

أسر إلي الضابط حسن في هدوء يقيني :

- هذا المكتب له نظام لو اخلت تخرب القاعدة كلها . هنا كل الجنود
أولادي ، والله أنا أراهم أكثر مما أرى أولادي ، ومن ثم لا يوجد لدي خيار
وفاقوس . كل على حسب عمله . عمك جيد تأخذ مكافأة ، عمك أسود تروح
يا حلومع السلامة .

أما حكاية أننا كنا نجبره على خدمة الجنود فحكاية بلا معنى . ماذا
تريد مني أن أفعل؟ من بعد الطعام؟ العسكري القديم أم الجديد؟ الجديد
طبعاً . ثم إن سيد القوم خادمهم . من ينام على الأرض؟ الجديد أم
القديم؟ الجديد طبعاً ، ثم إن القوم على الأرض صعبة . أيام اليمن لم تكن
نجد الأرض للننام عليها . كنا ننام واقفين . أيامها كنت لا أزال جندياً ، كنا
نعمل الخبز على الشمس ، على الحجر الصوان .

نظر الضابط حسن إلي ثم التفت للغرفة الداخلية :

- هات الشيشب يا عسكري . بعد إذنك يا فتندم سأقوم للوضوء .

قام الضابط حسن ووضع قدميه في الشيشب الذي أحضره يونس .
تحرك باتجاه الباب الصاج . أمسك بعلمة السمن القديمة وملأها بالماء
من الجائون الأزرق الكبير الموضوع بجوار الباب . خطا للخارج خطوة ثم
عاد ونظر إلي :

- آخر تلقية . فخر الدين كان يريد المكتب كله يشتغل . كيف يا سيد كل المكتب سواسية؟ القديم كالجديد؟ والله شيء يضحك . العسكري يا فندم له ثلاثة أشياء فقط : شرفه ومهمات وفلوسه ، غير ذلك ينفذ الأوامر .

* * *

عند باب المكتب كان جاد لا يزال واقفا . أمامه وقف يونس وحامد مرتدين كامل الزي العسكري .
- انتباه! ارقد .

زحف الاثنان في الأرض الطينية . تمتم أحد الجنود الواقفين في آخر أرض الطابور بشيء ما ومضى . مر فخر الدين من أرض الطابور كانت رأسا يونس وحامد تبدوان من وسط الطين . وقف فخر الدين أمامهم وتبادلوا النظرات .

* * *

- لا يا سيدي ، هذه النقود نجمة للمكتب . أنا أيضا أدفع . وهل أضع شيئا في جيبتي؟ هذه نقود المكتب . سخان الشاي مثلا ، الشاي الذي تشربه حضرتك ، كل هذا بفلوس المكتب . الأكل ، بدلا من التعيين الذي لا يؤكل نشترى طعاما للمكتب كله . ثم إن هذا شيء اختياري وليس إجباريا .

أنا أقول للعسكري ادفع بدفع باختياره . في اليمن يا فندم كنا مستعدين ندفع أي شيء من أجل كوب الشاي . كنا نظل بالأربعين يوما بدون تعيين ، ولو رفضت رأسك يا حلو لا تجد نفسك . هذه المساكر هي نعمة . عسكري لا يقدر هذه النعمة لا يستحق الإجازة . عسكري ليس لديه انتماء للمكتب ولا لأسرة المكتب لا يستحق الإجازة .

مسح الضابط حسن عرقه المتصبب على جبينه الأسمر بمنديل قماش

أبيض به خيطان أزرقان .

- هذا العسكري المسمى فخرالدين ، كان دائما يشتكي . طيب قل لي حضرتك من يأكل الأول، القديم أم الجديد؟ من يشرب الشاي القديم أم الجديد؟ القديم طيبا . ثم إن هذه مسألة ذوقية ، ونحن هنا أسرة واحدة . أنا مثل أبيه ، لو الأكل قليل هل سيأكل هو ويترك أباه ؟ طيبا لا . نفس الشيء هنا . عسكري أقدم منك قال لك تحضر الأكل تنفذ . مثل أخيك . لكن فخرالدين كان متكبرا . على العموم لقد نال جزاءه . ولعلمك يا فتد هذا أول عسكري من المكتب يدخل السجن .

* * *

في مبنى القيادة يحيط جنود الشرطة العسكرية بالمداخل والمخارج والنوافذ . سجادة حمراء تمتد في العمر وحتى السلالم الرخامية اللامعة التي تقود لمدخل القاعدة . جنود ووردية النظافة أنهموا أعمالهم ويعودون لتكنات الجنود حاملين الجراد والمقشاش . آخرهم يحمل سلة مهملات وبعضها باتجاه الجبل ليفرغها هناك . في الطابق الثاني وقف فخرالدين وجاد أمام غرفة الضابط النوبتجي . الوصول حلبي بعينيه الزائفتين يحمل ملفا وأوراقا ويروح ويجيء في توتر . ظهر العسكري مراسلة الضابط النوبتجي من الباب وأسر للوصول حلبي بكلمتين . تبادل الوصول وجاد نظرتين . مضى الوصول للداخل خلف المراسلة . خرج المراسلة بعدها بقليل حاملا صينية عليها بقايا إلفطار وشاي . لحظات ثم ظهر الوصول حلبي برأسه ونادى على جاد . نظر فخرالدين لحلمي وقال :

- ألن أدخل للضابط ؟

- طيبا لا

مقتل فكر الدين
وأغلق الباب . أطل فخرالدين من نافذة الممر . يبدو مكتب الرسم
بعيدا وصغيرا . بدت رأس الضابط حسن من وسط التصخور وهو خارج من
الجيل حاملا غلبة السمن القديمة . « أين أنت الآن يا علياء خرج جاد من
الغرفة مبتسما . وجنتاء الكالحتان منتفختان . مر أمام فخرالدين دون أن
ينهم ببنت شفة . تبعه الصول حليبي بعدها بدقيقة . نظر إلى فخرالدين
يعينه الزائفتين من بين أوراقه وتمتم :

- عشرة أيام حبس .

* * *

رفض حكمدار السجن الحديث معي . قال إنه لا يذكر شيئا عن شخص
اسمه فخرالدين . وعندما سألته عن سجلات السجن قال : إنه لا توجد
سجلات :

- هذا سجن الوحدة وليس له سجلات . فمن الممكن أن يدخله أي
جندي في أي وقت . هذا ليس سجنا حريبا . مجرد حجز .

* * *

« حبيبتي

الآن تركوني . الساعة تقترب من منتصف الليل ولدي شعور فظيع
بالمراة ، كأن حلقتي علقم . بالأمس كنت أود الكتابة إليك ولكنهم لم يتركوني
قبل الفجر . كنت قد وصلت لدرجة من الإنهاك حالت بيني وبين نفسي .
ما يحدث هنا شديد الكآبة والعبوس . لا أكاد أحتمل . بالأمس بكيت . بكيت
وسأل الدمع من عيني ولم أستطع منعه . بكيت وأنا أقاوم اليكاء وأبكي وأقاوم .
إنهم يهينوننا يا حبيبتي . يدوسون كرامتنا وإنسانيتنا وكل شيء طيب
بدخلنا . يتعمدون إهانتنا ، ولا أستطيع الاحتمال .

الزملاء هنا طيبون ، وهم جميعا يمانون ولكنهم يتأقلمون مع الوضع ويمتادونه مع الوقت . لقد حاولت أن أفعل ذلك ولكني لم أستطع . شعرت أنني لو تأقلمت على هذا السوء سأفقد كل ما قد يكون جميلا بداخلي . كما رفضت وثرث في مرات لكني وجدت النتيجة واحدة ، إما أن تنفذي الأمر ، أي أمر ، أو تعصينه ومن ثم تُجازي بأوامر من نفس النوع ولكن أقسى وأشد إهانة للنفس.

لا أستطيع أن أضمن احتمالي لهذا الوضع أكثر من ذلك . لا أستطيع أن أضمن احتمالي لمسألة الطاعة العمياء وتقبل هذه المهانة المخزية أكثر من ذلك . إنتي أحاول تقادي المواجهة ولكني كثيرا ما أشرف على الانفجار.

معي هنا علي ، وهو العزاء الوحيد لي ، ولكنه يغيث كثيرا ؛ لأنهم يرسلونه في مهمات كثيرة . ربما أنفجر يا حبيبتي ، ربما أنفجر وعندها لا أدري ماذا ستكون النتائج . لكنهم يدوسون قلبي .

قصاصة من خطاب

كتبه فخر الدين إلى شيرين

- 2 -

كانت الشمس قاتطة عندما جاء جنود السجن ليأخذوه . الحرارة تلهب أسقف المكاتب الصاج وتحيل بطونها إلى جهنم لزجة . السلالم الحجرية تزيد من توهج الشمس وتضاعف حرارة المكان . ما هذا الحر في قلب الشتاء ؟ تقدم جنود السجن على السلالم الحجرية باتجاه مكتب الرسم . تجمع الجنود داخل المكاتب . لا أحد في أرض الطابور . دقائق الأحذية العسكرية المنتظمة لجنود السجن ترن على حجر السلالم . كان باب مكتب الرسم مفتوحا . بالداخل وقف جاد مرتديا ملابس العسكرية كاملة . أمامه جلس فخر الدين . بدون طاقيّة . حلق الرأس . لملم الحلاق أدواته وخرج من المكتب . دخل حُكمُدار السجن إلى المكتب . أمسك بيدي فخر الدين وقبدهما . تقدم فخر الدين وسط جنود الحراسة إلى منتصف أرض الطابور إلى السلم الحجري . يداه مقيدتان خلف ظهره . مضمومتان ومنفلقتان . عيناه خاليتان من أي تعبير ووجهه منبسّط تماما . شمس حارقة تصب في قلب ظهيرة الشتاء . انتظم طابور السجن . فخر الدين في الوسط وصفي الجنود يهبطون المنحدر ويفيرون شيئا فشيئا . زعق جاد فجأة :

- أين طاقيّة علي؟

رد يونس في انكسار :

- أخذها فخر الدين معه .

رائحة عطنة تفوح من الممر . بقايا الطعام تتجمع في برميل أسود كبير . ومن حوله الأرض مبللة من بقايا سوائل تتسرب من أرضية المطبخ .

باب المطبخ مفلق برتاج ضخمة ولزج الملمس . الجدار الخارجي متكلس وحول النافذة الوحيدة هالة من السواد . أمام باب المطبخ مباشرة باب السجن المدفون في قلب المقطم . من نافذة الباب الحديدي تتكس عيون محدقة . حكمدار السجن مستلق أمام الباب بجوار سلاحه القديم . أصوات تطقطق في المطبخ ثم يفتح الباب . يخرج جنديان يحملان إناء أسود ضخماً . كلب أسود مقطوع الذيل يعبث في زاوية المطبخ . تموء قطرة في البرميل وتطل برأسها ناحية باب المطبخ المفتوح . ينصفق الباب ويتجمهر الجنود حول الإناء الضخم .

- محلك اقعدا

حامل الإناء ينظر حوله في تحد . تجلس الجنود شيئاً فشيئاً . يخرج حكمدار المطبخ من جيبه ورقة مطوية . يفردها ببطء وهو ينظر للجنود . يبدأ في العناداة . يدخل يونس حاملاً إناء التمييز يتبعه حامد . حكمدار المطبخ ينادي :

- المواقين ، السكرتارية ، العمليات .

يتقدم يونس وحامد . زعق حكمدار المطبخ :

- سلمه فرختين ونصف .

سار يونس وحامد يحملان الفراخ والأرز . توقف يونس ونظر إلى حامد في خبث .

- اسمع! أنت ناوي تعمل عيبط ؟ فرختين ونصف لثلاثين نفر لا تختلف عن فرختين لثلاثين نفر . ثم إنهم كلهم يعملون ذلك .

وضع يونس فص الدجاجة في فمه وأخذ يمضغ بتلذذ مسموع الصوت . ناول حامد المتردد ربع الفرخة وابتمس له هيأنت بقايا الدجاج في فمه .

سالت بقايا السمن العالقة بالدجاجة على شفته السفلى المنفرجة . مسح يونس فمه بظهر يده ثم ضرب كف يده في إناء الأرز وغرف .
- كل ، الرسول كان يأكل بيده ، كل .

على جدار السلم الحجري كان فخر الدين جالسا مع علي في انتظار التبيين . لاحظت رأس يونس في أسفل السلم وهو يضحك هاتفا : فراخ . تجمهر الجنود على امتداد السلالم معترضين طريق يونس الذي أخذ يراوغهم وهو يسب ويلعن حتى وصل إلى علي الجالس أعلى السلم ووضع الإناء أمامه والدجاجتين . نظر علي إلى الإناء والدجاجتين . رفع رأسه وطاف بعينه على الجنود المتجمعين حوله ، عاد بعينه إلى الإناء وهو يزوم ويهز رأسه . نظر إلى فخر الدين وقال بلهجة الصيدية :

- وكيف أقسم فرختين على ثلاثين نفر بإذن الله ؟

مسح الضابط حسن جبينه بالمنديل :

- لا يا قديم . بعد خروجه من السجن مباشرة تم إلقاء إلحاقه هنا باعتباره غير صالح للخدمة في مكان حساس كهذا ، وأعيد إلى كتيبته في قلب الصحراء عند البحيرات المرة ، عله يتعلم الأدب ويعرف الجيش على أصوله .

* * *

أز باب السجن الضخم وهو يفتح . دفع الصول بفخر الدين من ظهره إلى داخل الظلمة السيئة . رائحة عطنة تنوح من المكان ورطوبة مشبعة تطبعه . استدار فلم ير شيئاً . انطلق الباب فازداد الظلام حلكة . خرج شبح ضخم من خلفه وفتح بصوته المبحوح :

- اخلع الحزام والأفرول والبيادة والطاقيّة والساعة وأي فلوس تكون معك . قبل أن يتمّ جعلته هوت صفعة على خد فخر الدين من الخلف . استدار وهو يزعم فجذبه الشبح من أمام :

- نفذ يا عسكري ، لا تلتفت بدون إذن .

بدأت عينا فخر الدين تمتاد الظلمة . خلع ساعته وممتلكاته ووقف بملابسه الداخلية البيضاء في ظلمة السجن .

ربطها وجذبها منه شخص في الظلام . كان الشبح واقفاً أمام نافذة الباب الوحيدة .

- تسعة استعد .

وضع فخر الدين يديه خلف رأسه وهبط بنصف ساقه إلى الأرض حتى لامسها بركبتيه . عاد إلى الوقوف .

- عد .

عاود فخر الدين الهبوط والوقوف .

- واحد ، اثنان ، ثلاثة .

عاجلته صفعة أخرى من الخلف فالتفت ضارباً بقبضته المجهول في الهواء . جذبه الشبح من فائلته :

- أتوقف التمرين بدون إذن يا عسكري يا منحل ؟

جاء صوت من النافذة :

- التعمين يا حكمدار السجن .

تراجع وهو يسب ويدفع الباب فبانت لوحة من الضوء غشيت عيني فخرالدين ثم اختفت . جلس إلى الأرض ، رطبة وغير مستوية . لم تطلعت عظام ساقه وهو يجلس على الأرض . على جدار السجن المبلل بدت رسومات بالطباشير الأبيض ، نخلة وتليفزيون وإيريال وأسماء ، سامية وعليه وجماليات وفتحية ، وأبيات شعر ركيك وعبارات خارجة . في زاوية الفرقة بدت رأس صلحاء وعينان نصف مفتوحة مثبتة على فخرالدين . نظرة باردة ، مينة . الوجه متراخ العضلات . ذراعان مسدلتان بجوار جسده المرخي الممتد إلى الجدار . في الزاوية الأخرى اثنان بملابسهما الداخلية ، وثالث بملابسه كاملة يدخن سيجارة بتلذذ . أظلمت نافذة الباب ثم سر القفل وانفتح الباب وبدأ شبح الحكمدار مرة أخرى في فلق الضوء المنبعث من الباب . أزال الباب وصار القفل مرة أخرى .

- أين الجديد ؟

وقف فخرالدين .

- لماذا لا ترد يا مسجون ؟ قم امطع النخلة هات اليلح .

- أي نخلة ؟

- النخلة المرسومة على الحائط يا روح أمك .

- دع أمي في حالها .

أحمر الحكمدار :

- اجننت يا عسكري ؟ ترد على حكمدارك ؟

وهوت يده الفايضة على خد فخرالدين فسأل دم خفيف من فمه .

نظر فخرالدين إليه في وجهه ، ويصق الدم عليه . صمت السجن لحظة

وحدقت العيون في رعب . مد الحكمدار يده ومسح الدم ببطء من على وجهه ، نظر في يده ، ارتعشت قليلا ، ثم رفعها وهوى بها في غضب جنوني على وجه فخر الدين في صفحات متتالية . أمسكه من وسطه ثم قذف به إلى الجدار ركلا في بطنه . ارتطم فخر الدين بالجدار ووقع على الأرض . لعلم جسده واستند إلى الحائط وقام ، نظر للحكمدار ثم بصق الدم في وجهه . استشاط السجين جنونا ، علت صيحات الحكمدار على ضريبات وركلات الباقين الذين هجموا جميعا على فخر الدين . تقجر الدم من وجه فخر الدين وخفت حركته شيئا فشيئا . صاح الحكمدار في الجندي ذي السيف : السيف !

- ولد يا فتة! علمه!

- 3 -

قال لي الجندي وهو يرفع حقيبته على كتفه :
 - كسفریت ؟ تأخذ هذا الطريق حتى الدوران . ستجد تمثالا عنده ، تمثالا أبيض ، تدخل شمال . هذه هي كسفریت .
 أغلقت زجاج سيارتي وواصلت المسير . هذه إذن هي مدينة فايد . صغيرة . الرمال تمتد من حولي وحتى مرمى البصر . مضيت في الطريق الذي أشار علي به الجندي . بدت لي في الأفق ملامح لنصب تذكاري مجهول . لابد أن ذلك هو الدوران . سيارات نصف نقل معبأة بالجنود الراحلين إلى معسكراتهم . مضيت عبر الطريق فوصلت إلى درب نصف معبد . مضيت فيه حتى نهايته .

لاحت لي في الأفق معسكرات للجيش ورايات بادية للعيان . لابد أن هذه هي كتبة فخر الدين . ركنت السيارة على جانب الطريق وأغلقت أبوابها ونزلت .

الرمال تعلو وتهبط في الطريق إلى مدخل الكتيبة . وتجعد الطريق أطول مما يبدو . مشيت قرابة نصف ساعة في تلال من الرمال والشمس تسطع فوق . بقايا ومخلفات متنوعة متناثرة خلف التلال . قطع من أسلاك شائكة وخوذة قديمة مخرومة معلقة . اقتربت من الكتيبة أكثر . غرفة مبنية من الطوب والصاج وبها نافذة وحيدة . أمامها قدر طعام كبيرة . نظر إليّ الجندي الواقف بالباب . حبيته برأسي فأجاب التحية وهو يتعني بعيني . ملابسه الممزقة مكسوة ببقع من الزيت . مضيت أكثر داخل الكتيبة . مبان متناثرة من الطوب ومغطاة كلها بأسطح من الصاج . رمال واسعة تفصل بينها . قواعد الصواريخ تبدو شامخة وسط هذه المباني المنخفضة . فوق التلال الصخرية ثبتت أجهزة رادار مختلفة الأشكال . اقتربت من أحد المباني . طرقت الباب الموارب ودفعته . نظر إلى الصول الجالس خلف المكتب في تساؤل :

- السلام عليكم .

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

- أنا عمر فارس ، وكيل نيابة .

- أهلا وسهلا .

- كنت أبحث عن الرائد عصفور .

انتهت أسارير الصول وقام :

- أهلا وسهلا ، أهلا .

مد يده مسلما فسلمت .

- حضرتك تريد الرائد عصفور ؟ تفضل معي ، من هنا ، تفضل . سرت

خلفه خارجا من المكتب . مررتا بين المباني . التقت إلى :

- ولكن كيف دخلت ؟ لم يبلغني أحد من البوابة بوصول زوار .

- الحقيقة أنني لم أعرف أين البوابة بالضبط . لقد دخلت من هنا .
وأشرت بيدي باتجاه المطبخ ، نظرت إلى حيث أشرت ثم نظرت إليّ
وابتسم:
- أهلاً وسهلاً .

- وما العمل الآن بعد أن صرنا قلائل ؟
- قلائل ؟ اتسمي جيوش فرنسا وصقلية وجيش ملك إنجلترا وفرسان
المعبد وفرسان الصليب معاً . قلائل ؟ إنك خائف يا عزيزي
أطلقاً الجندي التلفزيون فقطع جبل أحلام الجنود المتعلقين أمامه .
علت صيحات الاستنكار من الجنود لكنه لم يأبه . صفق بيديه معلناً انتهاء
السهرة وبدأ في إغلاق الأبواب . تحرك فخر الدين من على الدكة الخشبية
واضماً قدميه في الحذاء الكاوتشوك الأبيض . خرج من البوابة وسط أفواج
الجنود الخارجين وهم يستمدون مقاطع فيلم الناصر صلاح الدين . كانت
الليلة رائقة السماء ، ونسمات منعشة من الهواء تهب من ناحية البحيرات
فتلطف من حرارة أغسطس القاتلة .

سار فخر الدين باتجاه السور في آخر الكتيبة . لم يكن يستطيع أن ينام
الآن . بعد ساعة لديه مناوبة على جهاز الإشارة . مضى باتجاه السور فوجد
عددًا من الجنود جالسين أسفل النخلة القصيرة الواقعة وحدها هناك .
ألقي السلام وجلس فأفسحوا له المكان . ابتسم له وأشرف وسأله إن كان
لديه مناوبة هو الآخر . أوما فخر الدين برأسه . ابتسم أشرف وأردف :
- إذن كلنا لدينا مناوبة جماعة .

كان الجالسون كلهم ساهمين . منذ أول أغسطس لم يستطع أحد منهم

أن ينزل في أجازته . حتى أشرف لم يستطع حضور إكليل أخته الذي تم من أسبوعين . مع أنه من الزقاقيق إلا أن القائد رفض بتاتا إعطاءه أي أجازة ولول يوم واحد . حافظ لم يمد يرف شيئا عن أرضه ولا عن النزاع الدائر بينهم وبين عمه حول حدود الأرض من ناحية المصرف في قريته بدير نجم . عماد ساهم كمادته ومنطو على نفسه . تنهد سلامة ونعمت :

- حالة الطوارئ هذه جاءت على دماغنا .

- ومن يعلم إلى متى يستمر وقف الأجازات

قال أشرف وهو يعبث بمصفاة صغيرة في الرمل :

- وصدام حسين هذا ألم يستطع الانتظار أسبوعا واحدا ؟ كنت حضرت

زواج أختي

ساد صمت حزين . وكان موعد المناوبة يقترب .

* * *

سألت :

- هل كان جنديا مشاغبا ؟

خلع الرائد عصفور البيريه الأسود ومسح بيده اليسرى صلعة رأسه

وابتسم من خلف نظارته الرقيقة :

- فخر الدين عيسى يا سيدي كان ككل جنود المؤهلات العليا ، كثير الكلام

والرد . لكن الميري ميري ولا يمكن السماح بذلك في الجيش . كل المجندين

عادة ما يسببون نفس المشاكل في أول فترة تجنيدهم ثم يتأقلمون مع وضع

الجيش مع الوقت . لكن فخر الدين هذا كان عجيب الشأن : كان كل يوم كأنه

أول يوم له بالخدمة . وكان عنيدا أيضا وهذا هو سبب المشكلة . صدقتي يا

فندم . وأنا هنا أحدثك بصفة غير رسمية وليس لدي - بلا مؤاخذه - ما

يجبرني على الحديث إليك ، إن المسألة برمتها مسألة عند . لولا عند هذا لثم حل المشكلة بمنتهى البساطة . وحتى آخر لحظة كانت المحكمة العسكرية مستعدة ترجع في قرارها أخذاً في الاعتبار حالته النفسية أو أية حجة أخرى لو كان هو قبل التراجع عن عنده . لكنه لم يقبل . رحمه الله لم يكن طبيعياً . أليس كذلك يا حضرة الصول ؟

ثم نظر إلى موضحاً :

- الصول إبراهيم كان معنا خطوة بخطوة .

- تمام يا فتد ، تمام . كنت دائماً أقول لسيادة الرائد إن فخر الدين ولد طبيب لكن دعاغه هي المشكلة .

ابتنم الصول إبراهيم فبانت أسنانه البيضاء اللامعة . ظل مبتسماً لحظة حتى التفت إليه الرائد عصفور :

- تمام يا إبراهيم .

الصول إبراهيم نفسه كلم فخر الدين عدة مرات وحاول معه ، سواء هنا قبل أن تتحرك أو في الميدان . لكن فخر الدين كان دائماً ما يخيب أمله .

- بعد إذنك يا سيادة الرائد ، أشرح لسيادة الوكيل . يا فتد والله لقد كلمته أكثر من عشر مرات ، وكنت أقول له إن الجيش هو الجيش والأوامر هي الأوامر وإن الطاعة يجب أن تسود ولا ينقلب الجيش لفوضى . كان يسمعي وهو ساكت ثم يرد علي ردوداً غريبة . لم أكن أفهم ماذا يقصد ، ولكنني مع ذلك فكت له . فكت له : إنه مثل ابني . وأنه مهما كان عنده من آراء فهو حر ، لكن يعصي الأوامر ؟ وهذه حرب يا فتد وليست هذار . يا الله ، الله يرحمه . كان السبب في كل هذه المشكلة .

ضبط الرائد عصفور على زر أحمر مثبت في الحائط بشريط لاصق

أزرق . ظل ضاغطا حتى ظهر على الباب جندي قصير القامة :

- الشاي بسرعة يا دفة .

* * *

خلع فخر الدين السماعة من على أذنيه وبدأ في تلك الشفرة . كان قلبه يدق بشدة وهو يفك رموز الرسالة التي جاءت . عيون أشرف وحافظ وسلامة وعماد منقطة في نومهم القلق في انتظار دورهم في المناوبة . فخر الدين عيونه تتسع وقلبه يدق وهو يمضي عبر السطور . عندما أنهى تلك الرسالة كلها اجتاحت رعدة ويرد . أعاد قراءة الرسالة مرات .

وضعا أمامه على المنضدة والتفت إلى زملائه أيقظ أشرف أولا ووضع الرسالة في يده دون كلمة واحدة . وبينما كان أشرف يقرأها أيقظ الباقي . جلس الخمسة حول الجهاز ينظرون للرسالة دون أن يجروا أي منهم على الكلام . ساد صمت وثقل عميق . نظر فخر الدين للورقة الملقاة بينهم على المنضدة . مد يده ولمسها . ارتعشت يده وهو يمسكها وقام واقفا :

- لا بد من أن أسلمها لقائد الكتيبة .

* * *

- يا سيدي المسألة لم يكن فيها تحريض سياسي ولا يحزنون .

رشف الرائد عصفور رشفة من شايه الأسود وأستطرد :

- كل ما في الأمر أن فخر الدين عسكري غير منضبط . لم يعرفوا لا في

مركز التدريب ولا في القيادة في القاهرة كيف يكسبون الروح العسكرية .

روح الطاعة والنظام . الموضوع كله أنه رفض تنفيذ الأوامر وهذه جريمة

يعاقب عليها القانون العسكري . مسألة التحريض هذه مسألة ثانوية .

قامطه الصول إبراهيم بابتسامته بيضاء الأسنان :

- بعد إذتك يا هندم . هي الحقيقة أن أول الشغب بدأ هنا في الكتيبة عندما وصل أمر التحرك : لأن فخر الدين ساعتهما رفض تنفيذ الأمر ، وكان يمكننا قانوناً محاكمته عندئذ ، إلا أننا ولتسامحنا معه ، وهذا خطأ يجب أن نعترف به ، تعاورنا معه واستطعنا إقناعه بأن يلم الدور وأن ينفذ الأوامر ويرحل مع الكتيبة . والحقيقة أننا كنا نظن أننا بذلك قد حللنا المشكلة على أساس أنه لعب عيال أو عند شباب ويأخذ وقته ومجراه وينتهي ، ولكن مثلما قال سيادة الرائد لسمادتك فإن فخر الدين كان كل يوم كأنه عسكري جديد، لم يكن يتعلم أبداً .

- ثم إنني تصرفت طبقاً للقانون . ولم يكن هناك حل آخر وإلا تحولت العملية لقوضى . نحن في جيش هنا ولدينا في جامعة . وبموافقة قائد القوات المنوب تم تحويله لمحكمة عسكرية ميدانية ، وهذه المحكمة هي التي أصدرت الحكم ولست أنا !
- بالضبط يا هندم .

* * *

بدأت الأضواء تنير المكاتب المظلمة شيئاً فشيئاً . ووسط ظلمة الصحراء الشرقية ، على حافة البحيرات المرة ، ظهرت بقع متناثرة من الضوء الخافت . استيقظ قائد الكتيبة على صوت فخر الدين واتسعت حديقته عينيه عندما رأى الرسالة . وهي المكاتب الأخرى كان النيا يسري سريعاً فيوقف النائمين ويتركب عناصر الجنود . وعند الفجر كانت كل الكتيبة تعلم أنها تلقت أمراً بالتحرك إلى الظهران . مال أشرف على فخر الدين وسأله والقلق يعصر وجهه :

- ما العمل ؟

عيس عماد ونظر بعيداً . التفت إلى حافظ في ضيق وقال له :

- أنت لا تفكر إلا في النزاع اللعين بينك وبين عمك !

ارتدى طاقيته وسار بعيداً ناحية قواعد الصواريخ . هرش سلامة رأسه
وشرد وهو ينظر إلى حافظ :

- هل تعتقد أننا سنحارب عملاً ؟

نظر إليه حافظ :

- نحارب ؟ نحارب من ؟

لم يرد سلامة وواصل الهرش في رأسه .

- تعال نصلي الفجر .

مضياً ناحية المسجد . مال أشرف على فخر الدين وسأله :

- ما العمل ؟

نظر فخر الدين بعيداً ولم يرد . القائد ممسك بسماعة التليفون منذ
نصف ساعة . ينظر إليها ولا يجرؤ على الاتصال . « هل أوقفه ؟ » . وقف
عماد عابساً وهو ينظر إلى الصواريخ الشاهقة في غيش الفجر . كانت
رأسه تكاد تنفجر من ارتفاع ضغط الدم . لا فائدة ، لا يجرؤ على إيقاف
قائد اللواء . مد يده ووضع السماعة وهو ينظر مجدداً إلى الرسالة . دق
جرس التليفون فانتفض ورفعها فوراً ، جاء الصوت حاداً :

- أين أنت يا سيادة العقيد ؟

- تمام يا فندم . العفو . كنت . كنت أحاول الاتصال بسماعتك ، لكني
كنت أخشى إزعاجك .

- إزعاجي ؟ يا بني أنا أكلّمك من القيادة من القاهرة ، ألم تستلم الإشارة ؟

- تمام يا فندم . استلمتها وهي في يدي .

- التفاصيل الخاصة بالتنفيذ ستصلك قدا صباحا مع مخصوص.
رئيس الأركان موجود الآن بقيادة اللواء ومع كافة التعليمات الخاصة
بالعمليات . تتوجه إلى هناك فوراً ومعك ضابط العمليات بالكتيبة .
تمام يا فتدم .

وضع العقيد سماعة التليفون . «إذن الموضوع بجد . كنت أود لو سألته إن
كان الموضوع بجد أم تهوئش» . خبط العقيد رأسه بيده وقام من على مقعده .
-- هل سأحارب فعلا ؟ وأين ؟

- يا أشرف! أنا لن أتحرك من هنا .

نظر أشرف إلى فخر الدين واتسعت عيناه :

- ماذا ؟ لن تتحرك ؟ كيف ؟

- مثلاً أقول لك . أنا لن أتحرك من هنا .

- تحرك بسرعة يا غبي .

دفع العقيد بقدمه عسكري المراسلة وأكمل ارتداء ملابسه . لاح له
ضابط العمليات قادما من وراء الباب :

- سيادة المقدم جاهز ؟

- تمام يا فتدم .

أدى حافظ التحية وهو يسلم الوردية . كان الثقيب رأفت يقف في
مواجهته :

- هل تعرف موعد التنفيذ ؟

- لا يا فتدم .

- وأين سيدهب القائد وضابط العمليات الآن ؟

- لا أعرف يا فتدم ؟

- طبيب انصراف يا عسكري .

مضى فخر الدين سائرا نحو السور . من بعيد بدت له مياه البحيرات
المرّة شديدة الزرقة .

* * *

الممر ضيق . على الجانبين بقع عشوائية من أشجار الخروع ونباتات
الصبار . نافورة قديمة متهاكة يسبح ورق الشجر المتساقط في مائها .
كلب بني اللون يعيث بشيء في فمه على حافة النافورة . جنود تجري من
حين لآخر بين أبواب المباني . كاب أحد الضباط يطل من نافذة حديدية ،
ينظر إلي ثم يختفي . يتسع الممر أكثر ويزداد تعرج الأرض . بضعة سلالم
متأكلة تقود إلى كشك صغير على اليمين . مررت بجوار الكشك في اتجاه
العبادة . عسكري ضئيل الجسم واقف في الكشك يقلي بطاطس . بخار
الزيت يكون حلقات مصفرة ملتصقة بجدار الكشك . مبنى مستطيل من
الصاج . هذه هي العبادة .

كان خليل ناشئا عندما دخلت . منذ عودته من حرب الخليج وهو محجوز
بالمستشفى العسكري . الطبيب المناوب شاب مجتهد . أكد لي أنه سليم
ولا يشكو من مرض عضوي ولكنه مصاب بـلَوثة وضلالات ومحجوز هنا
لحين انتهاء مدة تجنيده . عندما أغلقت الباب خلفي فتح عينيه ثم أغلقهما
بسرعة . ثقل على جانيه الأيسر . ظلمت واقفا في صمت . ظل في مكانه
لحظات ثم هز رأسه وقام .

- نعم كنت موجودا يومها . وسأروي لك الحقيقة كلها فلا تسمع إليهم
هم يقولون عني إني مجنون ؛ لأنهم يخافون مما أقول . أنا لست مجنون
ولكني رأيت ما حدث وأقول الحق ولو على رقبتني . ولهذا حجزوني هنا

رغم انتهاء مدة تجنيدي . نعم لقد انتهت مدة تجنيدي . انتهت منذ سبعة شهور وثلاثة أيام . ولكنهم لا يريدون تسريحني . كانوا في البداية يطلبون مني أن أسكت وبعد ذلك قالوا عني إنني مجنون . حرام . ربما لا يرضى بالظلم أبدا وما حدث لفخر الدين كان ظلما وقد رأيته بعيني . كنا جميعا أعصابنا تهبانة وكانت العساكر متضايقة وعلى آخرها . لم يكن أحد فينا يريد أن يذهب للسعودية . ما لنا نحن وهذا الكلام . لقد دخلنا الجيش نؤدي الخدمة سنة أو سنتين وننتهي . كل واحد منا عنده مشاكل ومشاكل لو لم ينتبه لها يجوع فيها ناس . هم كانوا سألونا إن كنا نريد دخول الجيش أم لا ؟ سألونا إن كنا نريد أن نحارب في السعودية أم لا ؟ ثم نحارب من ؟ نحارب ولاد عرب مسلمين ؟ هي الدنيا جرى فيها حاجة ؟ المهم ، العساكر كلها كانت في حالة غير طبيعية . وكنا خائفين بصراحة . حتى الصولات والضباط كانوا خائفين . والله كانوا خائفين . أنا شفت بعيني المقدم رأفت بيكي بالدموع في مكتبه يومها ، لكنه لما شافني دارى وجهه .

صمت خليل لحظة . ثم استطرد :

- يومها ، حوالي الخامسة مساء . فخر الدين دخل لحكمدة مكتب الأفراد وقال له إنه لن يغادر الكتيبة ولن يذهب للظهران . حكمدة الأفراد ظل يتكلم معه حوالي ساعة . في البداية كان فاكز أنه يقول أي كلام أو أنه خائف . لكن لما وجد الموضوع كبير قام أخذه لقائد الكتيبة . بقية العساكر لما سمعوا بالموضوع هاجوا ، وخرج كثير منهم ناحية مكتب القائد وقالوا إنهم هم أيضا لن يغادروا الكتيبة . الرائد عصفور هو الذي كان مناوبا يومها لأن القائد وضابط العمليات كانوا في مأمورية في قيادة اللواء . ظل الرائد عصفور والصول إبراهيم يهدوا في العساكر ويتكلموا مع فخر الدين ،

وفي الآخر خلفوا على المصحف أمام المسافر أجمعين أن الموضوع لا فيه حرب ولا يعززون وأن الموضوع حاجات في السياسة وتخفيف للعراق حتى ينسحب ، وقالوا لنا أيضًا إنه لا توجد أصلاً جبهة أو أراضي أو إمدادات تصلح للمعركة . بعدها الجنود هدأت وبدأت تجمع مهماتها استعدادا للرحيل .
- وفخر الدين ؟

- فخر الدين قال إنه سيتخذ الأوامر ويرحل مع الكتيبة بناء على هذا الكلام . وقال لي - والله ما زلت أذكر كلامه كأنه كان بالأمس - إن الذهاب للظهران في حد ذاته ليس مشكلة ، لكنه لن يشارك في قتال هو ليس طرفًا فيه . وأقسم لي على ذلك ، وكان معنا بقية المسافر .

* * *

البحر أزرق . فتح فخر الدين عينيه على اتساعهما ليملاهما بزرقة البحر . طير أبيض بعيد يهبط نحو الماء مرهقا ، يلتقط بمنقاره شيئاً من الماء ، ثم يخفق جناحيه ويعلو في الهواء متباعداً . البحر أزرق من أمام ومن خلف ومن الأجانب . كله أزرق . وهذه السفينة تزحف على بطن البحر كأنها لا تتحرك . منذ ليل الأمس المظلم بمناء السويس الكثيب وزحام شحن المهمات والمعدات على ظهر هذه السفينة العمياء وأنا يقظ . كأنني أنتظر تنفيذ حكم إعدامي في صباح بطيء المجيء وقال . لا حزن مثل هذا الحزن الذي يكتم أنفاس البحر وأنفاسي . يا ليتني طير ، يا ليتني بحر . نظر فخر الدين إلى جسم السفينة الحديدي . قديم ومأكل . على ظهر السفينة بدت العربات المصفحة المتراسة كأنها توايت . من يهادي من بموتى ؟ ترك الجنود حر الأسرة المزيفة في بطن السفينة الخائقة واستلقوا على السطح فوق وبين العربات والمعدات . عربات مصفحة وعربات نقل .

ماذا سنفعل يا ترى ؟ جئنا أم جئت الأعداء ؟ الأعداء ! نظر فخر الدين مليا للمريبات، الصول إبراهيم والرائد عصفور والمقدم رأفت ينامون في كباتهم . فهم يفكرون الآن ؟ قائد الكتيبة وضابط العمليات رحلا مع قائد اللواء في المظاهرات العسكرية . بالأمس رأيتهم في نشرة الأخبار يصافحون الرئيس . ألف مبروك . أسند فخر الدين رأسه إلى السور الحديدي البارد . السور بارد ويلسع جنبه كله . قلب في نومه على الأرض . لا فائدة . قام عماد وجلس على الأرض مبتعدا عن هذا السور الذي ظل يشق جنبه طول الليل كسيف . فتح عينيه نصف فتحة . كان الضوء حادا كأنه دبابيس داخل جفنه . أزاح الغطاء من عليه . بطاطين بطاطين . من قال : إن الجو برد كي أتعطى ببطاطين ؟ منذ دخلت الجيش وأعطوني هذه البطاطين وصارت عادة لدي أن أتعطى بها . حتى في الصيف . هل لأنها الشيء الوحيد الذي أملكه في هذا الجيش ؟ الشيء الوحيد الذي أنا حر فيه ؟ فتح عماد عينيه ونظر عبر السور . البحر ! كان عماد يعشق البحر . منذ طفولته وهو يهرب من المدرسة ليذهب ويجلس على كورنيش الشاطيء . ما أجمل البحر يا إسكندرية ! ما أجمل بحرك . وما أقيح هذا البحر الإجباري الذي يحاصرني ! فرك عماد عينيه . حلمت أنني أضرق في بحر عميق وكنت مربوطا برمح حديدي يشدني إلى القاع . إذا كان هذا السور هو الرمح ! نظر عماد إلى كاوتش المصفحة الرايضة إلى يمينه . ما الذي أتى بي إلى هذا المكان ؟ كنت أعاكس الفتيات السمر الجميلات على الكورنيش . وكانت أمي تطاردني بالعراش كي تزوجني . وكان أخي يواصل رسوبه بالجامعة وكان التأجيل يستمر . صار عمري 29 عاما . وكنت قد قبلت في الدراسات العليا في باريس . كان جواز السفر في يدي ، والفلوس في البنك ، وكان

بنقصني ختم التجديد . ما الذي جعل أخي ينجح هذا العام ؟ فزحت عدة شهور فقط وكنت أخلق الآن في الطائرة إلى باريس ، إلى مونتبارناس وسان ميشيل . نجح أخي البلاد أخيرا ووجدت نفسي ملء الجيش . ووجدت نفسي في هذه السفينة الحمقاء أذهب إلى أرض تم أحبها أبدا ولم أتصور أن تملأها قدمي يوما .

- قالوا لي إنهم لا يقبلون المسيحيين فيها

أكمل أشرف حديثه إلى سلامة :

- أعني قالوا لي إنهم لا يفضلون المسيحيين ، وقالوا لي إنه ممنوع على المسيحيين المقيمين هناك دخول الأراضي المقدسة . قلت لهم : موافق ، ومن قال لكم إنني أريد دخول الأراضي المقدسة ؟ أنا أريد عقد عمل ، أريد أن أعمل فقط . لكن الرجل في مكتب التفسير نصحني بأن أبحث في بلد أخرى أفضل . قال لي ربما الإمارات أو الكويت ، هناك لا يدقون في مسألة الدين هذه . الآن أنا ذاهب إلى هناك لكن بدون عقد . أذهب هكذا هل تعتقد أننا سنمر على الأماكن المقدسة ؟

لا ، لا يمكن، نتمم حافظ وهو ينظر حوله ليتأكد ألا أحد يرى دموعه .
بالأمس قالت له أمه في التليفون إن عمه قطع الماء عن أرضهم ، وإنها ستضطر لتركه يأخذ القيراطين المتنازع عليهما بدل المشاكل ، وخاصة وأنها وحدها مع أخيه الصغير وأخواته البنات منذ سفر أخيه للعراق في الصيف الماضي . أين أنت يا أبي لثري أفعال أخيك فينا انتهز فرصة غيابي واستولى على أرضنا بالمافيا وأنا أترك أرضي تؤخذ وأرحل إلى أين ؟
دقق البدوي النظر باتجاه البحر وهو يحمي عينيه من ضوء الشمس .
أمن النظر لحظات ثم خفض يده إلى جواره . نظر إلى ابنه الذي كان

يسحب الجمل بعيدا :

- ما الخبر يا جاسم ؟ هذه عاشر سفينة أراها اليوم تمر من أمام الشاطئ ،
ربط جاسم الجمل وجاء إلى أبيه ونظر إلى حيث يشير . أمعن النظر
لحظات ! كانت هناك سفينة صغيرة تمخر عباب البحر باتجاه الشاطئ .

- 4 -

«والآن والأشياء سيده» . وهذا الصمت يأتينا سهاما

هل ندرك المجهول هينا . هل نخفي مثلما كنا نخفي ؟

أم يا دمنا الفضيحة ،

هذه أمم تمر وتطبخ الأزهار في دمنا

وتزداد انقسامنا .

هذه أمم تفتش عن أجازتها من الجمل المزخرف .

هذه الصحراء تكبر حولنا

صحراء من كل الجهات

صحراء تأتينا لتلتهم القصيدة والحساما .

هل نخفي فيما يفسرنا ويشبهنا

وهل نستطيع الموت في ميلادنا الكعلي

أم

نحتل مئذنة ونعلن في القبائل أن يشرب أجرت قرأتها ليهود خبير ؟

الله أكبر

هذه آياتنا ، فاهراء

ملوى فخر الدين ديوان محمود درويش . نظر إلى الغلاف : مديح الخلل

العالي . نظر إلى الصحراء من حوله : لا ظل هناك . فتح الديوان وأكمل القراءة . كانت الشمس حارقة ، وداخل الخيمة كان الحر خانقا . طوى فخر الدين الكتاب وحمله إلى داخل الخيمة . كانت الجنود معدة على الأرض من الحر . وضع في مخلته وسحب زمزمة الماء . رفعها وشرب جرعتين . أظفها وردعا . مرت علينا خمس عشرة ليلة هنا . ثم ماذا ؟ كان الطعام يأتينا كل ثلاثة أيام ، يوزعه علينا الصول إبراهيم ونحتفظ به في المخالي . أما الماء فكان يأتي كل يومين . ومنذ ثلاثة أيام صار يأتي كل يوم . كانت مدينة الظهران على بعد نصف ساعة بالسيارة . لكن البنزين الموجود معنا محدود ولا توجد أوامر تحرك للسيارات . لاح أشرف قادما من خلف السيارات الواقفة ، يلهث . انكب على مخلته وأخرج الزمزمة وأفرغها في فيه . جلس لحظات ثم اقترب من فخر الدين :

- هل تعرف ماذا رأيت هناك خلف السيارات على بعد ربع ساعة سيرا

على الأقدام ؟

- وما الذي جعلك تسير ربع ساعة في الصحراء ؟

ابتسم أشرف :

- لا يهم الآن ، سأقول لك فيما بعد . المهم أتعرف ماذا رأيت ؟

- ماذا ؟

- أجانبا

- ماذا ؟

- أجانبا . وغالبا أمريكيان ، يأتون بالسيارات وينزلون معدات وخراطيم

وخزانات وأشياء كثيرة أخرى ، ثم يتركوها ويذهبون ويعودون ثانية وهكذا .

وعلى فكرة ، فيهم نسوان لايسين ميري .

رفع عماد رأسه وأصاخ السمع ، ثم سأله :

- نسوان! هل تحدثت معهم ؟

- لا .

- وكيف عرفت أنهم أمريكيان ؟

- شكلهم أمريكيان . طوال وبيض ووجوههم محمرة . ثم من سيأتي هنا

غير الأمريكيان ؟

- نحن!

قال فخر الدين :

- ربما يجهزون لهم معسكرا .

- في هذه الحالة سيكون معسكرا كبيرا . لو رأيت كمية المعدات التي

يغرفونها ، تكفي بلد . سأذهب ليلا مرة ثانية . هل تأتي معي ؟

نظر إليه فخر الدين وقال لا يرأسه . رفع عماد عينيه إلى أشرف وقال :

- أنا آتي معك .

* * *

خلع الرائد عصفور نظارته ووضعها على الدفتر المفتوح أمامه . مسح

عينيه يديه . عصرهما . كانت وجنتاه منتفختين ومحمرتين قليلا :

- موضوع خضر الباطن هذا كان مختلفاً . فقد كنا في الظهران منذ

أواخر أغسطس تقريبا . وكانت الأحوال في البداية صعبة لأنه لم يكن

هناك استعدادات . لكن مع الوقت تحسنت الأمور وخاصة أننا كنا بجانب

معسكر للجنود الأمريكيين وكنا نحصل على الطعام والماء من عندهم .

المهم لا أظيل عليك ، ظللنا في الظهران حتى أول يناير . وكنا قد بدأنا نمل

وخاصة أنه لم يكن هناك أجازات أو أي اتصالات بأهلنا ، خاصة بالنسبة

للجنود . في هذا الوقت صدرت لنا الأوامر بالتحرك إلى حفر الباطن .
 الجندي فخر الدين أثار شغبًا بالميدان . رفض التحرك . رفض تنفيذ الأمر
 وحرص بقية زملائه على رفض التنفيذ . الوضع أصبح سيئًا جدًا وخطير .
 وبصرامة الموقف لم يكن يحتمل أي لعب من هذا النوع . هذه حرب ونحن
 لم نكن وحدنا والدنيا كلها متوترة . قائد الكتيبة لما شاف الموقف اتصل
 مباشرة بقائد القوات ، وجاءت الأوامر صريحة ، أي شغب أو عصيان يواجهه
 بأقصى درجات الحزم . وهذا ما تم .

* * *

النجوم تلمع في سماء الصحراء العظيمة . لم فخر الدين نفسه في
 الزمن المبري الأخضر . أحكم إغلاق أزراره . البرد ينخر في العظام
 مباشرة . كان الصوت لا يزال يأتي من ناحية معسكر الأمريكان . منذ
 الغروب أمس والاحتفال مستمر . ذهب عماد ليقضي السهرة مع صديقه
 التي تعرف عليها . أشرف أيضًا ذهب معه ليشرب بيعة ويحتفل برأس
 السنة . من خمسة أيام ذهب ليحضر عيد الميلاد . مع أنه أرثوذكسي وليس
 كاثوليكي ولكنه قال : إن أي شيء أفضل من لا شيء إلى متى سيستمر هذا
 الاحتفال ؟ إلى متى سنستمر هنا ؟

* * *

- سعادتك نحن كنا في يناير ، وصدرت لنا الأوامر بالتحرك إلى حفر
 الباطن . وهذا كان معناه الاشتراك عملياً في القتال .
 - وهل كان القتال قد بدأ ؟

- لا ، ولكن كانت هناك عمليات استطلاع وأنغام وخلافة تتم . وكانت
 الأوامر أن نتوجه للمنطقة . وهذا معناه أننا لن نقوم بحماية السمودية مثلما

قالوا لنا في البداية وإنما سنشارك في القتال . وهذا هو ما قاله لنا فخر الدين عندما أبلغونا بالأوامر . ومن ثم رفضنا جميعا التنفيذ . يومها كانت هوجة كبيرة ، وبعد حوالي ساعة كان جنود الشرطة العسكرية قد جاءوا وطوفوا الكتيبة بحالتها ، وقبضوا على فخر الدين . عندما حدث ذلك بقية العساكر خافت وكله جمع مهماته استعداد لتنفيذ الأوامر والتحرك لحفر الباطن . - وأنت .

- وأنا أيضًا يا فتدّم . نعم أقولها بصراحة . أنا أحب فخر الدين وكل شيء ، لكن هذه مسألة حياة أو موت . وإذا كنا لا نريد أن نموت في الحرب فمن باب أولى ألا نموت مضروبين بالنار . بصراحة أنا أيضًا خفت . أنا مثل كل العساكر : بني آدم . خفت ونفذت الأوامر .

- وأين ذهب فخر الدين ؟

- على حسب الكلام الذي سمعناه ، فإن الشرطة العسكرية أخذته إلى معسكرها في الظهران حيث ظلّ محبوسا فيها لفترة . وبعد ذلك نقلوه لحفر الباطن للمحاكمة .

- والتنفيذ ؟

- التنفيذ كان في الظهران .

* * *

ابتسم الصول إبراهيم فبانت أسنانه البيضاء :

- نعم يا فتدّم حضرت المحاكمة . أنا كنت كاتب الجلسة ، وما زلت أذكرها وكأنها كانت بالأمس .

- هل لديك صورة من المحضر ؟

- نعم يا فتدّم . توجد صورة منه في مكتب السجلات هنا ، والأصل

مفتلاً ذكور الذين موجود في القضاء العسكري . والحقيقة أنه لم يكن هناك أحد من القضاء العسكري موجوداً ؛ لأنها محكمة ميدانية لها قاض واحد هو قائد القوة . ولكننا أرسلنا أصل المحضر بعد ذلك للقضاء العسكري وفقاً للقواعد .

* * *

- أنت متهم بمصيان أوامر القائد في ميدان المعركة . ويتحريض زملائك الجنود على المصيان . هل تقر بارتكاب هذه الجرائم ؟
- أنا لم أحرص أحداً . لقد رفضت المساهمة في عملية قتل جماعية . ولما سئلت عن السبب أجبت .
- إذن أنت معترف بمصيانك للأوامر .
- أنا مقر بمصيانني لأمر التحرك إلى حفر الباطن .
- هل تعرف عقوبة هذه الجريمة ؟
- هذه ليست جريمة .
- هل تعرف عقوبة هذا المصيان ؟
- لا .
- الإعدام رمياً بالرصاص .
-
- هذه خيانة عظيمة .
- أنا لم أخن أحداً .
- ورفضك التحرك ؟
- التحرك لحفر الباطن هو الخيانة بعينها .
- التحرك لحفر الباطن كان أمراً عسكرياً يا جندي .
- كونه أمراً لا يجعله حقاً .

- ليست مهمتك أنت أن تحدد الحق من الباطل .
- أنا لم أحدد شيئاً لأحد . أنا رأيت الحق حقاً فاتبعته ، ورأيت الباطل باطلاً فاجتنبته .
- وهل من الحق أن تعصي أمر قيادتك في ميدان حرب ؟
- أمر قيادتي باطل ، وهذا ليس ميدان حرب .
- كيف لا يكون ميدان حرب ؟ وفيهم كل هذا القتال إذن ؟
- هذا القتال أنتم المسئولون عنه .
- نحن المسئولون عنه ؟ اهل نحن الذين جعلنا العراق يعتدي على الكويت ؟
- هذه سياسة ، وأنا لم اشترك في السياسة من قبل كي أتحمّل الآن عواقبها .
- ماذا تقصد ؟
- أقصد أنكم أنتم المسئولون عن السياسة . أنتم وحدكم . لم تسألوني من قبل عن رأيي ، لم تستشيروني ، ولم اشترك معكم في قرار . أنتم تفعلون ما تشاءون ، ومن ثم فليس من حقكم أن تُحمِلوني تبعه أفعالكم .
- ولكنك مواطن في هذه الدولة . أنت لا تعيش وحدك في الفراغ . أنت مواطن في دولة لها مصالح وسياسة ، ولا يعقل أن تنتظر الدولة موافقة الأفراد واحداً واحداً لكي تأخذ قراراً
- أولاً أنا لست مواطناً ، أنا رعية . المواطن يشارك في إدارة وطنه ، وأنا لم أشارك . وبالتالي لا أتحمّل مسئولية أخطاء من أدار . المواطن له حقوق وعليه واجبات . وأنا لم أسمعكم تتحدثون عن الوطن إلا ساعة تقديم الواجبات فقط . المواطن عضو في جماعة ، لها مصالح مشتركة ، ولكنكم تُخضعون الجماعة ومصالحها لمصالحكم أنتم وتجعلون منها مجرد رعية لأوامركم . أنا لم أختركم وليس بيني وبينكم عهد كي أصونه . ثانياً سياسة

مقتل فخر الدين ،
الدولة ومصالحها التي تتحدث عنها ما هي إلا سياستكم أنتم ومصالحكم
أنتم ، وهي تقود إلى الحرب وإلى الخراب مثلما ترى . وليس لكم أن تخضعوا
الناس لمصائب تجنون أنتم من ورائها المصالح .

- أليست مصلحة الجميع في ردع المعتدي ؟ في إقرار العدل ؟

- العدل كل لا يتجزأ . ولا يمكن أن تقيم العدل في دار وترك الظلم في
بقية الديار سائدا . إن كان الموضوع موضوع عدل ، فلنبدأ بإقامة العدل في
كل مكان وعلى قدم المساواة .

- ولكن لا بد من البدء في مكان ما .

- ولم هنا ؟ ولم هكذا ؟

- هذه سياسة الدولة .

- تماما مثلما تقول ، هذه سياسة ، وسياسة الدولة ليست حقا أو عدلا .
وليست واجبي .

- ولكنك جندي في جيش هذه الدولة ، ولا تستطيع التحلل من واجبات
الجندي .

- مكروم أخاك لا بطل . ثم إنني لم أجد الدفاع عن ملكية آبار النفط .

- أنت تتدخل الآن في السياسة ؟

- هي التي تتدخل في حياتي ، أنا لم أطلب أن أدخل للجيش ولا أن أرحل
لحماية النفط .

- ولكن ألا ترى أن الدفاع عن هذا الذي تسميه ملكية آبار النفط قد
يكون دفاعا عن الوطن ككل ؟

- هذا دفاع عن وطنكم أنتم ، عن نفطكم أنتم ، عن سياراتكم وقصوركم
وراحتكم ، عن مناصبكم وسلطة نفوذكم وفسادكم . ليس عن وطني ولا

راحة بالي ولا حرمة بيتي ولا قدسية كرامتي وحقي .

- ولكن الوطن لا يتجزأ ، الوطن كل هذا .

- أنتم الذين جزأتموه .

- أنت تدخل نفسك هكذا في طريق مسدود .

- وهل أمامي طريق مفتوح وتركته ؟

- نعم أمامك . اسمعني يا بني ، نحن هنا جميعا إخوة . نحن لا نُضمر

لك أي عداوة بل على العكس . هل تعتقد أنه من السهل على أن أقف في

الميدان وأحاكم جندياً من جنودنا ؟ هل تعتقد أنه من السهل على أن أصدر

ضدك حكماً ؟ هل تعتقد أنه من السهل على أي منا أن ينفذ عليك هذا

الحكم ؟ طبعاً لا . أنت هنا بالصدفة . لقد جُندت مثل آلاف غيرك . ولكن

الصدفة شاءت أن تُوزع أنت بالذات على هذه الكتيبة وأن تكون تلك الكتيبة

دون غيرها التي يتم انتقالها للتحرك إلى الظهران . لو كنت تأخرت في

الدراسة قليلاً ، لو كان اسمك يبدأ بحرف آخر ، لو كان عسكري آخر قد

جُند أو سُرح ، ما كنت أنت الآن هنا ، وما كان الأمر قد صدر إليك ولكانت

حياتك قد سارت بشكل عادي جداً . هل توقف حياتك من أجل صدفة ؟

دعها تمر . فقط اعترف بأنك أخطأت . سنقول إن أعصابك كانت تعبانة

من طول الإقامة في الصحراء . وتنفذ الأمر ، وينتهي كل شيء .

- أنت تريد مني أن أقتل نفسي بيدي لتوفر على نفسك وخز الضمير لو

حكمت بقتلي .

- من الذي طلب منك أن تقتل نفسك ؟ نفذ الأمر وكن على ثقة من

النصر . هل تظن أن العراقيين يستطيعون إصابتنا بخسائر ؟ نحن لسنا

وحدتنا . ألا ترى كيف أن قوتنا جميعاً ، نحن والحلفاء ، لا تضارع ؟ هل

لديك شك في النصر ؟

- أنا لا أرى نصرا على الإطلاق ، لا هي كسب القتال ولا هي خسارته .
كله هزيمة .

- إنك بذلك تحكم على نفسك بنفسك . ماذا ستخسر لو حاربت ؟

- إنسانيته واحترامي لنفسي .

- لكنك ستخسر حياتك كلها لو لم تحارب .

- على العكس ، سأخسرها لو حاربت معكم . لو مضيت معكم في هذا الفي

أموت . أموت في نفس اللحظة التي أوافقك فيها . حتى لو ظل جسدي يبيض .

- ألا تفهم أن عصيانك هذا هو موت بلا فائدة ؟ هل تظن أنك ستمنعنا ؟

- لن أشارك معكم على الأقل .

- أنت بذلك تتحجر .

- بل أسترد حياتي منكم ، وأعلق دمي في أعناقكم .

- أنت لا تفهم . نحن على استعداد لفعل أي شيء ممكن لإنقاذك . أنت

لا تتصور صعوبة إصدار حكم بإعدام جندي .

- وأنت لا تتصور صعوبة تنفيذي أمرا يحولني إلى قاتل مأجور . أنت

تجد من الصعب قتلي ، ولكنك تجد من السهل قتل الآلاف ممن لا تعرفهم .

- هذا أمر لا اختيار لي فيه .

- ولكني أنا أستطيع الاختيار ، وقد اخترت .

- اسمعني جيدا يا بني ، سأقول لك هذا الكلام للمرة الأخيرة ، فاسمعه

جيدا وفكر فيه قبل أن تردد على إجاباتك العنيدة هذه . أنت شاب صغير ،

وأمامك الحياة بأكملها . الحياة عريضة وغنية . الحياة أغنى مما تظن .

الحياة ليست سندوتش تأخذه أو تتركه . إنها بحر طويل وعريض مليء

بالمواقف وبالمواقف والاختيارات . في البداية وأنت شاب يخيل إليك عند كل موقف أن الحياة ستوقف هنا ، وأنه إما كذا أو الموت . لكنك عندما تمر من الموقف تكتشف أن ذلك كان شيئاً تافهاً ، كان مرحلة ، عتبة في سلم طويل . ومع اجتيازك للمواقف بحلوها ومرها ، مع مرور الأوقات العصيبة والأوقات السعيدة ، تتسع روحك وأفقت وتضم كل شيء وتعلم كم هي جميلة وغالية . الحياة هي كل شيء . وأنت لا تملك حق التفريط فيها لأنها بلا رجعة . ولا شيء يستحق أن تضحي بحياتك من أجله لأنها هي أغلى وأشمل من أي شيء . هذا هو النضج . وعندها تعرف أن هناك مواقف ينبغي أن تحني لها رأسك حتى تمر . كلنا يجب أن نحني رؤوسنا كي يمر هذا الوقت العصيب . وبعدها نرفع رؤوسنا مرة أخرى ونفكر فيما العمل .

هل تظن أنني سعيد بهذه الحرب ؟ هل تظن أن أحداً منا سعيد هنا ؟ هل تظن أن القيادة التي أرسلتنا جميعاً هنا سعيدة ؟ كلنا مضطرون . وكلنا نحني رؤوسنا للعاصفة كي نعيش وننقذ ما يمكن إنقاذه . هل تعتقد أننا نريد قتال العراقيين ؟ بالطبع لا . نحن نقاتل ليس فقط العراقيين ولكن عشرات وعشرات من زملائنا السابقين ممن التحقوا بالجيش العراقي بعد تقاعدهم . نحن نعلم هذا . ولكننا جميعاً مضطرون . نحن نشق بأيدينا في لحمنا ، ولكنه الحل الوحيد والاذهبنا كلنا . هذا المجنون المسمى صدام حسين هو الذي وضعنا جميعاً أمام هذا الاختيار المستحيل . ماذا تنتظر منا أن نفعل ؟ هل تعلم ما معنى أن تقطع الماء عن ناس في صحراء ؟ كأنك تضربهم بالرصاص . وهو يريد قطع الماء عن الأمريكيان والغرب . النفط لهم كالماء لنا . هل تتصور أنهم سيسمحون له بالسيطرة على شريان حياتهم ؟ هل تعرف ما معنى الأمريكيان والغرب ؟ هل تعرف ما هي قوتهم ؟ إن لديهم ما يكفي لتدمير الأرض بمن عليها وما

عليها عدة مرات . هل تظن إنهم ستركبون هذا المجنون يتحكم فيهم ؟
مستحيل . سيضربونه سيضربونه . ونحن إما معهم أو ضدهم . لا يوجد
حل وسط . لا يوجد رمادي . أنت معهم فتتجو معهم أو ضدهم فتتفرق فيمن
سيفرقون . ولا يوجد من يستطيع تحمل مسئولية إغراق شعب بأكمله . هو
مجنون يفرق شعبه إن أراد وشعبه يتركه يفعل ما يريد . لكننا لسنا مجانين ،
ولا نستطيع أن نقف في مواجهة الإعصار . علينا أن نتعني وأن نتبطح
أرضا إن لزم الأمر حتى يمر هذا الإعصار . هل تفهمني ؟

- نعم أفهمك . أنتم لا تستطيعون الوقوف في وجه الإعصار . لكني
أنا أستطيع . ماذا أملك أنا كي أفقده ؟ لا شيء . ولا يوجد من يستطيع
إيذائي ؛ لا أنتم ولا أمريكا ، لأنني لا أهتم . أنا لست ناضجا مثلما تقول .
ولكنني على الأقل لست جباناً مثلكم ، ولا أتشبث بذيل الحياة الذليلة التي
تعلقون بأطرافها ولا تتألمونها أبداً . أنا لست مثلاً نساء خطاي ، أنا حر ،
حر . وأنا أستطيع أن أقول لا لأمريكا وأن أقول لا لكم . ماذا ستأخذون
مني ؟ حياتي ؟ حياتي التي ستأخذونها ليست ملكي أساساً والآن ما استطعتم
التحكم فيها هكذا . لكنني في ذات اللحظة سأسترد منكم حياتي . تلك التي
أمتلكها وأستطيع السيطرة عليها ، حياتي أنا ، ملكي أنا . أسترد حريتي
واحترامي لذاتي التي تحتلونها .

اليوم أقولها لكم عالية كالرماساة التي ستقتلونني بها اخرجوا ،
اخرجوا من حياتي . اخرجوا مني ، ودعوني وحدي ، أموت في حريتي رجلاً ،
كامل الإرادة والإنسانية ، لا يعلي عليّ خطواتي سوى ضميري ، أرى الحق
حقاً وأتبعه والظلم ظلماً وأنفضه . اذهبوا أنتم لسادتكم واركبوني سيداً على
بقايا روحي . لعنة الله عليكم . أضدتم حياتي من الخارج ، والآن تريدون

التسلل إلى داخلي لإفساد ما بقي لي في . والله لا يكون هذا أبدا . تركت لكم الشوارع والمباني لتفسدها مثلما أردتم ، ولكنكم لن تطولوا نقاء روحي ما دمت حيا .

صمت القائد القاضي . نظر إلى أوراقه وإلى سحببات الغبار في الصحراء من حوله . ثم تمت بصوت خفيض :

- أهذه أقوالك الأخيرة ؟

* * *

- أنا رزق عبد الله . كنت راميا بالشرطة العسكرية آنذاك . وكنت واحداً من الثلاثة الذين كلفوا بتنفيذ حكم المحكمة وإطلاق الرصاص على الجندي فخر الدين عيسى . نحن الثلاثة من أمهر الرماة في السلاح . لا نخطئ البتة . وقد سبق لنا تنفيذ أحكام مشابهة . وجرت العادة على أن يتم حشو طبنجاتنا نحن الثلاثة من قبل القائد . بضع طلقات حقيقية في أحد الطبنجات وهي الأخرتين «فشلنك» . ونطلق ثلاث مجموعات متتالية من الطلقات . لا يمكن أن يفلت المحكوم عليه من الموت . ولكننا لم تكن نعرف من الذي نفذ الحكم فعليا . المقصود من ذلك هو راحتنا النفسية . ولكننا لم تكن نهتم في الواقع . الموضوع كان يتم بسرعة وكأننا نعمل تدريب رماية بالإضافة لأننا لا نعرف عن المحكوم عليه سوى اسمه . وأحيانا حتى لا نعرف اسمه .

- وما الذي حدث يوم إعدام فخر الدين ؟

- الذي حدث بالضبط أن المحكوم عليه كان مربوطة أمامنا في الساري . على بعد عشرة أمتار . وطبعاً كان ممصوب العينين . صدر لنا أمر التنفيذ بعد تلاوة الحكم ، هرفعنا «الطبنجات» ونشنا . صدر لنا أمر الضرب في

مقتل فخر الدين نفس اللحظة التي وقعت فيها الصواريخ على القاعدة . ربما تذكر هذه المرة التي أصابت فيها صواريخ سكود العراقية الظهران . لقد أحدثت إصابات فادحة في معسكر الأمريكان وفي القاعدة بتاعتنا . صدفة غريبة! هذه كانت المرة الوحيدة التي أصابت فيها هذه الصواريخ العمياء أحدا . لما الصواريخ ضربت القاعدة أحدثت إصابات جامدة مثلما قلت لسعادتك وحدث ارتباك شديد . أنا شخصيا لم أطلق النار ، ولا زميلي الذي كان على يميني الذي انبطح على الأرض مع بداية صوت الانفجار . ولكني أذكر أنني سمعت صوت إطلاق النار من زميلنا الثالث قبل صوت انفجار الصواريخ مباشرة . بعد ذلك حدث هرج ومرج شديداً وقتل جنود كثيرون والقاعدة دمر معظمها ، وطبعاً لم يعرف أحد ما الذي كان يجري بالضبط . حتى الطينجات بتاعتنا فقدت وزميلنا الثالث مات في الحادث .

في اليوم التالي كانت الأمور بدأت تستقر قليلاً وبدأت جهود الإنقاذ . ساعتها لم نجد فخر الدين ، أفصد جثته . وكان هناك حفرة كبيرة مكان الساري الذي كان مربوطاً إليه وحولها أنقاض ضخمة وبقياء أحد الصواريخ . طبعا لا أحد يعرف ماذا حدث بالضبط ، ربما دفن تحت الأنقاض . لا أحد يعلم .

- ولكن الرصاصات التي أطلقها زميلك الثالث ألم تقتله ؟

- لا أحد يعلم أين كانت الطلقات الحقيقية . ربما قتله رصاصات زميلي

الثالث ، ربما قتله الصواريخ ، ربما مات تحت الأنقاض ، ربما لم يقتل . لا أعرف .

* * *

- لا يا سعادة البك . ربنا لا يرضى بالظلم أبداً . وما حدث لفخر الدين

ولكل العساكر كان ظلماً .

اقترب مني خليل وهو جالس على فراشه . كان الفراش الممدني يثر .

وكان الجوّ حاراً خانقاً داخل الغرفة الصّاح .

- عندما اقتادوا فخرالدين لساحة التنفيذ ، كنّا كلّنا تكاد نموت داخل الخيام والعنابر ، وراح جماعة من العساكر تكلم القائد وتستسمعه . لكنّه قال إنّ الحكم صدر وصدق عليه قائد القوات . أشرف فهمي راح قابل فخرالدين بتصريح من القائد وحاول إقناعه بتقديم التماس بالعفو عنه ، لكنّه عاد وهو يبكي . كنّا كلّنا قاعدين في العنابر مثل التائهين . لم تكن نصدق ما يجري من حولنا ، وعندما سمعنا صوت الرصاص انفجرنا في البكاء ، لكن الانفجار الأقوى تلي . وتتابعت الانفجارات ، وصار النهار ليلاً والليل نهاراً ، وكنّا القيامة قامت من اهتزاز الأرض تحتنا وسقوط أسقف العنابر فوقنا . هذا غضب الله . وجرى من استطاع الجري منا وسمل الحجارة المتساقطة من كل صوب ، وكانت بيوت الضباط تنهار وأصوات سيارات الإسعاف تأتي من معسكر الأمريكان . جريت ناحية ساحة التنفيذ فشاهدت فخرالدين مقيداً في الساري وعيناه معصوبتان . كان الضرب مستمراً والسماء تمطرنا بقذائف وطلوب . وتزلزلت الأرض بنا وشاهدت بعيني فخرالدين يعلو أمامي في الهواء وحوله ضوء مسلط . ظل يعلو ويعلو حتى اختفى من أمام عيني وشعرت بخبطة قوية على رأسي . وعندما أفقت وجدت نفسي في المستشفى الملكي العسكري .

الجمعة الحزينة

«رأيت على الجسر أندلس الحب والحاسة السادسة
على دمة يائسة
أعادت له قلبه
وقالت :
يكلفني الحب ما لا أحب
يكلفني حبه
ونام القمر على
خاتم ينكسر
وطار الحمام
وحط على الجسر والعاشقين الظلام ...
يطير الحمام
يطير الحمام

محمود درويش

اختلجت عضلات وجه فخر الدين وحرك ذراعيه في الهواء وهو يحاول أن يجد الكلمة المناسبة . كان يخشى أن يجرح إحساسها بكلمة لا يقصد معناها ، وكان هذا الحرص يمنعه من الانطلاق في الحديث كماداته .

- أنا أحتاجك يا شيرين بالقرب مني ، لا أستطيع الاستغناء عن وجودك . سميه نوعًا من الارتياح الشديد ، نوعًا من الصراحة والوضوح والشعور . إنك أنت نفسك ، إحساس العثور على روح يمكن أن تهكمك ، وتهتم بك . هل تفهمينني ؟

خففت شيرين عينيها وهي تهرب من سهام عينية المتسائلة في صراحة . ما هذا الكائن الغريب لا يتصل بي في منتصف الليل ويوقظ البيت كله لكي يقول لي إنه يريد لقائي لأمر عاجل ؟

- ألا يمكنك الانتظار إلى يوم السبت وتقابل في المحكمة ؟

- في المحكمة أقول لك أمر عاجل . لو كان عليّ كنت جئت إليك الآن في بيتكم

- لا لا ، لا داعي للتهور يا صديقي . أراك غدًا في الثانية بعد الظهر .

مقد ساعة وهو يتكلم ولا يقول شيئًا . يتكلم عن المواقف وعن العلاقات الإنسانية والحب ، ولا يقول شيئًا محددًا . هل الارتباط يمثل هذا الرجل ممكن ؟ هل أحبه ؟ هل يريد الزواج مني ؟ ولكنه لم يقل لي ذلك أبدًا . هل يمكن الارتباط به مع كل جنونه هذا ؟ لا أدري . ليته لم يحدثني من الأصل . هناك أشياء كثيرة تشدني إليه وأحيانًا أشعر أنني لا يمكنني الاستغناء عنه ، وأحيانًا أخرى أخاف منه ومن حديثه وأشعر أنه من عالم آخر . لماذا لا يحاول أن يكون أكثر تعقلًا ؟

- هل تسمعينني يا شيرين ؟

- أم أم . طبعاً أسمعك .
- يبدو من شكلك أنك لست معي إطلاقاً .
- يا سيدي قلت لك مائة مرة إنني أسرح بعيني فقط ، لكن ذهني كله مركز معك . أكمل أكمل .
- ما رأيك أولاً فيما قلته ؟
- هزت شيرين كتفيها وتحولت بعينيها إلى برج شيراتون الجزيرة القابع في قلب النيل .
- ماذا تريدني أن أقول ؟
- أريدك أن تقولي رأيك فيما قلت لك .
- تعمت شيرين في ضيق :
- لماذا لا تكمل حديثنا ونحن في الطريق ؟
- عبر فخر الدين وشيرين أسفلت شارع الكورنيش الضيق ، مرا في صمت أمام مطعم سويس إير .
- تعرف (أختي لها صديقة ساكنة في هذه العمارة .
- تخيلي لا بد أنها لا تخرج من الشقة أبداً ، على الأقل ليست في حاجة إلى الخروج للمشي على النيل ، يكفيها الجلوس في شرفة البيت لترى النيل كله تحت قدميها .
- فعلاً المنظر من الشرفة جميل ، لكن الشقة نفسها تجنن ، واسعة جداً وأنيقة جداً .
- دعك من الشقة هل تعرفين ما معنى شرفة على النيل ؟
- طبعاً ، ولكنك لن تقضي ليلة النهار في الشرفة !
- صعدنا قليلاً وسارا ، همس فخر الدين :

- نرجع إلى موضوعنا ، ما رأيك في كلامي ؟ هل تفهمين يا شيرين ، أنا فعلاً في حاجة لأن أراك دائماً ، لأن أتحدث إليك دائماً . أشكو إليك وأخرج منك وأحلم منك . كأنك فتحت باب روحي إليك فسالتي ولا تتجمع إلا بين يديك . لم أعد أستطيع ألا أراك إلا وأنا على موعد لأراك . أستجمع كل ما يحدث لي كي أحكيه لك عندما أراك ، وأحتمل كل ما ألقى كي أتلك وأضعه بين عينيك . هل تفهميني ؟

أحمر وجه شيرين . وقتت والتفتت للطريق :

- لا بد من أن أعبر الشارع وحدي .

شارع مراد غاص بالسيارات التي تقطع نهار الجمعة في الشوارع وتسرع قبل بداية المباراة . عبرت شيرين الطريق وحدها يتبعها على مسافة قصيرة فخرالدين . لم يفلح إصرار فخرالدين خلال الشهور الثمانية الماضية في إقناعها بأن يعبر الطريق معاً .

- لا محل للنقاش ، هذا طريق الذهاب والإياب من بيتنا ، ولن أتحمل أن يراني أحد معك في الشارع .

عند تمثال نهضة مصر التقيا ثانية :

- فخرالدين ، أنا فعلاً تأخرت ولا بد من أعود حالاً للبيت .

- وكلامنا ؟

- تكمله فيما بعد . أنت تعرف الظروف . فعلاً يجب أن أعود الآن . سلام .

نظر إليها فخرالدين وأغمق لون وجهه ولم يجب . ابتسمت شيرين :

- لا ، أرجوك لا تودعني بهذا الوجه . ابتسم يا رجل ! سأحاول أن أبقى

معك غداً بعد المحكمة . ابتسم من أجلي .

- كيف ابتسم إن شاء الله وأنت تذهبين دون أن تكمل حديثنا ؟

- سماح يا فخر الدين ، من أجل شيرين . لا أستطيع أن أذهب وأنت
مكثرت هكذا ويجب أن أذهب .

اجتهد فخر الدين في استحضار شبه ابتسامة على شفثيه فالتقطتها
شيرين والتفتت بسرعة للشارع . أوقفت بإشارة وانحناءة و « مهندسين ؟ »
أحد التاكسيات . التفتت إليه وابتسمت ولوحت بأصابع كف يدها . انطلق
باب السيارة عليها وهر بها مخلطاً عاموداً من دخان أبيض . تابع فخر الدين
رأس شيرين وكنتيها من الزجاج الخلفي للسيارة حتى اختفت عند نهاية
الطريق أمام الجامعة . عاد بضع خطوات للوراء حيث الموقف ، ووقف
يفتظر الأوتوبيس

* * *

« يطير الحمام

بحمد الحمام

أعدى لي الأرض كي أستريح

فإني أحبك حتى التعب ...

صباحك فأكهة للأغاني

وهذا المساء ذهب

ونحن لنا حين يدخل ظل إلى ظله في الرخام

وأشبه نفسي حين أعلق نفسي

على علق لا يمانق غير الغمام

وأنت الهواء الذي يتعري أمامي كدمع العنب

وأنت بداية عائلة الموج حين تشبث بالبر

حين اغترب

واني أحبك . أنت بداية روحي وأنت الختام

يطير الحمام

يحط الحمام ،

محمود درويش

« من أوراق فخر الدين »

* * *

قالت لي منار في شروء :

- كانت شهرين لمأحة الفهم وذكية . ذكية القلب والنفس منتعشة الروح
متفتحة . كانت كطفلة رائحة بها شقاوة وحلاوة وخفة دم . وكانت كأم مطمئنة
بها حنان وسماحة وغفران لا نهائي . كانت كمراهقة في مدرسة بها تواطؤ
مع زميلاتها . كانت نقية بريئة كراهبة . وجد فيها فخر الدين أرضاً مباركة
يستطيع أن يحط فيها في أمان وأن يريح فوقها جناحيه المنهكين من التعب
ومن الطيران بلا جدوى . واستطاع فخر الدين أن يهدأ عندها ، وأن يُخرج
رأسه من ريش كتفيه وصدره ، وأن يرفع منقاره الذي كان قد نسيه ، وأن
يرى الزرع الثابت في أرضها ينمو شجراً ونخيلاً وورداً . واستطاع الطير
أن يبدأ . كانت شهرين حبيبته . استطاع حناها أن يجد المنفذ للخروج
واحتواء هذا القادم من السماء ، واستطاعت رجفتها ورعشتها أن تجد
الجفاحين الخفافين اللذين يملآن سماءها ويظلان أرضها ، واستطاعت
أن تجد الطفل الصغير الذي تسند به ركبته ليحكى لها آخر النهار عن
شجته وعن أمه وعن حلمه ، واستطاع حلمها المشتت الضال أن يجد شكله
وحدوده وأن يتماسك ويتهدى . وعبر أيام وشهور حيهما بدا الزمن وكأنه قد

مقتل فخر الدين . . .
 بدل سرعته وتباعدت ذكريات ماضية وكأنها كانت تخص أناً آخر في
 عوالم أخرى . وهُيئ لفخر الدين أن الأرض قد استعدت أخيراً ليهبط ويحبها
 فيها . . . واستطاع القلب أن يهدى لناقذة تحينه الأكيدة . ها هي تناديني
 فاستعدي يا نفس ، ودثريني يا زوجة القلب كي لا أنطفئ مرة أخرى . كي
 أمر في موقعتي الأخيرة في حربي الأخيرة . زميليني بدثار من حنان قلبك
 واشتمالك عليّ وامتلاكك أطراف روحي التي بعثها التراب والأعداء .
 دثريني وشدي قوس روحي باكتمالنا . إني أت إليك يا أرضي علّني أجد
 الحياة فيك أخيراً فخذيني إليك . . . وكان فخر الدين سيد قلبها وقائد حلمها
 ونبع اطمئنانها .

صمتت منار ونظرت إليّ . كان وجهها صافياً وشفافاً . أشاحت بوجهها
 إلى النافذة . نظرت إليها . كانت عنهاها مفروقتين بالدمع .

* * *

« أنا وحببي صوتان في شفة واحدة
 أنا لحيبي أنا ، وحيبي لنجمته الشاردة
 وندخل في الحلم ، لكنه يتباطأ كيلاً نراه
 وحين ينام حبيبي أصحو لكي أحرس الحلم مما يراه
 وأطرد عنه الليالي التي عبرت قبل أن نلتقي
 وأختار أيامنا بيدي
 كما أختار لي ورد العائدة
 فنم يا حبيبي
 ليصعد صوت البحار إلى ركبتي
 ونم يا حبيبي

لأهبط فيك وأنقذ حلمك من شوكة حاسدة

ونم يا حبيبي

عليك ضفائر شعري ، عليك السلام

يطير الحمام

يحط الحمام ،

« محمود درويش »

« قصاصة من خطاب

من شيرين إلى فخر الدين »

* * *

كانت محكمة الجيزة الابتدائية غاصة بالجمهور . الجو بارد بالخارج .
أصحاب القضايا ينتظرون دورهم عند الباب الخشبي الضخم الذي يفصل
القاعة عن الصالة الخارجية . حلقات من المتخاصمين حول محاميهم
وأوراق مكدسة في الملفات تحت إبط الوكلاء . مر فخر الدين إلى غرفة
المحامين بصعوبة وسط الزحام . أشار له ملاء المحامي برأسه فأجاب
الإشارة ومضى داخل الغرفة . كانت شيرين جالسة أمام المنضدة الطويلة
المغطاة بالجوخ الأخضر وواضحة أوراقها أمامها . بدت خصلة شعرها من
فوق الروب الأسود الضخم . رفعت رأسها فترأت فخر الدين . برقت عينها
وانبسطت ملامح وجهها . قالت له هي تهكم :

- خير ؟ كسبت ؟

- الحمد لله .

- وطيفاً كالمتعاد ؟

ابسم فخر الدين هي تهكم هو الآخر :

- طبعًا .

- أمرك غريب جدًا .

- ولم ؟

- لأنك تستطيع بإشارة منك أن تشتم للمكتب الذي أعمل فيه وتكسب عشرة أضعاف ما تتقاضاه الآن . هذا إن كنت تتقاضى شيئًا أصلاً .

ضحك فخر الدين :

- معك حق في هذه النقطة فقط . فهذه قضية مجانية . حتى مصاريف القضية لم تستطيع السيدة المسكينة أن تجمعها كلها .

- وطبعًا حضرتك دفعتها ؟

اعتذرت شيرين في جلستها ونظرت لفخر الدين :

- اسمع ، أنا أكلمك بجد . أنا لست ضد أن تأخذ قضايا مجانية من حين

لآخر ، لكن مستحيل أن تكون هذه هي القاعدة !

- وما العمل إذا كان المظلومون عادة لا يملكون مالاً ليدفعوه لي ؟

- أولاً ، لا يوجد أحد لا يستطيع تدبير المال اللازم للدفاع عن حقه . أكيد

هؤلاء الناس يأكلون ويشربون ومن ثم يمكنهم توفير المال عند الضرورة ،

ثانيًا ، أنا لا أطلب منك ألا تأخذ هذه القضايا على وجه الإطلاق وإنما على

الأقل يجب أن تضمن نفسك ، ولنا إن شئت ، حدًا أدنى . والا كيف نعيش ؟

- نعيش مثلما أعيش الآن ، هل ترين أنني ميت لا سمح الله ؟

- أنا لا أهدر يا فخر الدين . نحن نحتاج لمال ، ليس من المفروض أن

أقول لك أنا هذا الكلام . ولكن إذا كنا نتوي البقاء معًا بشكل أو بآخر فذلك

يعني كمية لا بأس بها من المال . بعد ذلك ، عندما نصبح معًا يمكنك أن

تعمل ما تشاء . ولكن الآن يجب أن توفر هذه الكمية . وبالطريقة التي تعمل

بها لا يبدو أننا سنتمكن من ذلك أبداً . المفروض أن تكون أكثر حرصاً مني على ذلك ، هذا إذا كنت تريدني معك طول الوقت مثلما تقول . أنا لا أطلب منك أن تتحول إلى مصاص للدماء أو أن تتخلى عن قضيتك أو عن المظلومين ، ولكن أطلب منك بعض التعقل ، وبعض الواقعية . يمكنك أن تجمع بين الأمرين ، يمكنك أن تعمل في مكان مثل مكتبنا تحصل منه على دخل كبير وفي نفس الوقت تستمر في قبول مثل هذه القضايا شبه المجانية . بل إنك ستصبح أقوى وأقدر على خدمة المظلومين عندما تكون ظروفك أحسن . على الأقل أفعل ذلك لفترة معينة تثبت فيها مكانتك وشهرتك كمحام وتحصل على دخل يمكنك من الاعتماد على نفسك وفتح منزلك ومكتبك الخاص وبذلك تكون متوازناً أكثر وعنصرًا فاعلاً في الحياة بثقة وقوة وليس كالفريق الذي يحاول النجاة وانتفاذ الآخرين في نفس الوقت .

سمعت شيرين لحظة ونظرت إلى فخر الدين الذي كان ساهماً :

- عن إذنك ، يجب أن أذهب الآن للبيت .

« أراك ، فأنجو من الموت

جسمك مرها

بعشر زنايق بيضاء ، عشر أنامل تمضي السماء

إلى أزرق ضاع منها

وأمسك هذا البهاء الرخامي ، أمسك رائحة للحليب المغبأ

في خوختين على مرمر ، ثم أعبد من يفتح الهر والبحر ملجأ

على ضفة الملح والعسل الأوليين

سأشرب خروب لهلك

ثم أنام

على حنطة تكسر الحقل ، تكسر حتى الشهيق فيصدأ

أراك فأنجو من الموت . جسمك مرقأ

فكيف تشردني الأرض في الأرض

كيف ينام المنام

يطير الحمام

يحط الحمام .

محمود درويش

« من أوراق فخر الدين »

* * *

النيل يجري في هدوئه الليلي . ارتطام الماء بالعائم الحجري يحدث صوتًا خفيًا كالخزير . شارع أبو الفدا غارق في ظلام أضواء سيارات متاعدة تمرق على أشجار الرصيف وأزواج العشاق المتناثرين على السور الحديدي المشبع بالليل وبالنيل . عينا فخر الدين مرّت من الشجر إلى الشجر إلى الجبين إلى عينين متسعيتين يسحبانه إلى قاع النيل . تفرق نظرتيه في هذا البحر المتلاطم الحنان ويستمر في الهبوط إلى عمق لا نهائي العيون . تتسع المينان وتطبقان في خضر على نظرتيه فلا يرى سوى حذقتين عسلتين تغمزانه بحرارة هادئة ودفاء . ترتعش نظرتيه وتفرق أكثر وأكثر . صمت شامل وغياب . لا أحد يجسر أن يخرج من هذا الأمر العاشق المتعشق . لمست أصابعه أطراف أناملها فارتعد جسمه كله بتبار من الأخذ . اقتربت أصابعه أكثر من حواف أصابعها والتصقت . تداخلت أصابعه في أصابعها التي ينساب من بينها أنهار من عطر الماء . اجتاحت

أصابه أناملها وانهمرت مطرا في راحة يدها المشتعلة بالحنو الذي غمر
كفيه الفارقتين المستسلمتين في حب مومن يفيض على الكفين المتداخلين
ويقطر من عمق عينيها العطش إلى انهيار عينيه فيهما ارتواء .

- يا أيتها المقدسة : حين يفتح النهار يومي ، تشق الشمس صدري
وتخرج قلبي وضلوعي ، وتركني أمضي في الدنيا مفرغ الصدر ، أحتاج
ملأك لي ، أحتاج أن أضحك فأملأ هذا الفراغ في وأعود للحياة .
- لا أستطيع .

- يا معبودة القلب الصغير الصغيرة : هل يخضع الإله لشرعه الذي
من لعبده؟

- لا تراوغ الكلمات ، لا أستطيع .

- يا واحتي الخضراء ، لا تتركيني أموت على حوافك في صحرائي
القاحلة ، أرشديني إلى دربك وضميني إلى نخيلك وعيون ما لك .
- لا أستطيع .

- يا وطني : سفني الضالة منذ الخليقة تبحث عن مرافقتك ، لا تردني
عنك ، أريد الرسو إليك أريد الرسو .
- لا أستطيع .

- هل تتركيني إذن أذوب عشقا وأنحل شوقا وأذوي سدي؟
- ألا تفهم أنت أني لا أستطيع ؟ أرضي التي شقق العطش طينها تحلم
بمائك يرويهها وينمرها ، بخفقة جناحك في سمائها ، تحتويها ، يحطتك عليها
وانضمامك . أنا الواحة التي تجرت عيونها فواكها تشتاق لعطشك وجفاف
يدك وهي تحصدها ، أنا التي تموت خضرتها لصحرائك . ولكني لا أستطيع .

* * *

«إلى أين تأخذني يا حبيبي من والدي

ومن شجري

من سريري الصغير ومن ضجري ،

من مراياي من قمري ،

من خزانة عمري ومن سهري ،

من ثيابي ومن خفري ؟

إلى أين تأخذني يا حبيبي إلى أين ؟

تشعل في أذني البراري ، تحملني موجتين

وتكسر ضلعين ، تشربني ثم توفدني ،

ثم تتركني في طريق الهواء إليك

حرام ... حرام

يطير الحمام

يحمل الحمام

محمود درويش

«من رسائل شيرين التي

عُثِرَتْ عليها في أوراق فخر الدين»

* * *

صعد فخر الدين السلالم الرخامية الواسعة ، طراوة وبرودة خفيفة

تبعث في العمارة كلها ، البواب الأسمر بعمامته البيضاء يلاحقه بنظراته.

الدور الثالث ، وقف المصعد ، دفع فخر الدين الباب الحديدي العتيق

وتقدم إلى شقة 9 ، تنحصر اللافنة النحاسية الصغيرة المعلقة على الباب.

المهندس حسن محمود ، تاهت أفكار فخر الدين فجأة كأنما انمحت ، تك

المصعد تكة عالية في الصمت ثم بدأ هبوطه . حدى فخر الدين في اللافتة مرة أخرى وبلغ ريقه . مد يدا متردده إلى زر الجرس . لمسه فانبعث على الفور لحن من زقزقة العصافير المزيفة . قلبه بفوص ويكاد يختفي . انفتح الباب وظهرت فتاة مشعة الشعر رثة الثياب . بقعة كبيرة من البلال على بطن فستانها ويداهما النحيلتان بهما آثار صابون .

- المهندس حسن محمود موجود ؟

أومأت الفتاة برأسها .

- من فضلك أبلغه أن فخر الدين عيسى يريد مقابلته .

تركته الفتاة واقفا وغابت قليلا . انشقة تبدو مظلمة من الخارج . خشب بني يكسو الجدران وزاوية بيانو أبيض تبدو في الداخل . انسحب الباب بالتدرج حتى انقلب في وجه فخر الدين . ظل واقفا لحظة في ظلام الردهة ثم انفتح الباب مرة أخرى .

- تفضل .

دخل فخر الدين . تركته الفتاة في الصالة ودخلت . ظل واقفا لحظة في الصالة ثم دخل إلى الصالون المواجه . الصالون مذهب المقاعد واللوحات وصور أفراد العائلة . صورة لشيرين وهي في المدرسة الثانوية . ساحرة مثلما هي . مكتبة خشبية ملأى بالتحف الصغيرة . وقع خطوات في الردهة . ظهر المهندس حسن محمود بطلعته المهيبة في روب قاتم اللون . لا شبه في ملامحه من شيرين . مد المهندس حسن يده الكبيرة لفخر الدين وشد على يده . شعرات بيض نابئة في ظهر يده . جلس الرجلان في صمت ثم افتتح المهندس حسن الكلام .

- أهلا وسهلا . لقد كلمتني شيرين عنك . الحقيقة أنني أفضل أن ندخل

في الموضوع مباشرة . تفضل ، أنا أسمعك .

كح فخر الدين كي يسلك زوره ولكنه لم يسلك . بدأ الكلام فجاء صوته غريبا ومبهوحا :

- في الواقع ، وببساطة ، أني طلبت مقابلتك لأطلب منك يد الأنسة شيرين .

تعلقت عينا الرجل بفخر الدين الذي استطرد دون أن يتنظر إليه :

- أنا مثلما تعلم حضرتك ولا بد ، زميلها بالمكتب وتعرفت عليها من خلال العمل وأعجبت بشخصيتها ، ولما تيقنت أنها الإنسانية التي يمكن أن تشاركني حياتي ، جئت لأقابلك لأطلب يدها .

- جميل هذا الكلام قالته لي شيرين . لكني أريد أن أسمع منك تفاصيل .

ابتسم فخر الدين ابتسامة شاحبة وهز كتفيه :

- أكيد سعادتك تعلم أني محام ، في أول حياتي ، من عائلة ريفية ، والدي ووالدتي توفيها وأنا صغير . بقية العائلة تعيش في الريف لكن علاقتنا للأسف منقطعة منذ مدة طويلة .

صمت فخر الدين هنيهة ونظر إلى المهندس حسن . أكمل :

- أنا أحب شيرين جدا وأحترمها ، وأحترم شخصيتها ...

صمت فخر الدين . نظر المهندس حسن إليه نظرة فاحصة . قلب

حاجبيه قليلا . مرت لحظة صمت قطعها متسائلا :

- ماذا عن وضعك المالي ؟

- عادي . مثل أي شاب يبدأ حياته . أعتقد أننا سنواجه بعض المصاعب

المالية في البداية ، لكني أعتقد أن هذه مسألة ثانوية .

- بمعنى ؟

- بمعنى أن نمط الحياة الذي أريده للنفسى ولشيريون يحتل فيه المال أهمية ثانوية. المهم فيه هو الرضا عن النفس ، عما تفعل وعن حياتنا ككل .
بالإضافة إلى أن المشاكل المالية ستقع علينا نحن الاثنين ومن ثم ستوحدنا ولا تفرق بيننا ، عكس المشاكل التي تنشأ من اختلاف الشخصيات والتي تكون بين الزوج والزوجة كليهما .

ابتسم المهندس حسن لأول مرة ابتسامة قصيرة ثم أوما برأسه مجيباً:

- كلام جميل واضح أن لك مستقبلاً في المحاماة . لكنني أسألك عن وضعك المالي ، عن مركز الاجتماعي ، عن وضع عائلتك مثلاً ، أين هم ؟ ماذا يفعلون بالضبط في بلدكم ؟ هل سيأتون ليضعوا يدهم في يدي أم ما هو الوضع بالضبط ؟ هل عندك شقة أم لا ؟ ما هو دخلك بالضبط وهل سيممكنك من فتح بيت وتحمل مسئولية زوجة وأولاد ... إلى آخره . فهمتي ؟
- نعم فاهم قصدك ، لكنني لا أفهم علاقة هذه الأسئلة بطلبي .

مال المهندس حسن على فخر الدين برأسه ودقق النظر في وجهه وهو يهز رأسه غير فاهم :

- لا تفهم علاقة ماذا بماذا ؟

عاد بظهوره للوراء واستند إلى مقعده الخشبي . استطرد في تهكم :

- حضرتك ناوي تتزوج في شقة أم في الشارع ؟ أعتقد أن هذا سؤال له علاقة مباشرة بطلبك !

- الواقع أنني أسكن حالياً في شقة صغيرة في بين السرايات .

- بين السرايات ؟

- نعم .

- حضرتك جاي تهرج؟

ضافت ملامح فخر الدين :

- أنا لا أرى أي تهرج في الموضوع .

قام الرجل من على مقعده وخطا خطوتين نحو باب الغرفة . استدار وهو

يدق الأرض بقدمه برتابة :

- حضرتك لا ترى أي تهرج في الموضوع؟ شيء جميل جدا . إذن أنت

قادم من الشارع لتطلب مصاهرتي ، بلا عائلة ولا أهل أي بالضبط من

الشارع . وطبعاً لا تحتكم على ملهم أحمر لأنك شاب تبدأ حياتك ، وستأخذ

ابنتي لتميش معك في عشة في حواري بين السرايات ، أما المال فليس نعت

حياتك ولا من اهتماماتك . ومتوقع أعطيك ابنتي؟

أطرق فخر الدين لحظة ثم رفع رأسه :

- أنا لا أتوقع أن تعطيني أي شيء .

- لا أفهم!

- أي أنني تعرفت على شيرين وأعجبت بها وأريد أن أكمل حياتي معها .

ونظراً لأن التقاليد تقتضي موافقتك فقد جئت لأحاول الحصول عليها .

لكن من الواضح أنك حددت موقفك من قبل أن تراني وفقاً لمؤشرات المال

والمركز الاجتماعي . ولكن الحقيقة أن شيرين ليست فاصراً ولا ولاية لك

عليها . وموافقتها هي الفاصلة لا رأيك أنت .

ضغط الرجل على فكيه بشدة واحمرت وجنتاه . قبض بيده على زاوية

الكرسي وأخذ نفساً عميقاً :

- طيباً أنا غير موافق . والآن تفضل اطلع بره .

* * *

- لا بد أنك جفنت!

- اسمعيني يا شيرين ، فقط توقفني عن الانصياع لأحكامك المسبقة
وكلميني مثلما أكلّمك . أنا أحبك ، وأنت؟
- أحبك .

- وأنا أريد أن أعيش معك بقية حياتي . وأنت؟

- أريد أن أعيش معك بقية حياتي .

- إذن ما دخل أليك في الموضوع؟ أنت الآن عمرك 24 عاما . أي لست
قاصرا منذ ثلاث سنوات . وأنت محامية ولست جاهلة ولا في احتياج لغيرك .
لا نحتاج مساعدة أهلك في شيء .

- هذا كلام نظري يا فخر . نحن لا نعيش وحدنا في الدنيا . ماذا تظن

أنني سأفعل؟ أهرب من البيت في الفجر وأتي إليك؟

- لا ، لا أريد منك ذلك ، لكنني أريد أن أقولي للمسيد والدك إنك قابلت
الرجل الذي سترتبطين به ، ثم نتقابل أنا وهو للتعارف لا أكثر .

- أي فيلم هذا؟

- وما الفيلم هي ذلك؟

- الفيلم أنني لا أستطيع يا فخر الدين .

- يا شيرين افهميني . لا أبوك ولا أي أحد آخر ممكن يعرفني أكثر منك

أن أطلبه أو يستطيع الحكم على أفضل منك . إذن لا معنى لأن أطلب الزواج
منك من شخص آخر . ثم إن ذلك أسلوب غير محترم أن أذهب لشخص لا
أعرفه لأطلب منه أن يعطيني ابنته كأنها جوال بطاطس!

- لا بد أنك فعلاً جفنت! نحن نعيش في مجتمع يا حبيبي ، وهذا المجتمع

له قوانينه وله تقاليده المفروضة على أعضائه سواء أعجبته أم لا . إذا

كنت تعيش وحدك ممكن تعمل ما يحلو لك ، لو كنا نعيش في بيتنا كنا فعلنا داخله ما يحلو لنا ، لكن لكي نحصل على هذا البيت لا بد من أن نمر من النفاق ، لا بد من أن نخضع لقوانين المجتمع .

- أنت تعلمين جيدا أن هذا غير صحيح . وعمليا ما الذي يمنعنا من أن نذهب الآن للمأذون ونكتب كتابنا؟

- الذي يمنعنا أني لا أستطيع!

- إذن المسألة ليست مجتمع ولا قوانين وإنما مسألة أنك أنت لا تستطيعين تحدي سلطة أبيك بالرغم من علمك بمساوئها عليك .
- ربما ، ولكني لا أستطيع .

صمت فخر الدين وأطرق ناظرا إلى الأرض . مستطيلات البلاط الرمادي تمتد بلا نهاية على الرصيف . عاد ضجيج السيارات مرة أخرى إلى وعيه بعد أن كان مختفيا . كوبري القصر العيني ينوء بمساراته المندفعة إلى المنيل . شاب قصير القامة في كابينة التليفون أمام مستشفى القصر العيني يتحدث في التليفون وهو مستند إلى جدار الكابينة الأزرق . وقفت أمامه ثلاث نسوة متشحات بسواد وممسكات بورقة بيضاء صغيرة ينتظرن خروجه من الكابينة .

- اسمعيني يا شيرين .

عاد فخر الدين بوجهه لشيرين التي تيبست عضلات وجهها على تعبير من الضيق .

- حتى لو وافقتك على الذهاب لمقابلة أبيك وطلب يدك منه ، من الناحية العملية والدك لن يفهمني ولن يقبلني . سوف يوجه إلى الأسئلة التي يوجهها كل أب إلى عريس ابنته . وأنا ليس لدي إجابات على هذه

الأسئلة يا شيرين. ماذا أقول له ؟ هل من الممكن أن يفهم أحلامنا وآلامنا ؟ خصوصيتنا وحساسيتنا ؟ الدنيا الجديدة التي نريد بناءها بنا وحولنا ؟ هل من الممكن أن يفهم والدك هذا الكلام أو حتى يرى له أي قيمة ؟ أنا لست عريسا يا شيرين ، أنا حبيب وقلب وحلم وثورة وبكرة لك ولي . كيف تترجمين ذلك إلى لغة مفهومة لأهلك ؟

ثم إن أبائك هذا هو نصف مشاكل حياتك والذي تشكين دائما من تسلطه ومن عدم تفهمه لك . ماذا تريد مني أن أقول له ؟ عن إذاك يا فتدم سأحرر أبنتك من تسلطك ؟

- يا فخرالدين ، يا حبيبي ، أنا معك في كل ما قلته . لكن يجب أن نكون واقعيين . يجب أن تفهم أنني لا أستطيع نفسيا أن أفعل شيئا من قبيل ما تطلبه مني. ممكن أتفق معك نظريا على أنه كلام منطقي . لكن لا أستطيع. هل تفهم ؟ لا أستطيع تحمل الشعور بأنني أخطأ ، أو حتى أن بابا ينظر إليّ على أنني مخطئة . لا أستطيع تحمل نظراته هذه ولا أستطيع تحمل الشعور بالذنب حتى لو أكن مذنبية . قل إنها زيادة أدب ، سمها حساسية زائدة . أو حتى تخلفا ، لكن أنا هكذا ، وثورتي تبدأ عندما نكون في بيت واحد . أكون معك وليس قبل ذلك . ثم ماذا ستخسر يا أخي لو قابلته وأرحنتي ؟ ألا تستطيع أن تفعل شيئا أنت غير مقتنع بصوابه من أجلي ؟

* * *

وضعت منار حقيبتها أمامها على المنضدة . مالت على كوب الليمون المثلج ورشفت منه رشقة وهي تنظر في الأفق . كان نادي الشمس مشمسا في عصر ذلك اليوم من سبتمبر والجو منعش . لكنها كانت حزينة ومقطوبة الجبين . نظرت في عيني فلاحظت لأول مرة اتساع عينيها وجمالهما .

اجتهدت في الابتسام وقالت :

- لا أدري ماذا أقول لك . الموضوع كان أكبر من الخلاف حول طريقة الزواج أو حول شكلياته . فقد استمرت علاقتهما بعد ذلك بشكل عادي وقررا تأجيل مشروع الزواج لحين . وكان المهندس حسن يعلم ضمناً أن شيرين لم تقطع علاقتها بفخر الدين . ولكنه كان يحاول بطرقه الخاصة أن يقضي على هذه العلاقة وفي هدوء . وقد نجح طبعاً مثلما تعلم حضرتك . ولكن الفضل في ذلك لا يرجع إلى جهوده بقدر ما يرجع إلى شيرين وفخر الدين نفسيهما .

تهدت منار قليلاً ونظرت إلى الناحية الأخرى . كانت الشمس تقترب من الغروب وتصبغ الجو كله بحمرة . عادت بوجهها إلي وأكملت :

- الموضوع كان أكبر من ذلك وأعمق ، كان اختلافاً حقيقياً . وللأسف لم يكن هناك حل ممكن .

* * *

اجتازت شيرين بوابة نادي الصيد وتطلعت حولها . كان فخر الدين واقفاً على ناصية الشارع المقابل . اقتربت منه وتبادلا سلاماً مقتضباً . توجهها في صمت باتجاه ميدان الدقي . سارا صامتتين . طويلاً . حتى الميدان . أكملتا سيرهما في شارع التحرير . الخامسة عصراً والحركة هادئة عند ميدان الجلاء . البرد والريح أقعدا الناس في بيوتهم في هذه الجمعة الحزينة . عبرا كوبري الجلاء إلى الجزيرة . على اليسار شارع أبو الفدا . انحدرا يمينا في الشارع الضيق المؤدي إلى شيراتون الجزيرة . رصيف ضيق وبلا زوا في هذا اليوم العاصف . حتى السيارات التي كانت تركن هنا عادة تركت المكان . جلست شيرين ويجوارها فخر الدين صامتتين . اجتهدت

شيرين في تصنع ابتسامة .

أوما فخرالدين برأسه ونظر إلى شيرين في عينيها . حولت وجهها نحو
شيراتون القاهرة :

- يبدو أنهم سيشتدون فندقا آخر بجوارنا

شبح ابتسامة على شفتي فخرالدين ثم وقعا في الصمت ثانية . هبت
ريح فجرفت أوراق الشجر الساقطة على الأرض الجافة بين الرصيف وبين
الزبل . أغلق فخرالدين سوستة الجاكت بينما تداخلت شيرين في بلوفرها
الصوف . همست شيرين وهي ترمق فخرالدين بعين تختبره :

- يبدو أن الدنيا كلها حزينة .

- وهل هناك أحد آخر حزين؟

- أنا!

نظر إليها فخرالدين والتفت عيناها . نظرة فخرالدين مبلة بدمع
يقطر في قلبه صمتا . تراجعت عينا شيرين . نظر فخرالدين في الأرض
بين قدميه ، ودق السور يظهر قدمه .

- فعلا حزينة؟

رق صوت شيرين :

- لماذا تقول ذلك؟

هز فخرالدين رأسه ونظر بعيدا ولم يجب . استطردت شيرين :

- هل ممكن تشك لحظة أنني أحبك؟

- أنا ...

صمت فخرالدين . رق صوت شيرين واختنق :

- لماذا لا تريد أن تهمني يا فخرالدين؟ أنا أحبك . أحبك . ولا أستطيع

تخيل حياتي بدونك . لا أستطيع الحياة بدونك . ألا تفهم معنى أن تكون كل خيوط حياتي معلقة بك؟ لقد قلبت حياتي كلها . وأنا غير نادمة على ذلك . بالعكس ، سعيدة بك وبحبك .

- أنت لا تستطيعين . ببساطة شديدة . التقليدية والمجز مترسخان بداخلك . لا تستطيعين حتى أن تتركيني أهك قيودك وأخذك .

- أنت الذي لا تستطيع أن تضحي بأي شيء من أجلي . أنت تعبد نفسك يا فخر ولا تريد أن تتزحزح قيد أنملة من أجلي .

- أنت تعلمين جيدا أنني أستطيع أن أضحي بأي شيء من أجلك . أي شيء ولا يوجد في الدنيا ما أفضله عليك . أنت تعلمين جيدا كم أحبك .

لكن ما تطلبينه مني ليس تضحية . أنت تطلبين مني أن أغير ، أتنازل عن كل شيء نبيل بداخلي ، أتنازل عما هو سبب وجودي ومبرر ، ولو فعلت ذلك

لن أكون فخر الدين الذي عرفته وأحببته . سأكون شبهه فقط ، وستكونين أنت أول واحدة تشتكي من غياب هذا القديم . مستحيل! أنت تريد مني

أن أتنازل عن تفردنا وعن حلمنا نفسه . ولم ؟ من أجل مظاهر ليس لها أي مبرر ولا تؤمنين أنت نفسك بها . ولكنك لا تستطيعين الوقوف في وجهها .

- لقد تنازلت عن أشياء كثيرة . أنا لا أطلب منك أن تسكن على النيل أو

نشتري سيارة آخر موديل . أنا أطلب فقط الأشياء الأساسية . الحد الأدنى

للحياة الإنسانية ، بيتا بيت يلماذا

- هذا كلام عام جدا بيت بجمعنا: موافق طبعنا . لكن أي بيت؟

- بيت . بيت آدمي . لا أقول بالتكليف ولا هي جاردن سيتي .

- هذا غير وارد أصلا . لا تكيف ولا جاردن سيتي . أنت تتحدثين عن

عالم لا أحبه وحلم حياتي أن أغرم . هذه ليست معاييرنا يا شيرين!

- نعم ، لكن أيضًا ليست معاييرنا أن نسكن على السطح في بين السرايات .

- ما لها بين السرايات؟

- زبالة

- هذه الزبالة هي الدنيا الحقيقية . هي المكان الذي عشت فيه حياتي كلها في هذا البلد . وهؤلاء الناس هم الناس الحقيقيون وهم الذين يمثلون مصر كلها وليس الحرامية بتوع المهندسين وجاردين سيتي

- أعتقد أنه لا داعي للاستفزاز والشتيمة ثم اني لم أطلب منك أن تكون منهم .

- لا ، أنت أذكى من ذلك يا شيرين . أنت أذكى من أن تطلبي مني المستحيل . أنت تطلبين أقل قليلا . في البداية أعمل في المكتب بجوار قضايا المجانية ، ثم بعد ذلك ، أتوقف عن القضايا المجانية وأتسرع للمكتب وقضايا الفلوس ، ولفترة فقط يا فخر الدين بعد ذلك أنت حر . والفلوس مهمة يا فخر من أجلنا ، ثم نتطور قليلا . لا داعي للبطولة الزائفة ومهمة المحامي الدفاع عن موكله وليس الفصل في القضايا ، وطبعًا كلما كان الموكل غنيًا كان ذلك أفضل .

- أنا قلت هذا؟ هل هذه هي فكرتك عني؟ ولما أنا بهذا السوء لماذا تحبني إذن؟

- ماذا قلت إذن؟

- قلتُ المفروض تنسبه أكثر للعمل في المكتب في هذه المرحلة ، لم أقل لك ارفض القضايا المجانية ، لكن أيضًا من غير المعقول أن ترفض قضايا كهيبة لمجرد أنك تظن أن أصحابها مذنبون

-

- نعم ، لا تهكم . أنت تعلم جيدا أن هذه القضايا سيأخذها محام غيرك وسيكسبها وسيكسب من وراثتها . أي أنك - وأنا معك مليما - الوحيد الخاسر في هذه اللعبة ، وبلا جدوى .

- لكني لن أكون قد اشتركت في تهرئة مجرم .

- النتيجة واحدة ، مع فارق بسيط وهو أننا خسرنا .

- أنا محام يا شيرين ولست تاجرا .

- إذا كنا نريد الزواج سنحتاج لبعض التجارة ، ثم إن التجارة لا عيب ولا حرام .

- ولكن ليس أنا يا شيرين . ليس أنا!

- أرايت؟ لا تستطيع أن تتزحزح عن نفسك قيد أنملة .

- هناك أشياء لا يستطيع الإنسان أن يتزحزح عنها دون أن يخسر نفسه . وأنا أيضا .

- وأنت أيضا ماذا؟ لا تستطيعين التزحزح عن الأصول والصح والمفروض؟ وعن معتقدات السيد الوالد الذي لا يحترم سوى المال؟

- بالعكس لقد تزحزحت كثيرا ، ولكن هناك حدود .

- حدود .

- نعم هناك حدود . وهل يتحتم على أن ألبس مائة لف وأنزل أملا صفيحة الماء من الشارع لكي أكون ثورية ومحترمة؟ ألم تر بذمتك منظر السلم والزبالة الملقاة عليه؟ والسمات القاعدة في المدخل وطشوت الفسيل؟ ما هذا؟ والعماء التي تختر عندك من السقف طول الشتاء ، والرشح على الجدران؟ وأولادنا إن شاء الله يلعبون في الشارع مع الميال المقرقة التي يمرح الذباب على وجوهها؟ أهذه هي الثورية والأحلام والدنيا الجديدة؟

- هذه هي البيئة التي أعيش فيها ، وإذا كانت سيئة فدورنا أن نعمل على تغييرها وليس الهرب منها لأنها في كل مكان .

- أنت حر فيما تفعل ، أما أنا فلا أستطيع العيش في مكان كهذا .

- وما الفرق بيننا؟

- الفرق أنني لا أستطيع ، ارتحت؟ نعم لا أستطيع . سمني برجوازية أو

متخلفة أو تقليدية . مثلما تحب . لكني لن أعيش في بيئة كهذه!

- وأنا لا أستطيع أن أفعل ما تطالبه مني .

هبت شيرين واقفة :

- الموضوع انتهى إذن . فكر جيدا فيما قلته لك ، وإذا وصلت لنتيجة

كلمني في التلفزيون .

عبرت شيرين السور الحجري بقدمها وابتعدت صاعدة الطريق نحو

كوبري الجلاء . - ربح أخرى تهب وتصف بأوراق الشجر الساقطة على الأرض الطينية الجافة بين الشارع والنيل .

* * *

« رأيت على الجسر أندلس الحب والحاسة السادسة

على وردة يابسة

أعاد لها قلبها

وقال : يكلفني الحب ما لا أحب

يكلفني حبها

ونام القمر

على خاتم ينكسر

وطار الحمام

رأيت على الجسر أندلس الحب والحاسة السادسة

على دمة يائسة

أعادت له قلبه

وقالت : يكلفني الحب ما لا أحب

يكلفني حبه

ونام القمر

على خاتم ينكسر

وطار الحمام

وحمل على الجسر والعاشقين الظلام

يطير الحمام

يطير الحمام

محمود درويش

* * *

قالت منار وهي شاحبة الوجه لاهثة :

- نعم مات . كانت شيرين قد تركت المكتب من فترة وسافرت إلى فرنسا مع والدها . وكان فخر الدين ما زال يأمل في أن تعود إليه . كان في حالة يرثى لها ، حالة اكتئاب كاملة ، وقد حاولت أن أساعده وأن أساعد شيرين ولكني لم أستطع . كان كل منهما على صواب بشكل من الأشكال وكنت كلما ناقشت أحدهما لا أستطيع أن أدحض منطقته ، لكن المنطقين كانا متناقضين تماما . شيرين كانت أقوى في الواقع . كانت غاضبة بشدة مما اعتبرته تخلياً عنها من جانب فخر الدين ، وقد مكنها ذلك الغضب من احتمال الانفصال ثم ساعد السفر على تأكيد قرارها بخروج فخر الدين من

حياتها . وبعد ذلك مثلما تعلم تزوجت من أحد أعضاء السفارة المصرية في باريس . كان خبر خطبتها هو الذي قضى على بقية أمل فخر الدين في عودتها . وقد مات بعد ذلك بقليل . لا أريد الدخول في تفاصيل ذلك . أنت تعرف القصة ولا شك . من الناحية الطبية اكتئاب حاد مصحوب بسوء تغذية أدباً إلى هبوط في القلب ثم الوفاة . قال لي الطبيب : إنه كان يشك في أنه انتحار بتناول كمية كبيرة من الأقراص المهدئة ولكن ما يعني هو الناحية النفسية لقد أحسست أن فخر الدين مات من قبل ذلك بفترة . مات موتاً بطيئاً في الفترة الأخيرة من حياته . كان في تدهور مستمر منذ بدأت مشاكله مع شهرين . وكان تركها له الحلقة الأخيرة في تدهور نفسيته . رحمه الله على قدر صلابته الخارجية كان هشاً للغاية من الداخل ، ربما هشاً أكثر من اللازم . عندما رأيته قبل وفاته بأسبوع لم أعرفه . كان شبحاً نحيلاً ومظلماً ، كأنما انحل إلى شفاهية مطلقاً إذا جاز التعبير ، وخيل إليّ أنني أرى من خلاله . عندما أخبرته بخبر خطبة شهرين - وكان ذلك يوم جمعة فيما أذكر - شعرت كأنه تلاشى من أمامي تماماً . لم يكن رد فعله عنيفاً . في الحقيقة لم يكن له رد فعل . لقد نظر إليّ وخيل إليّ أنني رأيت بريقاً في عينيه للحظة ثم لا شيء . انطفأت عيناه وانطفأ هو نفسه . ولم يرد علي . ظلت واقفة حوالي عشر دقائق ولكنه لم ينطق بكلمة واحدة . لم يتحرك ، لم يرمش حتى . رحمه الله ، كان موته رحمة له ولمن يحبونه .

العشاء الأخير

«أكلت من الرغيف الفد
ما يكفي المسير
إلى نهايات الجهات
عشاؤكم ليس الأخير»

محمود درويش

كشفت ابتسامتها عن أسنانها البيضاء ثم عادت شفتاها وانطبقتا مرة أخرى وقالت في جدية :

- لا أعرف ماذا أقول لك . رحمه الله . لقد تأثرت جدا بالخبر وظلت فترة طويلة في حالة من الاكتئاب والعجز عن العمل بعد سماعي بهذا الخبر المشؤم .
دق جرس التليفون فوضعت يدها على الساعة وابتسمت ثانية :

- سميت أسألك ، تشرب شاي؟

ردت على التليفون قبل أن تسمع الرد مني .

- نرجس مصطفى صباح الخير .

ظلت أنا أمل المكتب . بينما انهمكت الأنسة نرجس في الحديث التليفوني .
مكتبها شديد الأناقة . بجوار الباب أرخف صغيرة مكتظة بملفات سوداء مكتوب على كموبها بماء الذهب . كتب قانون قديمة في دولا ب زجاجي منلق . حامل معلقة عليه تقارير كمبيوتر في ملفات ضخمة . أوراق متناثرة على مكتب الأنسة نرجس ودبابيس وتليفونات . كانت المحادثة ما زالت مستمرة وتبدو طويلة . تسالت خارجا إلى مكتب السكرتيرة ريثما تنتهي مكالمتها . كان مكتب السكرتيرة خاليا . جلست هياما على المقعد المواجه لمقعد الخالي . مرت لحظة ثم سمعت صوت دق كعب عال على السلم . دخلت سالي وهي تلهث . وضعت حقيبتها على المكتب ونظرت للساعة وهي تسوي شعرها بيدها اليسرى . نظرت إلي نظرة عابرة وجلست على مكتبها . أخرجت علبة سجائر وفتحت زرار قميصها العلوي وهي تهوي على صدرها . تنهدت بعمق ثم أشعلت سيجارة . نظرت إلي ثانية وسألت :

- الأستاذ جديد معنا؟

عندما عرفت شخصيتي ومهمتي سألتني إن كان هناك جديد في الموضوع فقلت : أبداً بعض الاستقصاءات . أريد أن تحكي لي عن حياته في المكتب ، ماذا كان يفعل؟ كيف كان يتصرف في حياته اليومية هنا؟ انفعالاته ، مشاكله ، كل الأشياء العادية التي لم تذكرها في التحقيق . قالت :

- كل ما أعرفه قلته في التحقيق . كان مجنوناً بعض الشيء ، وأحياناً كان مجنوناً جداً ، ولكنه كان طيباً أيضاً . لقد كنت حذرة معه منذ البداية؛ لأنه شخصية متقلبة وهوائية . كان شديد الهدوء ، والبرود أحياناً ، وكان ذلك يستقر بعضهم هنا لكنه كان يريحني أنا شخصياً : لأن لدي ما يكفيني من الزعيق طوال اليوم (وأشارت إلى مكتب الأنسة نرجس) . كان ذلك أيضاً مريحاً أحياناً على مستوى العمل . أذكر أنه استلم مرة قضية مستعجلة جداً بعد أن رفضها الجميع لضيق الوقت المتبقي على نظرها . واستطاع أن يلمها وكسبها فعلاً . وذلك في الحقيقة كان مبعث إعجاب الأستاذ حازم به . سمعت سالي لحظة ثم قالت وهي تسوي قميصها بيدها :

- الحقيقة أنه كان غريباً بعض الشيء . في مرة جلس مكان حضرتك هنا صامتاً حوالي نصف ساعة . وهجأة بدأ يسألني أسئلة غريبة من قبيل لماذا اخترت العمل في المكتب هنا وماذا أريد أن أفعل في حياتي .. إلى آخره .

هزت رأسها وهي تتذكر . نظرت إلى وهي ساهمة بعض الشيء ثم قالت لي : - تعرف؟ أحياناً كنت أتذكر هذه الأسئلة بعد ذلك وأسألها لنفسها الله يرحمه . أكثر من تضايقوا منه في المكتب مدام سوزي . عمل معها ذات مرة في قضية لمدة ثلاثة أيام ثم أرسل لها ورقة مع الوكيل يقول لها إنه غير مستعد ببيع ضميره ويدافع عن مجرم! كان ذلك قبل موضوع قضية

المخدرات بكثير . من يومها وهي لا تطيقه .

* * *

كان إدوارد منحنيًا على مكتبه بكرشه الضخم يدون ملاحظات في كارت أبيض وساعة التليفون معلقة على كتفه الأيسر . ابتسم مشيرًا لي بالجلوس ثم وضع ساعة التليفون وواصل الابتسام :

- أنا أسف جدا ، ليس لدي وقت للاستفاضة في الحديث قلبي محكمة . حضرتك زميل وعارف .

ابتسمت ابتسامة باهتة فأكمل :

- على العموم لقد قلت كل شيء في التحقيق . فقط أريد أن أضيف إضافة ، الأستاذ حازم هو المستول . لقد قلت له من البداية إن هذا شخص مجنون رسمي وسيتسبب في مشاكل . حضرتك رجل قانون وفاهم . هذا النوع الذي يظل يتحدث في شعارات الحق والظلم أكثر مما يعمل في المحاماة نفسها ، هذا النوع مكانه ليس المحاكم . مكانه الصحافة ، الانتخابات ، يكتب شعرًا ، هو حر في نفسه لكن بعيد عنا وعن عملنا ، حضرتك عارف المحاماة . الأستاذ حازم لم يقتنع بكلامي ، إذن ماذا تريد مني أن أفعل؟ أربط الحمار مكان ما يريد صاحبه ، وقد كان . وهذه هي النتيجة

قام إدوارد من خلف مكتبه :

- اعتذري ، يجب أن أذهب الآن للمحكمة ، نحياتي لمحمود بك .

* * *

عندما عدت للأنسة نرجس كانت قد أنهت من محادثتها التليفونية الطويلة . دخلت فابتسمت لي وطلبت من السكرتيرة عدم إزعاجنا . كانت نرجس هي الشخص الرئيسي المستهدف من زيارتي للمكتب في الواقع ،

فقد كنت على علم مسبق بمواقف وأقوال الآخرين . جلست نرجس أمامي وقالت في هدوء :

- فخر الدين عيسى كان شابا ممتازا بجميع المقاييس . وقد ارتحت له من البداية . صدقتي ، لا تستمع لما قد يقوله لك البعض هنا . فخر الدين كان إنسانا نقيًا إلى أبعد الحدود وربما كان ذلك السبب في المشاكل التي جرت له هنا . كان مثاليًا زيادة عن الممكن . في الواقع هو كان يحب مهنته جدا ويحترمها . كان يحترم قيمة العمل نفسه كمحام وكان شديد التفوق فيها وهذا أيضًا كان يثير العدوات من جانب من هم أقلّ منه قدرة ، خاصة ممن هم أقدم منه في المكتب والذين لم يتحملوا الثقة التي كان الأستاذ حازم وأنا نوليها له بالرغم من حداثة عهده بالمهنة وبالمكتب معا . والحقيقة أن فخر الدين كان حادًا أيضًا في تصرفاته ، كان صريحًا لدرجة جارحة في بعض الأوقات ، وقد كلمته كثيرًا في ذلك . قلت له إن الموضوع الواحد يمكن تسويته بشكل حاد وجارح ويمكن تسويته بشكل لبق . وكان يقبل كلامي ولكنه رحمه الله كانت الحدة في طبيعه .

أنا شخصيا أعتقد أن سبب هذه الحدة هو الإخلاص الشديد والمثالية . ولكن طبعا ذلك لا يبرر سلوكه .

من ناحية ثانية فإنه كانت له وجهة نظر خاصة في المحاماة وفي المكتب . كان رآيه أن المكتب مثلا يجب ألا يقبل قضايا نعرف أن أصحابها مذبذبون ، طبعا هذا خلاف كلاسيكي حول دور المحامي والقاضي ولكن في نهاية الأمر ، وبغض النظر عن أن هذه وجهة نظر مثالية أو حتى خيالية أكثر منها عملية ، فهذا المكتب ملك للأستاذ حازم وهو الذي يحدد سياسته العامة وهو الذي يعين المحامين ويقيلهم . وهو غير مسئول أمامنا . أنا مجرد مديرة تنفيذية لهذا المكتب أتحرك في ضوء الخطوط العامة التي

يحددها لي . وكان رأيي الذي قلته له هو أنه يعمل في هذا المكتب ، وعليه أن يخضع لنظمه وقواعده وأن يتفقد سياساته . فيما بعد ، عندما يكون له اسمه ومركزه ومكتبه الخاص ، وهذا شيء أكيد في نظري ، يستطيع أن يطبق ما يشاء من نظم حتى لو أراد أن يعمل بالمجان . وفي الحقيقة فإن هذه كانت طريقة لبقة لإيهامه طفولية أفكاره هذه . وهذا شيء لم يكن ليعرفه إلا بالخبرة وبالتمرس في المهنة . مع الوقت فقط كان سيدرك أن التفرقة بين المذنب والبريء بالنسبة للمحامي مسألة صعبة وغير مهمة في نفس الوقت . وأن المحامي ليس خليفة الله في الأرض ولا المسئول عن العدالة الإلهية ولكنه حلقة في نظام معقد . نحن نعيش في مجتمع متشابك ومركب ولكل منا دوره . حتى القاضي لا يستطيع أن يزعم أنه يطبق العدل في الأرض . القاضي نفسه حلقة في سلسلة ، ومدى عدالة حكمه مرتبط بالسلسلة كلها ، إن كانت الحلقات الأخرى مختلفة سيكون حكمه هو أيضا مختلا . ثم في النهاية مسألة العدل هذه نسبية . ما الذي يشكل عدلا وما الذي يشكل ظلما ومن الذي يحدد ذلك ؟ هذه فلسفة القانون والقضاء وليست المحاماة . وهذه الأسئلة تشغل بال طالب الحقوق ولكن مع الوقت ينتهي إلى استحالة القطع فيها فينسأها في غمرة الحياة ويتدمج في دوره كمحام . فخر الدين كان غريب الشأن . لم يكن ينسى ولا ييأس . كان كل يوم كأنه أول يوم له في المحاماة . والنتيجة نمرها حضرتك أكثر مني .

- 2 -

شارع العهد الجديد ضيق ونصف مسفلت . تبيث الروائح والأصوات المختلفة من المحلات على الجانبين وتبيث النظرات المستفسرة من الوجوه الساكنة . بائع بطيخ يحتل ناصية على اليمين . هنا كان يعيش

في المطبخ الصغير وجدت بوتاجاز أبيض . نافذة صغيرة أمامها قلة ماء ناشفة ، لا قفطرة فيها .

- 3 -

كان علي أن أقابل الأستاذ عباس فخري في دار القضاء العالي . عندما بدأت أركن سيارتي في الموقف المجاور اجتاحني شعور قديم جدا . شعور لم أخبره منذ شهور طويلة . رايت المنادي نفس المنادي الذي كنت أراه عشرين مرة في الشهر . دفعت له نفس البقشيش الذي كنت أدفعه له ونزلت من السيارة وتوجهت للسلاالم العريضة . وضعت قدمي عليها . كم من الوقت مر علي دون أن أدخل هذا المكان؟ سمعت السلاالم ودلفت من بين الأعمدة الضخمة الشامخة ووجدتني صغيرا جدا وضير مرثي بملفاتي الصغيرة في حقيبتي الصغيرة . كان الناس يتدافعون خارجيين داخليين مثل أي يوم آخر ، وكان المخامون يجرون ويلهثون مثلما كنت أفضل . كان كل شيء مثلما كان ومثلما كنت . وكنت أظن نفسي أنا النابغة بمكتب النائب العام محور الحركة والنشاط . ذهبت فلم يتوقف شيء ولم يحدث أي شيء . ولا أحد يعرفني ولا أحد يقف لي ولنا أمر من بين الأعمدة إلى البهو الداخلي حتى السعاة الذين لم أكن أكاد أسمع تحيتهم في الصباح وعند رحيلي في المساء ، صرت أرقبهم من طرف عيني علي أتعرف على أحد منهم أو يذكرني أحد . كانوا جميعا يرقبونني في استفسار . لم يكن أحد هنا يعرفني . كان الأستاذ عباس فخري واقفا مع عملاء له ومنهمكا في حديث طويل . وقفت بجوار العمود في انتظاره حتى أتى . خرجنا من الدار ممّا وعبرنا الشارع باتجاه النقابة . كانت لافتات الدعاية الانتخابية تملأ حديقة النقابة . مقاعد الحديقة البلاستيكية البيضاء ممتلئة بأعضاء النقابة المنخرطين

في أحاديث الانتخابات . المناضد ممثلة بأكواب شاي وليمون وعلب سجاثر . جلسنا في طرف قصي بعيدا عن الزحام وجاء الشاي ساخنا . قام الأستاذ عباس فخري لتحية بعض مؤيديه واستغرق معهم في حديث صاخب . غاب نصف ساعة كاملة أكملت فيها شرب الشاي وتفتد أسماء المرشحين . عاد إلي وانحنى علي بكرشه الضخم والسيجار المعلق دوما في فمه :

- سامحني يا أستاذ . حضرتك شايف .

اهتزت رقبته السمكة المحاصرة بالياقة البيضاء المنشأة . عدل بيده ربطة عنقه وهو يجلس على الكرسي الذي يتسع بالكاد له واستطرد :

- لقد فضلت أن نجلس في الحديقة هنا وليس في مكتبي لكي نخلق جوا غير رسمي . ما دام الحديث غير رسمي ، أليس كذلك ؟

أومات برأسي موافقا وهو يضحك ضحكة صغيرة وينظر إلي . أطلال النظر ثم قال فجأة :

- هل تحب أن تبدأ أنت أم أبدأ أنا ؟ أقول لك ؟ أبدأ أنا . سعادتك شايف بنفسك لأي درجة الوقت ضيق . اسمع يا سيدي العزيز . قصة الأستاذ فخرالدين عيسى كانت فضيحة بكل المقاييس . فضيحة أولا للمكتب المحترم الذي كان يمثل المذکور . فضيحة للجامعة التي سلمته ليسانس الحقوق دون أن تُعرّفه دور المحامي من دور النيابة العامة ، وفضيحة للنقابة التي أعطته ترخيصا بمزاولة المهنة ، وفضيحة أخيره للمجتمع كله الذي فشل في تربية أبنائه إلى هذا الحد . هذا الولد كان ينبغي محاكمته ، مثله مثل الجندي الذي يرفض تنفيذ الأوامر في ميدان المعركة هل سمعت في حياتك عن محام يقف في محكمة الجنايات وبعد مراعاة طويلة عريضة في القانون والفلسفة وكل ما يخطر على بالك ، يطالب من هيئة المحكمة بتطبيق أقصى العقوبة على موكله ١٩ هذه كارثة ! والله العظيم كارثة .

هذا معناه أن نفلق جميعا مكائنا ونروح بيوتنا ولا نعمل . وفي التحقيق سيادته يقول ، إنه اكتشف أن موكله مذنبون وما لك أنت إن كانوا مذنبين أم أبرياء؟ هل شغلك أن تقرر من المذنب ومن البريء ؟ إذن ماذا يفعل القضاة؟ يترافعون عن المتهمين؟ شيء غريب كل إنسان في هذه الحياة له دور . دور محدد ومرسوم والمفروض ألا يخرج أحد عن دوره المرسوم والا أصبحت فوضى .

التقط الأستاذ عباس أنفاسه . أخرج منديله الأبيض ومسح العرق من غضون وجهه . هز رأسه هي أسى . فسأله :

- وماذا حدث بعد ذلك ؟

- أبدأ أنا كان رأيي أنه مجنون . مجنون بالمعنى الطبي للكلمة ، أي لديه اختلالات عقلية ونفسية يجب تقويمها في مصحة . وإذا لم يكن مجنوناً يجب محاكمته . وكان هناك فعلاً رأي في النقابة أن نحوله للقومسيون الطبي ليودعه في مصحة عقلية . لكن الرأي الذي ساد في المجلس وقتها - وربنا بسامحهم - كان الاكتفاء بفصله وإيقافه عن ممارسة المهنة . وفي رأيي فإن ذلك لم يكن إجراءً كافياً من جانب نقابة تحترم نفسها وتحترم مهنتها . صمت الأستاذ عباس ثانية فقلت له :

- نعم أنا على علم بهذه التفاصيل ، ولكنني كنت أسأل عما حدث بعد ذلك .

- أي بعد ذلك ؟ هذا كل ما حدث .

- أقصد ما حدث بعد إيقافه .

- ما أدراني أنا بما حدث بعد إيقافه؟ أنا لم أسمع عن هذا المجنون

بعد ذلك أبداً!

- وقصة معامتي بين السرايات؟

صمت الأستاذ عباس فجأة ونظر إليّ بحدّة . كانت ملامح وجهه

متجهمة، اختلجت عضلة في رقبته ونظر في ساعته وهو يقف :

- أنا لا أعرف ما هي قصة محامي بين السرايات التي تتحدث عنها هذا ولكن قل لي ، ألم يكن هذا الموضوع الكتيب قد أغلق؟ من الذي فحرفه ثانية؟

- 4 -

أسمر الوجه ، أسود العينين ، قصير القامة ضئيل الجسم .
- أنا علي .

قالتا لي كأنه يذيع سرا . ثم صمت . ظللت أقص عليه تفاصيل مهمتي ، وكان ينظر إلي طوال الوقت وهو يهز رأسه . سكّث ، فظل ساكنا . نظرت إليه . كانت حبات العرق تتسلل في بطنه من جيبيه إلى صفحة وجهه . لم يكن ينظر إلي . كان ينظر في قدمي . ظللت ساكنا . ظل صامتا . مرت لحظات . نظر إلي فجأة وقال في لهجة صعيدية واضحة :

- وبمدين؟

- لا شيء .

همهم وغصمهم وأطرق برأسه مرتين ثم عاد للصمت .

- أريد أن أقص ما رأيت ، ما ...

- اسمع يا أستاذ! أنا لا أريد أن تضيع وقتك معي ولا أريد تكسير دماغ .

ما فائدة هذا الكلام ؟

- لا أفهم .

- هم! عظيم! حضرتك بتكلم عربي؟ أنا بالكلمك بالعربي . بأسأل

سؤال محدد : ما فائدة أن أقص عليك كل القصة وأحكى وأوجع دماغ؟

هل سيفيد ذلك في شيء ؟ هل ستفعل بهذه الحكايا شيئا ؟ هل تستطيع أن

تفعل أي شيء ؟

- شيء مثل ماذا؟

- مثل الله يخرب بيوتكم يا أخي ! ألم يكنكم أنكم قتلتم الرجل ؟ ماذا تريدون بعد ؟ ماذا تريدون قل لي ؟ أنا أريد أن أفهم ! هل تريدون أن تقتلوني أنا أيضًا ؟ ولم لا ؟ ممكن ! ممكن تقتلوا أي واحد ! هي أي يوم يطلع في دماغ واحد منكم أنه يقتل شخص ما فيقتله . يا ليتكم تقتلوني يا شيخ معه وأرحتوني من قرفكم وقرف العيشة معكم ؟

صمت علي وأطرق ثانية . ثم استطرد بعد هنيهة . كان ساهمًا سارحًا :
- أنا والله لا أصدق ما حدث . حتى الآن لا أصدق ما حدث . وأحيانًا أقعد مع نفسي وأفكر كيف حدث ذلك . ولم ؟ ولا أستطيع أن أبلغ النتيجة التي أصل إليها . دماغي ستفجر . وأصبح بجيتني صداع غريب لا أعرف ما أصله ويبقى في رأسي طول اليوم . قل لي أنت أستاذ : لماذا قتلوه ؟ ألم يتحملوا وجوده إلى هذه الدرجة ؟ تعرف حضرتك ، فخر الدين كان معروفًا في بين السرايات كلها ، وبالذات منذ رفته من النقاية . كان قد تخلص من المكتب وقرفته ونشرغ للناس . كنت أقعد معه على القهوة التي على ناصية الشارع ، نشرب شاي ، نلعب طاولة ، وكانت الناس تأتي إليه وتسأله . كل من عنده مشكلة أو قضية كان يشرحها له بالتفصيل ويحدد له الإجراءات التي يجب أن يتخذها وكان يأخذني يوم لأي محام من المحامين الشباب المتطعمين على أبواب المحاكم ويفهمه القضية بكل جوانبها ، حتى أرقام المواد التي لها علاقة بالقضية كان يحددها للمحامي . وكان أيضًا يتفق على أتعاب المحامي . لم يكن يتقاضى عن ذلك أجرًا أبدًا . لكن صاحب المشكلة كان عادة ما يرسل لصاحبة المنزل صندوق فراه أو هداية أو أي شيء من هذا القبيل . وكانت هي تتولى إعداد الطعام لفخر الدين . أحيانًا كان صاحب المشكلة يسألني وخصوصًا لو كان من خارج بين السرايات

وكنيت أقول له يدفع أي مبلغ يرضيه إلى صاحب محل الكفتة الذي كان يرسل لنا العشاء على القهوة من حين لآخر .

ومع مرور الوقت اشتهر فخرالدين في الحي كله ، بل في بر الجيزة كله وكان يأتيه ناس من المعهيق ومن أم المصريين ومن كفر طهرمس وصفط اللبن وإمبابة . وبدأ المحامون الشباب يأتون للقهوة للجلوس معه واستلام القضايا بدلًا من أن يذهب هو إليهم . وتوطدت علاقتهم به ، وكنيت أحضر هذه الجلسات . كانوا أكثر من عشرين محاميًا وكان فخرالدين يوزع القضايا عليهم ويحدد لهم الأتعاب وفقًا لحالة صاحب الحالة . وأصبح هؤلاء المحامون يأتون كل ليلة تقريبًا حتى لو لم يكن هناك قضايا . وكان يأتي من يأتي من أصحاب القضايا ، وكانوا في معظمهم غلبة . وأحيانًا كان الخصمان يأتيان معًا فيفصل بينهم فخرالدين مباشرة . وأصبح سكان الحي كلهم ينزون به ويجلونه ويحبونه مثلما لم يحبوا أحدًا من قبل . وعرض عليه كثير منهم تزويجه من إحدى بناتهم لكنه كان يعتذر في أدب . وأقسمت صاحبة المنزل الذي يسكن فيه ألا تأخذ منه مليمًا طول حياتها . وصار الطعام يأتي إليها من سكان الحي كلهم بالدور وهي تمده له . وفي مرة حاول صاحب القهوة وصاحب محل الكفتة أن يستأثرا هما الاثنان بإمداد صاحبة المنزل بالطعام لفخرالدين فنثار سكان الحي وكادت تصبح خناقة وهددوا بإبلاغ فخرالدين ، فنراجع الرجلان فورًا ، وأصبحت هذه العادة عرفًا أو أقوى . وصار فخرالدين يخطو أمام كل بيت فيملو منه السلام ، ويلاعب الصغار المجتمعين أمام الباب ، ويدعوهم الرجال للدخول وهو يشكرهم في أدبه الجم وتواضعه الدائم . ومن أمانته عهد إليه القادرون بتوزيع زكاة المال والفطر فكان ينفقها في مواضعها والله على ما أقول شهيد . فقد كان رحمة الله يعرف المحتاجين والمعوزين

والأرامل وطلبة العلم وكان ينفق عليهم في السر من هذه الزكاة. وذات مرة رفضت مستشفى بولاق الذكور إدخال مريض من الحي فجمع الناس وذهبوا للمستشفى جميعاً ، فلما رأيت إدارة المستشفى سكان الحي كله أمام الباب خافوا وأدخلوا المريض ، ومن يومها استقام لأهل الحي العلاج في المستشفى ، رحمه الله لم تحدث أيامه ولا حادثة سرقة واحدة في الحي كله. وكانت سيرته موضع حديث الناس من البراجيل شمالاً حتى العياط جنوب الجزيرة .

صمت علي . كان ما زال ينظر في قدمي . قلت :

- وموته ؟

- قال : قتله .

- وقتله ؟

- قتلوه الخونة . قتلوه الكلاب . قتلوه من قض مضاجعهم هدأة بالنار

وراحتنا واطمئنان عيشتنا .

- وأين كان أهل الحي ؟

...

- وأين كنت أنت ؟

- أطرق علي ، ثم قال :

- في أسوان .

-5-

أخرج فخر الدين رأسه من تحت البطانية . فتح عينيه ثم أطبقهما ثانية. بقايا الضوء الذي تسلل داخل جفنيه يوخر مقلتيه . فرك جبينه بيده ثم أسند ظهره للسريـر . ما الذي أيقظه مبكراً هذا الصباح . لا بدري . شيء غريب في

جو الغرفة لا يدري ما هو . نزل مبطنًا من على السرير إلى الأرض لتحسن قدماء فردتي الشبشب . خارجًا من غرفة النوم إلى الصالة الصغيرة . أدرك فخر الدين أن هناك أمرًا غريبًا يسبح في هواء الشقة كلها . صمت غريب يطبق على المكان والزمان ويمتد ليشمل الكون كله . صمت جاثم يصدره على الهواء وعلى الأشياء . فتح الحنفية فلم تجيء المياه . بحث عن الماء في المطبخ . تنسحت حواسه والماء يجلو بقايا الحلم من ثايان النوم في وجهه . الصمت الغريب يكسب الهواء مرارة . النافذة الوحيدة في الصالة مفتوحة على ضوء بلا شمس . ما الذي أيقظني مبكرًا هذا الصباح ؟ بقايا العشاء لا تزال على المائدة الصاج المربعة . هذا الصمت مبالغ فيه . لا صوت يأتي من الخارج . حتى نقرات المطر الليلي توقفت . حتى بحيرة الماء التي تكونت على السطح الخشبي توقفت عن تسريب قطراتها في المطبخ . وقف فخر الدين في الصالة يحديق في النافذة المرتفعة . لا شيء يبدو منها سوى سماء بيضاء مفعمة بلون رمادي داكن وقمة المنزل المجاور . نظر فخر الدين إلى قمة المنزل المجاور وأمعن النظر . من الذي ضغط على نومي حتى خنق لحظته العابرة فأوقفها وأخرجني من الحلم إلى النوم إلى النقطة ؟ ، نظر فخر الدين طويلًا إلى قمة المنزل المجاور ثم ارتسم على ملامحه هدوء وسلام . استدار إلى غرفة النوم فتح باب الدولاب الخشبي القديم . مد يده إلى جليابه الأبيض وسرواله الأبيض . بحث عن جوربه الأبيض والتقطه . أكمل فخر الدين ارتداء ملائسه . حذاء كاوتشوك أبيض . أبيض شامق . وصباح . عاد فخر الدين إلى الصالة وجلال بنظره على الأشياء مودعًا : المنضدة ، الكرسيين الخشبيين ، ساعة الحائط القديمة ، المقعد العريض ذي القاعدة المساقطة قليلًا ، طرف السرير البادي من الباب الموارب ، صورته وهو صبي يرعى الغنم ، النافذة وقمة المنزل المجاور فتح الباب وخرج .

ختم

«سقطت قلاع قبل هذا اليوم
لكن الهواء الآن حامض»

محمود درويش

عام كامل قضيته في محاولة استقصاء ورواية أحداث مقتل فخر الدين.
عام كامل . تركت خلاله عملي وأهلي ومستقبلي الذي كان يجري بين يدي
وكنت أرى آخره من بدايته . عام كامل قضيته متنقلا بين البلاد التي وطأها
قدما فخر الدين أو تلك التي هفت إليها نفسه . قرى نيل مصر ومدنها . مقام
وزوايا . أجران وحقول وبيوت وشوارع . صحاري وبحار ومراكب وسجون . كل
شبر مر فيه مررت خلفه . كل حائط كتب على جبره قرأته . وكل نظرة رأها
استعدتها ونظرت فيها . وحاولت ترتيب كل المتناقضات التي سمعتها كي
أفهم زمنه وأيامه ومقتله الذي تأكد لي مرات عدة . وبذلت في ذلك جهدا
يصعب على تصوير مقداره . إلا أنني في النهاية فهمته . وفهمت مقصده .
والآن . ماذا أفعل بنفسي التي تفتحت فشربت من حقيقة مقتله حتى
أثرعت؟ ماذا أفعل أنا الذي لم أعد مثلما كنت؟ ماذا أفعل بكل الذي دخلت
فيه ورأيتة فحفر قلبي وبأمتني ونفسي؟ وماذا أفعل بهذه الحقيقة المرة التي
تأكدت لي؟

هل أغرقها في نفسي وطياتها وأقفر من فوق هذه الهوة الهائلة التي
تفصلني عني أنا القديم؟

أم أترك نفسي تغرق في مرارة حزن هذا النهم المضعف؟
وهل تبقى في نفسي طيات تحتمل أن تطوي شيئا من بعد ما رأيت؟

عمر فارس

نبذة عن المؤلف

- كاتب ودبلوماسي مصري ، يعمل حاليًا أستاذًا زائرًا للعلوم السياسية بالجامعة الأميركية بالقاهرة.
- صدرت له رواية « أسفار الفراعين » (1999-2009) ، ورواية « غرفة العناية المركزة » التي رُشحت لجائزة الهوكر العربية لعام 2008 .